

821.3 (621)

IBR

صلاح أحمد إبراهيم

غاية الأينوس
صلاح أحمد إبراهيم

(تكريماً له)

تقديم الأستاذ الكبير محمد

تسليم القادة والفرسان الملتزمين بالوفاق

الأستاذ فاضل بن قتيوب الله



الناشر: دار نشر

صالح أحمد إبراهيم

غابة الأبنوس وقصائد أخرى

تقديم الأستاذ الطيب صالح

تصميم الغلاف واللوحات الداخلية بالألوان :
الأستاذ عثمان وقيع الله

الناشر : إدفرا - باريس

تقديم

ربما يكون صلاح أحمد إبراهيم هو أكثر الشعراء السودانيين « سودانية » في شخصه وفي شعره . فهو قد ولد ونشأ في مدينة أم درمان ، التي نقول عنها إنها العاصمة « الوطنية » للسودان ونعتبر أنها خلاصة ما يمكن أن يُسمّى بـ « الحضارة السودانية » . ليست أم درمان الآن كما كانت منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، فقد تغيّرت بها الأحوال وأصابتها عوامل التغيير ، وإن كان ما يزال فيها بقية من طابعها القديم . كانت في ذلك العهد قريبة من هيئتها التي كانت عليها كحاضرة للدولة المهدية ، فقد أنشأها الإمام المهدي على الضفة الغربية للنيل ، مبتعداً بها عن الخرطوم التي كانت حتى في تلك الأيام « افرنجية » الطابع . وجاءت القبائل من الشرق والغرب والشمال والجنوب فاقامت فيها . ولما عمرت ، بدأ الناس ينزحون إليها ، في هجرات هادئة متدرّجة ليست عنيفة كهجرات الناس هذه الأيام إلى المدن . امتزج الناس مع مرود الزمن ، وامتصّت المدينة مؤثرات وافدة من الوطن العربي والإسلامي : من مصر والمغرب والحجاز وغرب أفريقيا وحتى من الهند وأبعد، فتكوّن نسيج جذاب فريد من نوعه .

ولما فتح الإنجليز بلاد السودان ، اهتمّ الحكم الجديد اهتماماً خاصاً بمدينة أم درمان ، إذ كانت مركز المقاومة

لوجوده ، فكأنه أراد أن يروّضها ويستلّ سخيمتها ، فأنشأوا فيها من المدارس أكثر مما أنشأوا في أي مدينة أخرى في السودان ، فأتاحت لأهل أم درمان فرص لم تتّح لغيرهم ، وكانوا أسبق إلى الأخذ بهذه المعارف الجديدة التي جاء بها المستعمرون . لكن المدينة استوعبت كل ذلك بطريقتها الهادئة المتحضرة ، فتغيّرت وكائنها لم تتغير . وكان الواقد إليها من أنحاء السودان الأخرى ، يجد فيها شيئاً مختلفاً ، ولكنه مألوف له في الوقت نفسه ، ليس بعيداً عن إدراكه كل البعد . كل واحد يجد في أم درمان أهلاً وعشيرة ، ويجد أن أحوالهم وأسلوب عيشهم أحسن من حاله وعيشه ، ومع ذلك فهي حياة يالفاها ولا تجعله يحسّ بالنفور والوحشة .

تلك هي أم درمان التي نشأ فيها الشاعر ، في أسرة ذات علم ودين ، تمتدّ جنوبها إلى شمال السودان . وفي هذه الأسرة الأمدرومانية المحافظة ، نشأت فيما بعد اتجاهات ثورية تحريرية ، ولكن في نطاق هذا التسيج الفريد . فأخت الشاعر ، فاطمة أحمد إبراهيم ، من الأعضاء البارزين في الحركة الشيوعية في السودان ، وكانت أول سيدة تدخل البرلمان . وهي مناضلة صلبة ، لم تقتر همتها طوال عهد النميمري وكانت في طليعة من تصدّوا لذلك العهد . ورغم ذلك فهي في حياتها سيدة عادية كسائر السودانيات ، وهي مؤمنة متمسكة بشعائر دينها ، ولا ترى في ذلك تناقضاً مع ولائها السياسي .

تشربُ صلاح أحمد إبراهيم هذا الروح الأدرماني
المتحضر ، وكانت مدارس أم درمان في الأربعينات
والخمسينات ، حين بدأ الشاعر تعليمه ، هي خير مدارس
السودان ، يُعَلِّمُ فيها أساتذة أفاضل لعت أسماؤهم بعد ذلك في
مجال الحياة العامة . كانت توجد جماعات فكرية وأندية أدبية ،
وتحفل المدينة بالليالي الشعرية التي كان يقيمها أحياناً شعراء
كبار يفدون من مصر خاصة مثل علي الجارم وعباس محمود
العقاد . بل إن مدينة أم درمان اعتنت بالمسرح أيضاً حتى في
ذلك الزمان ، ونشأ فيها مسرح سوداني أصيل ومتطور ،
وكانت تغدو إليها الفرق من مصر . وكانت الأندية تعمّر
بالنشاطات السياسية . ويمكن أن يتخيل المرء أن الشاعر وهو
في تلك السن المبكرة ، مع حساسيته المتفتحة وعقله الذكي
وحاسة حب التعرف على الدنيا المحيطة به ، وهي حاسة لا مفر
للشاعر منها ، لا بد أنه خاض في غمار ذلك كله . إستمع إلى
أغاني سرور و خليل فرح وإبراهيم عبد الجليل و زنتار وغيرهم ،
ورأى أو لعلّه عرف العبادي وود الرضى وغيرهما وشارك في
حفلات الأعراس الأدرمانية التي لم يكن لها مثيل في أي مكان
آخر في السودان . ولا بد أنه كان يراقب بعيني الشاعر ، سواء
أكان يعلم أنه سوف يكون شاعراً أم لا ، ويختزن التجارب
وينتظر .

ثم دخل جامعة الخرطوم عام ١٩٥٤ ، وقد كانت تلك نقلة

كبيرة للناس الذين يجيئون من أطراف السودان في الأقاليم ،
أمثالنا . وكان يبدو لنا أن « أولاد أم درمان » ينخرطون في ذلك
المكان الغريب بيسر كأنه شيء اعتادوا عليه من زمن . هناك
على أي حال ، كما يمكن أن يتخيل المرء ، انفتحت له أفاق
أوسع . كان قد قرأ القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه على يدي
والده ، وقرأ بعض المقتون وقرأ النحو والصرف ، وألم بالشعر
الجاهلي والأموي والعباسي وبعض الشعر الحديث من السودان
ومصر وبلاد الشام والعراق . ولكن هذا مكان مختلف ومناهج
أخرى . كانت جامعة الخرطوم في تلك الأيام ، كما أرادها
الإنجليز ، مكاناً لتعليم النخبة من السودانيين ، على غرار
الجامعات البريطانية ، تدخلها قلة قليلة من المحظوظين ، بعد
جهد شاق ومنافسة عنيفة . كانت فيها عيوب التعليم النخبوي
بالطبع ، ولكن بالمقابل كانت فيها كل حسنات تعليم الصفوة .
هنالك تعرض الشاعر لتأثير أساتذة أجلاء في اللغة العربية ،
أنكر منهم الدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور محمد النويهي
والدكتور عبد العزيز اسحق ، وهم مصريون ، والدكتور عبد الله
الطيب وهو من نوابغ السودانيين ، والدكتور إحسان عباس وهو
فلسطيني ولعله كان أعظم أثراً على الشاعر من غيره ، وما تزال
تجمع الشاعر به صداقة حميمة إلى اليوم .

ولا بد أن الأدب الإنجليزي الذي كان يُدرّسُ بعناية فائقة
في جامعة الخرطوم تلك الأيام ، فتح عيني الشاعر على دنيا

واسعة جديدة عجيبة . أحب الشعراء الرومانسيين الإنجليز ،
كما لا بد أن يفعل الإنسان المزهف الحس في تلك السن
الفضة . أحب كيتس ووردزورث وكولردج وبايرون وشلي ،
وخاصة شلي .

وهكذا ترى أن صلاح أحمد إبراهيم خرج من صفوة
السودانيين الأمدرماتية ، ودرج في مدارسها وكانت صفوة
مدارس السودان ، واشتدَّ عوده في جامعة الخرطوم ، وهي
جامعة « للصفوة » على غرار الجامعات البريطانية . فهل صار
« نخبياً » في فكره وشعره ، وهل لاذ إلى برج عاجي ينظر من
عليائه إلى الحياة والناس ؟

أبدأ . صحيح أن صلاح لا يمكن أن يسمى بحال من
الأحوال شاعراً « جماهيرياً » ، فشعره مصقول أنيق فيه عناية
كبيرة بالـ « شكل » (Form) . وهو شعر مثقّف لا بد لقارئه
من ذخيرة ثقافية ليفهمه كما يجب ، ويستمتع به على أحسن
وجه . ولكن الشاعر ، لأنه من أم درمان ، ولأنه نشأ في تلك
البيئة التي وصفتها لكم ، استوعب كل هذه المؤثرات بسهولة
شديدة ، فكانها أشياء كان يعرفها أصلاً . وتلك على أي حال
سمة قديمة في وادي النيل ، وفي السودان الشمالي بصفة
خاصة . فأنث لا تجد في هذا الديوان ، كما تجد في شعر
الفيثوري مثلاً ، وحتى في شعر محمد المهدي المجذوب ، وهو
شاعر يمكن أن يقارن بصلاح أحمد إبراهيم في « سودانيته »

- لا تجد دلائل على العنف ، رغم أن بعض مواضيع القصائد عنيفة ، ولا على هذا الصراع الحضاري الحاد ، ولا على أي إحساس غامر بالمرارة . ها هنا قصائد ألجَمَ « الشكل » فيها حدة المواضيع التي عالجها الشاعر وأضفى عليها على وجه العموم طابعاً تأملياً . ولعل أكثر موضوع عنفاً من المواضيع التي تطرقت إليها قصائد هذا الديوان ، هو موضوع قصيدة « عشرون دسته » . ففي عام ١٩٥٦ ، وكان السودان حديث عهد بالاستقلال ، أضرب مزارعو مشروع « جودة » الزراعي على النيل الأبيض وامتنعوا عن تسليم القطن لإدارة المشروع التي لم يعوبوا يتقون فيها ، وقد كانوا إسمياً شركاء في المشروع ، فاعتقلتهم سلطات الحكومة وزجّت بهم ، وهم زهاء مائتي رجل ، في سجن ضيق ، فماتوا جميعاً اختناقاً . وقد أحدثت هذه الواقعة الأليمة هزة عنيفة في ضمير الشعب السوداني .

فاضت قريحة الشاعر بقصيدة صورٌ فيها المناشة تصويراً دقيقاً وهاجم فيها الجناة وعلى رأسهم سلطة الدولة ، هجوماً صريحاً . وقد بدأها هكذا :

لوأنهم

هزمت جرجيرٌ يعدُّ كي يباع
لخدم الإفرنج في المدينة الكبيرة
ما سكّخت بشرتهم أشعة الظهيرة

وبان فيها الإصفرار والذبول
بل وضِعُوا بحزنٍ في الظلِّ في حَصيرةٍ
وبلَّت شِفَاهَهُمْ رَشَاشَةٌ صغيرةٌ
وقبِلَتْ خَنُودُهُمْ رَطُوبَةُ الأنداءِ
والبهجةِ النضيرةِ .

هذه مأساة حقيقية ، صاغها الشاعر بحذق في قالب مؤثر . ومع ذلك فإنني حين أقرأ القصيدة أحسّ بالحنن أو إذا شئت « الأسى » ولا أحس بالغضب . هل لأن الشاعر بدأها بهذه العبارة الحزينة « لوأنهم ... » ؟ أو أنّ ذلك بسبب خاصية في طبعي ، فأتأ أكثر ما أحسّ بالحنن وليس بالغضب . ثم انظر إلى قصيدته عن حرب الجزائر التي أسماها « أغنية التروبادور للجزائر » ، وهي قصيدة رائعة بكل المقاييس . هذا ما أعنيه بسطوة « الشكل » على « الموضوع » . فم منذ البداية يخلع الشاعر على جسد القصيدة عباءة « التروبادور » ، الشعراء المغنّين الجوالين في العصور الوسطى . فكان عاشقا يجلس بالليل تحت شرفة حبيبته التي هي الجزائر هنا ، بينها أشجانه . ليس ذلك فحسب ولكنك تجد في مطلع القصيدة هذه الأبيات :

وأنت يا حبيبتي في شهركِ الأخيرِ
تَحْرُكُ الجنينَ ، أشفقي عليه من إجهاضٍ
حتى إذا اشتدَّت عليك قبضةُ المخاضِ

هَزِي إِلَيْكَ يَا حَبِيبَتِي بِجَذَعِ نَخْلَةِ الشَّعْبِ
تَهْدِي إِلَيْكَ كَيْفَ تَطْلُبِينَ رُطْبَ الْقُلُوبِ
وَمَهْجَ الرُّجَالِ

ها هنا بالطبع ، إشارة صريحة إلى الآية الكريمة في
سورة « مريم » : (وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا
جَنِيًّا) وسورة مريم عندي هي Pieta القرآن ، يكتمل فيها
العنصر الذي يُسمَّى في الدراما الإغريقية Pathos أي
« الأسى » . لذلك فإن هذه القصيدة يشيع فيها روح رومانسي
ودوح من الأسى . ويظل هذا الإحساس يلزم القارئ ، أو
يلازمني أنا على أي حال ، حتى حين تزداد الأبيات عنفا :

يا ليتني رصاصاً تُطْلَقُهَا الْجَزَائِرُ
أو شمعةً ساهرةً تُؤَسُّ لَيْلَ سَاهِرٍ
أو « كلمة السر » تقودُ ثائراً لثائراً ..
أو خنجرٌ طيَّ قِدَائِي خَفِيَّ مَآكِرٍ
أُغِيبُ فِي مَهْجَةٍ جَاسُوسٍ وَجَنِبٍ غَائِبٍ ...

يجب أن أسارع إلى القول بأنني لا أعتقد بأن هذا الطابع
« التأملي » يقلل بأي حال من قيمة الشعر . بل على العكس ،
إنه يزيده عمقاً وقوة . فهذا الشاعر ، فوق كل شيء ، شاعر
« صلب » . ولكن شعره ليس انفعالا وقتياً لأحداث مرهونة
بزمان ومكان ، بل هو مشاركة مهمة في رقد نهر الشعر
والفن في « صبيروته » اللامتناهية . وحسبك أن هذه الأبيات

عينها ، تنطبق في يومنا هذا ، على السودان ، والأمة العربية ، بل على الإنسانية كلها وهي حبلى بجنين يتشكل في رحم الغيب . كذلك أقول إن الشاعر ليس دائماً هكذا ، فهو في مقالاته الصحفية ، يغضب أحياناً غضباً جامحاً ، ويقسو أحياناً قسوة موجهة . ولكنه فيما يبدو ، حين يجلس ليكتب الشعر ، تنزل عليه « سكينه » هي سكينه الفن في محرابه الجليل .

صلاح أحمد إبراهيم « سوداني » بشكل كامل ومطلق ، وأنا لا أعرف شاعراً يعشق السودان كما يعشقه صلاح أحمد إبراهيم . الفيتوري وآخرون يحبون السودان أيضاً ، ولكن كأنهم لا يحبون السودان الحقيقي ، ولكنهم يحبون « مثال » السودان في عقولهم . وحتى محمد المهدي المجذوب رحمه الله ، وقد قتله حب السودان ، كان يبدو أحياناً كأنه يتمنى لو انعقد من أسر ذلك الحب . ولكن صلاح أحمد إبراهيم يحب السودان جملة وتفصيلاً . وهو حب مبني على معرفة دقيقة وليس على مجرد « وهم » . وفي هذا الديوان ، وفي ديوانه الثاني « غضبية الهيباي » أدلة كثيرة على دقة معرفته بالسودان . ربما لأنه نشأ في أم درمان فقد وجد السودان كله مجتمعاً هناك ، في متناول يديه .

بعد ذلك سافر ، ودرس وبحث ، وتعمقت معرفته . وهي معرفة تشمل كل شيء ، البيئة والتاريخ والشعر والفن والميدح واللهجات وحفاظ القرآن ومشايخ « الخلاوي » وشعراء الدوبيت ،

لذلك فهو حين يطرق موضوعاً ما ، فإنه يوفيه حقه من التفاصيل الدقيقة ، ويجعلك تحس أنك تقف مع الشاعر في مكان بعينه وفي زمان بعينه ، رغم أن القصيدة تملّق بك بعد ذلك في آفاق أبعد . ولناخذ قصيدته « استسقاء » . هنا ، تجد الشاعر يذكر « النَّال » و « الأنيس » وهي أعشاب تنمو في البادية ، بعد هطول المطر ، ويذكر « الثَّبر » وهو زهر أصفر اللون ، ويذكر « الدُّعاش » وهي كلمة موحية ، تعني تلك الرائحة العجيبة التي تنتفّس بها الأرض المرويّة ، بطينها وأعشابها . ويذكر « المطامير » ، وهي مخازن الغلال في جوف الأرض ومجرد ذكرها يوحى بالخصب ورغد العيش . يقول :

ومثما يَنْفُشُ مَغْبُونٌ عَلَيْنَا أَمْطَرِي

على بلاينا اللّهُنَّيْ وَعُشَيْنَا الْبَيْسُ

وكلمة « يَنْفُشُ » يستعملها السودانيون كناية عن تنفيس الصدر من الغضب . وقد قال الحردلُ قبلاً وهو يصف هطول المطر في أرض « البُطانة » في الشرق :

الخَبَرُ الْأَكِيدُ قَالُوا الْبُطَانَةُ انْتَرَشَتْ

وسارياً تَبْقِيْقُ الصَّبَاحُ مَا انْفَشَتْ .

ويقول صلاح أحمد إبراهيم في هذه القصيدة :

وحيثما « تَرْزِمُ » بِاصْطِحَابِ

نَسْجِدُ شَاكِرِينَ يَا سَحَابَ .

وكلمة « يَرْزِمُ » التي هي هدير الرعد ، تحدث في القلب

صفحة حين يتذكر الإنسان قول حاج الماحي :

كُلَّ لَيْلَةٍ نَارُكَيْنِ فَوْقَ عُمْدٍ

حَسَن طَارَتْنَا « يَزْدَم » كَالرُّعْدِ .

فهذا إذا شعر ، يفعل ما يفعله الشعر العظيم دائما . إنه يخاطب حواسك جميعاً ، السمع والبصر والشم واللمس ، ويطلق لخيالك العنان ، ويعطيك صوراً تنادي لك صوراً أخرى ، ويربطك بما أنت فيه الآن ، وبما هو كامنٌ في وجدانك ، من حيث تدري ولا تدري . ثم إذا وصف لك منظرًا فكانت هناك بالفعل ، تشاهد بأَمِّ عينيك . خذ مثلاً قوله في وصف بعض أعراض ذلك الجفاف والقحط :

قَدْ جَفَّ طِينٌ قَاعِهِ عَلَى هَوَانٍ

كَثُلِّ قَهْوَةٍ جَفَّ عَلَى فُنْجَانٍ

وفي المكان

أَثَارُ أَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ وَشَلُو قَرْيَةٍ وَعِظْمَتَانِ

لِقَرْيَةٍ عَطُشَانَةٍ شَقَوْهَا جِرَاحُ

تَنَزُّو بِغَيْرِ دَمٍ

أُبْهَرَةٌ كَانَتْهَا حِمَمٌ .

هذه دقةٌ ميعتها الحب ، فالشاعر عاشقٌ للمكان ، كلفُ

به ، يعيش طينه الذي جف وتشقق ، وشلو القرية وعظام

الحيوان الذي هلك من الظما . وفي قصيدته « في الغربة » يبرح

الشاعر صراحةً بهذا الحب :

أَتَمَثَّلُ أُمِّي ، إِخْوَانِي ،
وَالثَّالِي نَصَفَ اللَّيْلِ طَوَالَ الْقَرَانِ

فِي بِلَدِي ،
حَيْثُ يُعَزُّ غَرِيبُ الدَّارِ ، يُحِبُّ الضَّيْفُ
وَيُخَصُّ بِأَخْرَجُوعَةٍ مَاءٍ عَزَّ الصَّيْفُ
بِعَشَا الْأَطْفَالِ ،

« بَيْكَلِ » الْبِشْرِ وَيَا إِيْنَسَا إِذَا مَا رَقَّ الْحَالُ .

نعم ، هذا هو « الوطن » الذي عرفناه وأحببناه ولم نزل
نبكي عليه . وصلاح أحمد إبراهيم سيد المحبين جميعاً ، فهذه
أبيات موجعة إلى حدِّ البكاء . وسوف تجد في ديوانه « غُضْبَةُ
الهِبْيَاي » شعراً أكثر إيْلاماً . وفي هذه القصيدة يقول صلاح
قواته الشهيرة :

وَالنَّيْلُ بَعِيدٌ ،
النَّيْلُ بَعِيدٌ .

ونحن نعلم أن النيل بعيد ليس بمعنى المسافة المادية فقط ،
ولكن بمعنى « الحُلم » الذي ما يَفْتَأُ يزداد « نُوْياً وبعداً » كما
قال التجاني يوسف بشير . وكأنما الخطوب التي أَلَمَتْ بنا منذ
عهدنا بالاستقلال ، والأعوام التي مرَّت ، كل عام يجيئنا ببلوى
جديدة تهتف بنا : « النيل بعيد ... النيل بعيد ... النيل
بعيد ... » . ولكنه متاف إن يفتُ من عضدنا ، ففي طبعنا ذلك
التفاؤل القنيم ، الذي عبَّر عنه شاعرنا الآخر في قوله وهو

يخاطب جملة مستحقاً :

« أَسْرَعُ ، جَوْدُعُ ، امْسَيْتُ ، والمواعيد قَاتَنُ »

لكن لا يتبادر إلى الذهن أن حبَّ الشاعر لوطنه كل هذا الحب ، يحصر أفقه ويُعمي عينيه . فقصائد هذا الديوان تطرق مواضيع متنوعة وتمتدَّ من كينيا إلى الجزائر إلي الصحراء الغربية . لكن هذا الحب هو نقطة الانطلاق إلى العالم . فهو عربي عميق العروية ، ولكنه ينطلق إلى العروية بمعناها الواسع ، من عروية السودان نفسه ، وكأنه يتعمدُّ أن يقول « إن عرويتنا قديمة وأصيلة وليست شيئاً طارئاً علينا » . لذلك فهو يستعمل ، كأنما عن عمد ، كلمات من العامية السودانية ، كلها كلمات قصيحة ، ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد ، ترتبط في الوقت نفسه بالتراث الشعري السوداني الذي يرتبط بدوره أوثق ارتباط بتيار الشعر العربي من قديم الزمان . ثم هو مسلم عميق الإسلام بهذا الروح السوداني ، الذي يفلب فيه التسامح وسعة الصدر والبعد عن التزمت . وقد أثر عن صلاح أحمد إبراهيم قوله نحن عرب وأكثر . هذا الشيء الإضافي ، هو تلك الروافد التي أخذتها مدينة أم درمان من النوبة في الشمال والبقا في الشرق والجنوب وغزلتها كلها في نسيج فريد ، قديم جديد . ولا يملك الإنسان إلا أن يصدق الشاعر ، حين يعلن عن « مذهبه » ببساطة في هذه الأبيات :

فأنا قلبي ملوئ الضعفاء

وأنا حبي خيرٌ للمحرومين وللتعساء
وأنا مَنْ كَفَى
ألواحُ نِجاةٍ وقواربُ
وأصابها تمتدُّ حبالُ الهاوي تمتدُّ دروباً للهاربِ
أبوأبي ليس بها حُرَّاسُ
يفتحها حبي للناسِ ، لكلِّ الناسِ .

نعم . الشاعر يصف نفسه ، ويصف مدينته أم درمان ،
ويصف السودان كما نحب جميعاً أن يكون السودان .

بقي أن أنكر ، أن في حياة الشاعر وفي شعره ، جانباً
سياسياً مهماً لا يمكن أن يغفله الدارس لشعره . ولكنني هنا لا
أكتب نقداً ولا دراسة ، وكل ما أردته من هذه الكلمات ، أن
أعبر عن مدى حبي للشاعر وشعره . وأنا أصلاً أؤمن بأن
أحسن النقد ما كتب عن محبة . لذلك أكتفي بالقول إن صلاح
أحمد إبراهيم ، لأسباب عدة ، ألقى بنفسه في خضمِّ العمل
السياسي منذ صباه الباكر ، وجذبت أفكار اليسار الماركسي .
ولكنه ، كما كان حتماً أن يحدث لشاعر في مثل حساسيته
واتساع أفاقه ، انفلت من إسهار ذلك الالتزام السياسي ، بل إنه
تصدى بجرأة عظيمة في مقالاته الصحفية وفي بعض قصائده
لنقد الحزب الشيوعي ، وأمينه العام بالذات ، عبد الخالق
محجوب . كانت جرأة عظيمة لأن الحزب الشيوعي في تلك
الأيام كانت له سطوة وجبروت . وقد عمل الشاعر فترة طويلة

في وزارة الخارجية وتقلد مناصب عدة ، كان آخرها منصب السفير في الجزائر . وقد استقال من ذلك المنصب ، حين أعدم النميري الشفييع أحمد الشيخ وعبد الخالق محجوب وآخرين بعد المحاولة الانقلابية التي قادها هاشم العطا . وأنا أعتقد أنه لم يفعل ذلك فقط لأن الشفييع أحمد الشيخ كان زوج أخته قاطمة ، ولكن من ناحية المبدأ ، رغم أنه كان على خصومة فكرية حادة مع عبد الخالق محجوب ، ولم يكن مؤيداً لذلك الانقلاب . ثم استقرّ في باريس منذ ذلك الحين ، يعيش حياة بسيطة لم تخل من العنت في بعض الأحيان ، يقرأ ويكتب ويتعرّف على الثقافة الفرنسية أكثر فأكثر ، ويطوي جوانحه على ذلك الحب الدفين للسودان الذي ملك عليه أقطار نفسه .

هذا شاعر كبير ومتميّز من شعراء العربية في هذا العصر . وأنا لا أقول ذلك جزافاً فهذا رأي اقتصت به الناس جميعاً الآن . وهذا الديوان عبارة عن مائدة عامرة لا تنفد خيراتها . لقد نُشر منذ أوائل الستينات والشاعر بعد غض الإهاب ، ومع ذلك فهو ناضج مكتمل . تفد الديوان واحتجب طويلاً ، لذلك فهذه مناسبة تدهو للفرح ، أنه يصدر من جديد في ثوب قشيب . ويضيف إلى سعادتي أن صديقنا العزيز ، صاحب المواهب الفذة المتعددة ، الشاعر النائر الرسّام الخطّاط عثمان عبد الله وقيع الله قد صمم له الغلاف ووضع له الرسوم

واللوحات الداخلية . فاجتماع موهبتين كبيرتين كهاتين في عمل واحد ، هو بعد ذاته حدث كبير .

ويعد ، فإن الشاعر قد اختار لديوانه هذا العنوان الرشيق الموحى « غابة الأبنوس » . إن الأبنوس شجر ينمو عندنا في الغرب وثمة بلدة تسمى « يابنوسه » . وهو حطب يجمع بين المتانة والجمال . كذلك هذا الشعر . وهو حطب أسود اللون ، ولكنه سواد تخالطه ألوان كثيرة تتراعى للعين ، وتشع في اتجاهات شتى ، فكأن الضوء يتكسر وينعكس على لوح من البللور . إنه خشب جذّاب ، ناعم اللمس إذا مُمّكَل ، ولكنه صلب يستعصي على الكسر .

وقد أفصح الشاعر عن شيء من هذا ، في أبيات هذا بها الركبان في السودان :

أنا من إفريقيا : صحرائها الكبرى وخطّ الإستواء
شَحَّنتني بالحراراتِ الشُّموسُ
وَشَوَّنتني كالقرايين على نارِ المجوسِ
لَفَحَّنتني فأننا منها كَعُودِ الأبنوسِ .

نحن في السودان نحتمي بهذه الأبيات بصفة خاصة ، ونزديدها ونشدو بها ، لأننا نحسّ بأنها « تلخّصنا » وتعرب عن ما نظن أنه « هويتنا » - كما يُقال هذه الأيام .

الطيب صالح

كلمة من الدكتور إحسان عباس ...

« شاب وديع هادئ ، ولكن وداعته ومدونه يحجبان ثورة عاتية والتزاما عنيدا بالمبدأ وكفاحاً لا يهدأ . وهو إلى ذلك واسع الثقافة ، عميق الفكرة ، متأن في الحكم والإنشاء . اتخذ التعبير الأدبي أداة من أدوات الكفاح ، وتتميز آثاره جميعا في النقد والقصة والشعر بالإحكام ، وتُسَمُّ بالجد الغائي ، وتتحو نحو الإبداع والتجويد . وقد كان الشعر أولى المجالات الفنية التي ارتادها منذ عهد الحداثة . غير أن مجموعة « غابة الأبنوس » تمثل آخر ما بلغه فنه من تطور وتكامل . »



سلسلة كتب ثقافية شهيرة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت

الشعر في السودان



د. عبده بدوي

(٤ - جمادى الآخرة / رجب ١٤٠١ هـ - مايو (ايار) ١٩٨١ م.

... صلاح أحد إبراهيم، فقد التفت الى المذاب الذي يعانيه الفلاحون، وبخاصة حين حاول بعض مزارعي مشروع «جودة» التأكد من أن ما يعطونه من ثمن القطن صحيح، فكان أن زجرت السلطة بمائتين منهم في مكان ضيق، بحيث لم يصبح عليهم الصباح إلا وهم موتى.. وكان أن صرخ الشاعر في قصيدة منها:

لو أنهم.. حزمة جرجير بعد كي ياع
لخدم الأفريج في المدينة الكبيرة
ما سلعت بشرهم أشمة الظهيرة
وبان فيها الاصفرار والدبول
بل وضعوا يحدو في القلل في حصيرة
وبللت شفاههم رشاشة صغيرة
ولتلت محدودهم وطوية الأداة
والبيجة التضيرة!

لو أنهم فرائح
تصنع من أوراقها الحساء
لنزلاء الفندق الكبير
لوضعوا في قفص لا يمنع الهواء
وقدم الحب لهم وللاء
لو أنهم..

لكتهم رعاغ
من الزديقات
من الحسينات
من الساليت (١٠)

نعم رعاغ
من الحنات التي في القاع
من الذين ألفست في قلوبهم برآن الانقطاع
وسملت عيونهم مراود الخداع
.. وفي المساء
يبدأ كان الحكام في القصف وفي السكر

وفي يهود بين فتيات البيض ينمون بالتمر
كانت هناك

عشرون حصة من البشر

تموت بالارهاق

تموت باعتاق.

وقد نجح صلاح أحد ابراهيم في تقديم غايج من البطء في السودان،
وهي غالبا غايج قيرة مبهمة، وقد يمرض لكتلة بشرية كقوله:

كل فتي كلبتي الحبي في انطوائه، حتى اذا نازطى فأغرقا
وكالبشارى بفوده الصغير بالمعروف، إقا اغتاط دق المتفا
أعزفهم الضامرين كالسياط، الناشئين من شقا
اللازمين حثهم، الوشرين مرتقى
أعزفهم كاهل بدر شدة، ولجدة، وطلعة، وخطقا

وقد يتمحق في واحد من قبيلة الهندوة بشرق السودان اسمه
«أوشيك»، بحيث يجعلنا تتعاطف معه، وتلحن الظروف التي ولغت في
دمائه، وفي صرض ابنته، وتعجب في الوقت نفسه لأنه حوّل كل هذا
الحزن إلى «دراما صغيرة».

«أوشيك» دون أن يكن يرصد الأفاق
من دفتى الضجج إلى انحباس الضوء في الساء
مفتشا من فينة فيها سلام الماء
يرفع سافا وسط ساق
كوقفه الكركي في المياه
مرتکز الظهر على عصاه
أهلكت الجماعة الشياه
دبابوا (١١)

(١١) كلمة السلام عليكم بلفظ الهندوة

بفنل من ساعاته الطوال
 حبال صمت تافه حبال
 ويرقب الساء
 لوأها تمصر في لسان أرضه قطرة من ماء
 لوأها تبلل الرجاء
 أهلكت إجماعة الشيا
 لويرحم الإله
 زوجته ذات الزمام الضخم والملااة المبراء
 قضى عليها الذاء
 فزفرت أحشاؤها دماء
 وطوق صدرها «أوهاج» (١٢) مثل هرة صغيرة عمياء
 يمد في غرغرة الدماء
 يدين كاشاوتين للأنداء
 .. وابنته «شريعة»
 جاءت الى المدينة القاسية الخيفة
 تقدم التلحاح للرجال
 لكل من جاء من الرجال
 رائحة رائحة.. يقول لي صديق
 يا بعدها استقل، كاد أن يفل من ثيابها الرهيفة
 وهي تضع بالشدا، تموج كالقطيفة
 تموج بالحروف مثل قطة أليفة
 «يا سمسم القدارف» (١٣)
 تقدم البيرة واللذائف
 والطشت والابريق
 ترفع أو تحفض المذيع
 حتى اذا أمهكها الامتناع
 أطفأت مصباحها جمد انتصاف الليل
 مر على غيلها «أوشيك»
 وشعره الجديد
 كأنه شجرة الزقوم (١٤)

(١٢) انبتها الرضيع

(١٣) مطلع أغنية شعبية، وقد حاكى طجة المندودة التي تحوّل الضاد الى دال.

(١٤) انظر شابة الأبتوس ص ١٤ وما بعدها، وقد جاء في مقالة القصيدة الأشيرة «ان حياتنا السودانية في الشمال والجنوب والشرق والغرب تنح بالناسي والفواجع، وما اختار هذه الصورة من شرق السودان إلا محض مصادفة»

مَنْشُورَاتُ الْبَاحِثَةِ الْبَنَانِيَّةِ
قِسْمُ الدِّرَاسَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ

٢

السُّودَانُ وَالْحَرَكَةُ الْأَدَبِيَّةُ

للمُؤَلِّفِ

بِقَلَمِ
حَلِيمِ الْكَازِمِيِّ



بَيْرُوت ١٩٨٥

التوزيع: المكتبة الشرقية، ص. ١٩٨٦، بيروت - لبنان

١٠٠. وان كان ادريس جماع قد مجد امته بيعث ماضيها ،
فان صلاح احمد ابرهم مجد أمته في حاضرها ، مجد فيها الأنفة المتمثلة في نفسية
اشخاصها العاديين ، الأباة بطبيعتهم الصادقين بفطرتهم ، الثائرين بصادق حسهم ،
فهم ملاذ الغريب وسياج الضعيف .

كل فتى كالحيثي الحي في انطوائه

حتى اذا ثار

طنى فاغرقا

وكالبشاري^{١٩٩} يقوده الصغير بالمعروف

اما اذا اغتاذق دقّ العنقا

اعرفهم الصامرين كالسياط

الناشئين من شقا

اللازمين حذهم للوهرين المرتقى

ذوي الأنفس الرائقات العذاب

عليها من الحق نور ميين

فضائلهم دون سح نجم

بلا ضجة أو أذى أو ظنون

واختيار صلاح احمد ابرهم « غصبة الهبياي » عنواناً لديوانه هو تعبير عن ثورة عارمة
نطح بكل المفاسد . والهبياي ريع سودانية اذا ما اشتدت اقتلعت ما تلقاه في طريقها .
وغصبة الشاهر ثورة على الفقر والمرض والفوارق الطبقية والعرقية . ودعوة الى المساواة بين
الرجل والمرأة واستنكار للحرب بين أهل الشمال وأهل الجنوب . ويؤذيه أن يرى أهل
بلاده يستكينون لهذا الواقع للؤلؤ .

انا منهم وبهم وبهم وخذامهم

لو هم يأمرؤن

يعتني بهم في العذاب
ويؤرقني أنهم تأمّنون
ففي بلاده تموت النساء في الشارع والناس ينظرون ، تموت من الأعياء والجوع
والعطش .

امرأة كباشية
بجوار مقروح وحطب
ماتت في الشارع نصف الشارع في «العابسة» .

هذه المرأة يحمل صلاح أحمد إبراهيم آلامها الى منتصف الثاني من القرن العشرين ،
في الزمن الذي تملأ قاتليات تشكوفا في الفضاء البعيد يستشري تسلط الرجل في السودان
على المرأة وكأنها ليست انسانية ، بل هي دولاب في عجلة عمل تحشى على الدوام مزاحمة
الضرة :

والكلب في وجاره
أهناً منها عيشة لأنها كنملة
كالثور في محراثه كبغلة
كالحمل الدائر في ممصرة الزيت
كمعزة الحليب في الزريبة
باركة على الرحي عاكفة على اللهب
على دخان الروث والتهام
أو في الشملة صارخة من العصا
راجفة من الطلاق من صنع الضرة

والحرب بين الأخوة هي حرب المنافع الطبقية في الداخل والخارج . الحرب بين
الشيال والجنوب حرب آسنة تقطع الود بين الأشقاء على مذبح المصالح الانانية للطبقات
الحاكمة ، وزوال المصالح كفيل بمردة الصفاء ولذا تراه في قصيدته «ملوال»^{٥٠٠} يدعو
البسطاء في كلا الاقليمين الى الوقوف ضدها .

٥٠٠ . وهي القصيدة التي ثار لها الشاعر على الحرب الدائرة بين أهل الشمال وأهل الجنوب . «وملوال» اسم
يكثر بين الجنوبيين ولعله تحريف الاسم «ماتويل» .

فَكَرَّ مَعِيَ مَلَوَالُ أَيِّ بَحْدٍ صَوَفَ نَنْتَشِيهِ مَعًا
 عَلَى ضَمَافِ النَّيْلِ
 أَيِّ بَحْدٍ لَوْ صَفَّتْ نَيَاتَانِ نَحْنُ الْإِثْنَيْنِ
 يَتِيهِ فِي مَرُوجِنَا الْخَضِرَاءِ مِثْلَ أَيْسِ
 الْإِلَهِ بِمَلَأِ الْعَيْنِ
 يَسِرُ الْقَلْبُ يَهْزُ السَّمَاءُ بِالْقُرُونِ.

وبلغني في شعر صلاح احمد ابراهيم الموضوع العادي المطروق بالموضوع العميق
 المبكر . فعينه عدسة لاقطة وقلمه يستجيب لنداء وجدانه وعقله . وكثيراً ما اعتمد
 الأسلوب المهلي دون ان يلقي في ذلك عضاضه أو حرج يحثك عن الرشوة بلسان
 البسطاء ، وعن الفساد بلغة المتنكرين من أهل بلده مثال قوله في التجار الذين يفسدون
 الأنظمة هم يَشْكُونُ من فسادها .

رَأَيْتُهُ يَنْثُثُ فِي وَجْهِ الْأَصُولِ وَالْقَوَانِينِ الدِّخَانِ مِنْ سَجَارِهِ
 رَأَيْتُهُ يَسِيرُ تَنْحَنِي لَهُ الْجُدْرَانُ فِي الْوِزَارَةِ
 رَأَيْتُهُ يَرْتَّبُ الْأُمُورَ لَيْلَهُ وَيَقْتَنِي نَهَارَهُ
 رَأَيْتُهُ يَجْلِبُ قَلْبَ الشَّعْبِ ثُمَّ يَدَّهِي الْخُسَارَةَ
 رَأَيْتُهُ يَهْرُبُ الْأَمْوَالَ لِلخَارِجِ فِي جِسَارِهِ

تابع حياة القرويين في مناطقهم وصور صراعاتهم مع الطبيعة ومع جشع الانسان ،
 قاسى معهم الجفاف وانتظر هطول المطر ، وبارك الانتاج ومجد الذراع المقتول . قابل بين
 جد الكادحين وابتزاز الأثرياء لأموال الفقراء ، فان لم يكن بالسلم فيافتعال الاقتتال
 والحرب لانتزاع الثقة من قلوب المؤمنين بالغد الباكر القريب .

فِي الْخَارِجِ كَانَ يَمُوتُ نَهَارَ
 فِي الْخَارِجِ أَبْوَابُ تَعْوِي وَيُثْرُ غِبَارَ
 وَأَنَاسٍ مَكْدُودُونَ كَأَنَّهُمُ الْأَشْيَاحُ يَمْرُونَ خَطَاهُمْ نَحْوَ الْأَحْجَارِ
 مَجْهُولُونَ بِلَا سِمَاءَ
 مَذْهُولُونَ وَمُنْكَفَتُونَ مِنَ الْأَعْيَاءِ
 فِي الْمَقْهَى الْمَذْبِياعِ يَجْلُجِلُ بِالْأَنْبِيَاءِ

الحرب تدق الأبواب
الحرب الثالثة الحسماء على الأبواب
أدفن رأسك تحت تراب
سيان تقول ، الأمر لديك بلا أمل سيان
في الغرة كان الرعب ، وكان الحقد وكان العار
دهاليز في العتمة أين تفود
تعود الى حيث بدأت حياته
في العتمة أنت تكونت وفتحت
في العتمة انت رأيت ولم تصرخ
أهلاً بنهار^{٥٠١}

ويعرّي الحكم العسكري من مقومات الخلق والدراية ويصمه بالأنانية والجهل
والحقد ويشبهه في قصيدته «أوديب ملكاً» بالوباء الأصفر الذي تنتقل عدواه مع الريح ،
ولكن المصيبة عابرة ، والشعب باقو.

هكذا اجتاحت الوباء الأصفر القاهرة «طيباً»
هكذا عصفت عليها لعنة الالام وهزتها المصيبة
وقضى الموت يمحى الناس يغنيهم بضربات رتيبة
قرض الشبان والشيب ، فلا حوش نجما دون ضريبة
أوخلا نائع «طيه» تحت المنخل الجانح تحت الفرع الناطع
«تجري» شحبت حتى روايبا الخصيبة
فيك يا سفاح لا في الناس أسباب الخطيئة
فانح ان شئت فكم طاعية زال وظل الشعب باقو^{٥٠٢}
وكثيراً ما استعان الشاعر بالأساطير لتوضيح صوره كقبايل وهابيل «رمزا لغندر
الانسان باخيه»^{٥٠٣} وفدياس المثال الاغريقي ، وباعوس إله الخمر وروفتيوس الذي

٥٠١. غابة الأيتوس ، ص ٢٨.

٥٠٢. المصدر السابق ، ص ٤٧ - ٤٨.

٥٠٣. المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠.

مقالات كتبها صلاح أحمد إبراهيم



عاشقان لبيروت والخرطوم

■ كان يمشي عشق الاساطير
سراً وجهراً
وتتوزع لواعجه للمستجيشات
في آخر الليل شعرا
يناضي حبيب
كزينة في غدير ندي
بمسد كياكورة الموسم
رشد على صدرها المتواش
في دغوة يرتدي
وجه حبيب الجبين
جري السامسي
أيا حلوة الوجنتين اللتين
بشال وبمازتين
أحك بالزغم عني
وبالزغم عتلك
وبالزغم من كل زين وشين
ويا حلوة الشفتين اللتين...
الشهوية
يبيني إذا لم تكن قبلة
فابتنسامة
تصير لي دون جميع الشباب
مزينة
وتسعد قلبي ليوم القيامة
فاسمك فالزوج في فهمي
ومسك قوافي فيك
تزييف ندي
فاسلمي
واقترحي لي كتاب الطفولة
بما لم يزل فيس
من حبه العامرية
وبلاورة تجرد عند
وتمشي الهويينا امام
زين احلامه المستهامة
مفضضة كالغمامة
ينام غرار
ويصحو
وفي شفتيه اقترار
كما ايقظ الطل في برعم
وشح بظاهر ريق سوار

ولم تكن حبا بلا اسرار او حوار
حب غري الساطع
وشاعر رهيف للشاعر
مستينسا
ومن طرف واحد
بطعم التشاير
يفهم ام واه
أما ابتذلت بعد
ان كل شيء عليه تمن
فقطروها
وتدورطها
والظاهر ستفري
بسمعتها والبدن
كلاب للمواخير والكركن
وا خيلته
ومعته في الماجر
وعرق الحمية ينضج الخضز
كالكسيف نافر
قلت يا ابن الحلال الغريب
واسلو عنها بعيد
رد لا استطيع
فقلت لن
سدمت شهيد
أضطرار
او على صخرة الانتحار
اكذب اكذب
يا صديقي لنطلق وهاجر
تقول قتل المطاي
هن رأسا عند
وتشم
وعني فكم ميت كذا في المهاجر
كان يمشي عشق الاساطير
بيروته
حققت جارة في حالة فنتجته
فقرات مونه
جللت وفي مذخرة
تنتك البنية
أترعها؟
يتسائل ما وصفها؟
حدثت
لست وثائق
تشد «التيك»
هل أمنت؟
ولها لوعة اجنية
ولن كان والدها

عربي الهوى
عربي اللسان
تدين له يامنتان
أمة عربية
أبوها الذي قال
سائل العلياء عبا والزمانا
هل فخرنا ذمة مد عرفانا
أم تراه الذي قال
أين العطارفة الجبابرة الأمل
وبلوا الوار ويوحدا اسبانبا
لو كان حبا خالدا فوق الثرى
ما مات هارون وزال معاوية
وأخجلة العربي من أجدانه
أم تراه الذي قال
أما ما يذنه مسلما أو مسيحيا
ولكن عربي
الزبد
بلى
في تجمع بين سارومي ويليقيس
أو هي أمي فريم
ان أنت قسمت
فاجرة أو تقي
صحت
انتهى وصفها
العرها؟
صاح مثل المطوب في نومه
أيا حلوة الشفتين
أصلي قبلة
والثلاثيني
القتليني
كان يمشي عشق الاساطير
بيروته
غير أنهم دمروا بيته
فهر يستخرج الصمت
من ديرها
ومن ندفوها
ومن انفسوا العين حين راوها
ومن رموا
من هم منهم
أكسروا الصمت أيضا
وقاواوا لنا
من هم

القي صلاح احمد ابراهيم هذه القصيدة في
مهرجان ثقافته حركة كسر الصمت، في
باريس في العام ١٩٩١. ولم تزل مسجلة
بصوته على شريط كاسيت.

كان يعشق عشق الاساطير

□ باريس -
من شبيل ابو شاعر:

الواح نجاته وقوارب
واصابها تمدد حبالاً للهاوي
تمدد دروباً للهارب
أوبوي ليس بها حارس
يفتحها حبلى للناس
كان التقابي والسباني، والنفاد
والفكر والشاعر والديبلوماسي، لكن
لجمل ما في صلاح انسانيته. فلأن
عرفوه عن قريب وهم كثر، يدركون
هذه الحقيقة كئي يمز امتلاكها على
الكثيرين. وكان الصديق في زمن ماتت
فيه القديم لدل مجتمعات الآلة
والاستهلاك.
على رغم بسملة الحب التي تم
تكن تفارق لفر صلاح إلا أن عينيه
كانتا كأنهما مبلتان بهرق الأرض
وتعب وحر من مواطنيه: «أنا حزين لأن
شعبي حزين».

في باريس
كانت هجرته ثقيلة لوقلة عليه.
يمسح في باريس وفي زحمة
مياضها، لكن قلبه كان يهفو للنيابة.
يبقى على ضفافها ويود العودة
«بشروطه»
والأخت الثاني في شجوة، أي

الهاوي:
يا طير الهجرة يا طائر
يا طيرا وجهته بلدي
غذي بكهه والله أنا على أهبة...
على فراش المرض قبل يومين من
السطوات الأخيرة. لم ينس صلاح
أحمد إبراهيم الفريفا الجوع، وروى
سائراً «مارفاد» قال: «بعضنا قدم
الإمبريكيون إلى الصومال انصهروا
معهم لفظاً أميركياً أبش، ضحواً
وسمناً ذا فرو كثيف تظهر عليه
مظاهر النعمة بوضوح. من سوء حظ
هذا الطير الأميركي اللؤلؤ أنه التقى
لفظاً أفريقياً شاحب اللون شامراً.
اللقاء بين القطرين كان صاصلاً. لم
يترو فيه لفظ الأسود فرصة لتقليده
الإمبريكي إذ عايله بالضمير البرح
وتقاروا على نفسه ويحسه إلى طر
حدة مرات شارباً به الأرض حتى
أغشى على صاميتها الأنف.
وكانت ندبة اللفظ الأميركي لهذا.
للتصرف ككيرة فيناد حين استفاق
من غيبوبته اللفظ الأفريقي بالقول:
الذي لقد رافقت جنود المم سام إلى
أكثر من مكان في العالم. كنت معهم
في فينتام وفي باناما وفي كل مكان
نهضوا إليه، وكنت استقبل بالترحاب
وأجول أينما شئت بشيلاء ولم
اصادف مرة ما صاغت اليوم، فبالبه
عليك لي لئلا شربيني وأنت قد
ماتت؛ فاجاب ابن الأفريقيا الضاسر:
أنا مائت. يا للصحية! أنا يا صاحب
لست أظنك على رغم مظهرى. أنا في
يوم كنت نمرأ أفريقياً مخيفاً. لكن يا
للمجاعة»
لم يخلف صلاح للوعده، وبعد
للنيل قريباً، وعاد من دون شروط
إلى سكية الإنوس، إلى المكان الذي
يعشق، إلى طينته الذي جف
وتساقط.

■ كان صلاح أحمد إبراهيم
يعشق كل مسا يمس وجسده
وأجسامه وقاعته.
كان يعشق الأرض، أرضه،
ويشاهى معها ولها حتى يقال إلى
سامعه أنه يعشق بنرجسية. لونها
في بشرته، وزرقة ثيلها وسواد
الأنوس الفريفا:
«أنا من أفريقيا، صهرالها
الكبرى وخط الأنسواء
شعنتني بالحرارات الشموس
وشعنتني كالسرايين على نار
الجوس
لشعنتني فأنا منها كمسود
الأنوس».

لؤلؤه الأولى يبدو صلاح
سجين الفريفا أو كان قلبه لا يتسع
إلا لمذابقتها، إلا أن الفريفة صلاح
وسودانيته كانتا دائماً في حجم
الفكر والتجوع والمذاب إذ كلما كان
يزداد حزن السود كان يزداد صلاح
سودانية.

لكن الحقيقة أن هوية صلاح
كانت، على رغم أصالته، تتجسد
كمواضع شعره، وتتكون بلون هوية
المذاب وجشاسة الأمم. إذ كان يحلو
له أن يتكرر في مجالسه الخاصة جداً
بشعر وتواضع، بما قام به حين كان
سفيراً للسودان في الأمم المتحدة
وعضواً في لجنة مقاطعة رويديسيا
المنصورية. وكان يشتمى لو أنه
«مصاصة تطلق الحزاز أو خنجر
على يدالي خفي مكن».

ومن المفارقات الفريفة أن أول
مشاركته لصلاح أحمد إبراهيم في
مهرجان شعر عربي كانت في بيروت
سنة ١٩٧٠، وأخر مهرجان للشعر
شارك فيه كان «ندبة نيويورك» في
معهد العالم العربي في باريس، في
أيار (مايو) ١٩٩١، قبل سنتين من
رحيله، التي فيه مبدل قصيدة في
عنوان «عاشقان لبيروت والخراطيم»
تقمص فيها معاناة بيروت وماسي
الحرب وتجلي جسراً من عذاب بيروت
لبنان بالسودان.

«كان يعشق عشق الأساطير
بيروت»
غير أنهم همروا بيته
فهو يستصرخ للصمت
من بيروت
ومن ثقوبها
ومن العضوا الصحن حين راوها
ومن ربحوا
من هم من هم
أكتروا للصمت أيضاً
وقولوا لنا من هم.
باختصار كان صلاح أحمد
إبراهيم مواطناً عالمياً، ينتمي إلى
لغة هذا العالم ومفهومه:
«أنا قلبي ماوى الضعفاء
وأنا حبي خبير للمحرومين
واللصساء
وأنا طير».

غياب الشاعر السوداني صلاح أحمد إبراهيم

□ لندن - من فكري عثمان:

■ غيب الموت نهساير الاثنين السابع عشر من أيار (مايو) الشاعر والكاتب والفيلسوف السوداني صلاح أحمد إبراهيم في أحد مستشفيات باريس حيث كان يقبع منذ أواسط السبعينات.

ولد الشاعر سنة ١٩٣٣ في امبرمان (الماصمة الوطنية) ونشأ فيها وسط أسرة ذات علم ودين، وكانت الدنيا التي استجذبت فيها لثقافات وأعراق شتى منقحة على حركة الثقافة العربية والعالمية، ومنظمة بالمعاملات والأندية الفكرية والأدبية، ثم التحق في العام ١٩٥٤ بجامعة الخرطوم.

قرأ القرآن على يد والده، وحفظ أجزاء منه، وقرأ بعض القرآن، وقرأ النصوص والمصنفات والمؤلفات الشعرية الجاهلية والأموية والمباسية، وبعث الشعر الحديث من السودان ومصر ويك، الشام والعراق، وفي جامعة الخرطوم تعرض لنتائج الدكتور عبدالجديد مابدين والدكتور محمد النويهي والدكتور عبدالعزيز اسحق والدكتور عبدالله الطيب والدكتور إحسان عباس، وأحد صلاح طالب الأدب الإنكليزي، فلهشكواه الرومانسيين التكليف.

تحدث عبوته على حركة ثقافية وفكرية وسياسية شديدة الحيوية ارتكبت بنهضة الحركة الوطنية السودانية ونضالها ضد الاستعمار البريطاني، ونشأ في غمرة الأساطير العريضة التي ارتبطت بالاستقلال وتقدم حركات التحرير الوطني في أرجاء أفريقيا والعالم الثالث، وبرزت التيارات التقدمية ونساج واقع تأثير الفكر الاشتراكي... غير أنه أيضاً شهد كل الانتكاسات التي أحقت بالوطن، ولما هارت أمام عينيه كل الأصنام والأفكار الغربية.

وسمع حب السودان انتاجه الأدبي ومواقفه الفكرية والسياسية وحفظه في ظفر كثيرون جندراً بلقب شاعر الشعب، لقد كانت أعماله امتداداً للنص الوطني الرفيع لدى خليل فرح وتوفيق صالح جبريل ومحمد المهدي المستور... وغيرهم من الكوكبة المعروفة من شعراء السودان، كما قال الشاعر علي عبد القويوم، وينتهي الطبيب صالح، في تسميته ليؤن صلاح «غاية الأيتوب» إلى القول أن صلاح «أكثر الشعراء السودانيين سويونية في شخصه وفي شعره» ومن يقرأ صلاح في أي لغة من اللغات سيقول أن هذا شاعر سوداني بحق، لكن هذا الحب المسميق لوطنه لا يحصر افقه ولا يعمى عينيه فيطرق في شعره أو يفتح مقدوحة لمقدم من

كينا إلى الجزائر إلى الصحراء الغربية. وهو في سودانيته تلك عربي عميق المروية، ويقول الطبيب صالح... «ولذلك فهو يستعمل كأنما عن عمد كلمات من الناحية السودانية» ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد ترتبط في الوقت نفسه بالثقافة الشعرية السودانية الذي يرتبط بدوره أولئك ارتباطاً بالشعر العربي من أديم الزمان.

استأن شعر صلاح لصمد إبراهيم الذي رفض أن يكون من شعراء البرج العاجي، بلغة البسيطة المتعمدة، لأنه كان مهتماً بالوصول إلى الغدنة الناس وعقولهم، ورفض الفلسفة الاستعراضية، دون أن يحرمه ذلك من العمق وتركيب الصور والأشياء الشعرية. وكان شاعرًا مجرياً، يعود إليه الفضل في إنبال تقنية القصيدة الحديثة وطرح في أشعاره الحكمة النفسية الاستكشافية من تركت الألب العائلي وإسألهم وصلاحه، لمساعد على تثقيف القراء في نزوع لتوحيد الرؤى والتفاسير، ويصفه ربما، يعرف كل السودانيين «زميل فيضاس» كان صلاح أحمد إبراهيم أحد رواد المدرسة الواقعية في الشعر السوداني، ودافع عن تلك بفسرولة، في أدبه عميق وتكيد على العروة الوثقى بين الثقافة والمساواة، وريط ربطاً محكمًا بين الشكل والمضمون، وكان يؤمن بكون الفن كشمس عرض خصوصاً في زمن الميكاتشوريات، وأسهم في فتح الأبواب على الثقافة الأفريقية ملغماً كثيراً من إبداعاتها إلى القارئ السوداني، واستعان في نثره بالحكمة العربية والإسلامية، وملكور القول ولغة الحكمة.

يقول الطبيب صالح عن شعره... «يبدل ما يفعله الشعر العظيم دائماً، أنه يخاطب حواسك جميعاً، السمع والبصر والشم واللمس، ويطلق لخيالك العنان، ويصنع صوراً تزداد لك صوراً أخرى، ويربط ما أنت فيه الآن، وبما هو كامن في وجدانك، من حيث تدري ولا تدري».

علم صلاح أحياناً بعضه كيف يلتقطون صور الحياة الشخصية السودانية، وكيف يستلخون بالصورة الشعرية وبالوصف، ويختر ديوانيه لغسية الهيبي، وغاية الأيتوب، بمنأى عن حصر لها.

كان صلاح شاعراً متميزاً من شعراء العربية في هذا العصر، كما شهد بذلك الطبيب صالح. اتسمت حياة صلاح السياسية والفكرية بمواقف محيرة للجدل في كثير من القضايا، ولكنه نال على حبه للسودان من موالحه الخاص، وهو سواك كثيراً ما كان يتناقض مع لوكال العام الرسمي والمعارض.

...كان الحسين بن الزهراء عالمًا زهرياً من اكبر ابناء السوادن في القرن الخامس. اول من آمن بعبودية المهدي ودعا لها في وجه «علماء السوء» ومن جاهد من اجلها ومات على بيعتته، لم يتنكر ولم يتغيب... ومع ذلك اتهم بالردة وقتل....

السوداني الذي صار له امر راية الاطالة على عهد خلية المهدي، وحافظ سر الخلية، والذي لم يتركه قبل الدخول على دار راية الزهراء، الذي راية الزهراء الحربية المبررة من الخلية المثلثة بعد سقوطه، هو جواد لم يكن يتخذه ذلك الحيرة الا رجل ذو خلق رابع وجساسة نادرة. الا رجل جدير بالاحترام. يكتب ميخائيل في ذكراه باسلوبه العفوي ولهجة السودانية التي تتلأه من كما رايته دين تجويد:

بين بعد (في القاهي احمد) الذي قيل هو ليشاً صبراً ولا رجلاً زهواً وشجاعاً حتى عليه الصلوة على الزهراء، الذي كان الزهراء، العالم الخليل، مكث مكثه من الزمان، وبخبرته وشكوكاً من بدلتها، فخصيص بعض الانصار طلقوا بعضاً من اهل بدلتها ومكثوا في حرمه شكوى لقضي سائلة، والمذكور لعلها لا لقضي القضية بام درمان، وحل القضي الصوري والقرعة رجل متقدم في السن وشرع بخصوص القضية. توجروا الانصار للامر بعدد، ما يرضي القاهي عليهم بعد تنفيذ الحكم عليهم. واصل الامر يعقوب للقضي والزهراء، وقال له: قضية اهل بدلتها مع الانصار، لا يكون فيها تنفيذ الحكم على الانصار بل حسب الكتاب حيث كان. قال القاهي: لا يندى ينفذ الحكم على الانصار بل حسب الكتاب والسنة لا تخدع من الحق. لا تخشى لولم في الشرع الشريف بل في نفس بيوت الحق الرضي قام من عنده زعلان، والامر يطوب حصل له اشد الغضب وقال: القاهي الحسين ولد الزهراء لست من الاسلام ووجب علي القتل. وتوجه الى القاهي المهدي وقال له: الحسين ولد الزهراء استدر عن الاسلام، يوجد جملة من الانصار واسلم القاهي حسين ولد جرح الشري. حال خبرته على شهود بالزور وصار سبب في حبسه (الصبر) من متر في الت التي تات بها القاهي احمد. على انه مكث تسعة ايام مات عليه ومات عطشاً بعد نقل اخوانه. حتى انه مكث تسعة ايام مات طملاً (ضاماً). الامر يعقوب ليس تراك اس كبر في ذي القيلة، أي أي انسان يماريه في الحكمه. رايوس (في)، بمعنى هناك) قاضي مخلي في حسب الكلا، اهل حسن ولد جرح. لتكني يوسف ميخائيل. ج. ب. ١٠

كانت كلمة «مدينته» تطلق آنذاك على كل شخص يريد التظلم للتخلص منه، مثلما كانت «مدينته» ومدينتي. وكان لقضاء القلم المهدي «لمساءة الناس - من امثال حسين ولد جرح جاهزين، مثلما مشهود الزور ايضاً والمثاقين. ولم يكن بذلك الحسين ولا لشرع الله وسنة رسوله مكان مروج في دولة الخليفة، بل كانا جرح لتدبير لشرع الله ما يقضي له. وبذلك القلم والسنة اللذين كان يعلوهم أكثر من شهاده ذلك القلم - ضماما. كان الهلجس الأول والاهم وربما الاهد اجناباً. آمنه الخفسي وامن حكمه المستبد. لم يكن يتقرب في حكم الدماء بسيرة وظلمة ومهيمية بينهم من ذلك الحسين. بل الحكم بغير الشجب لم يكن يرضى، او ان ذلك الحسين دولته. هكذا نصب الماشاق الكلباشي، وبالحظ من حسن القلي والشجب والقبان كان حكمي شهود الجاهل يتساقطون بعد كل منهم ان يسكن احياءه اهل القية، بما يكتفي بقلة شامخا على عبد القويوم الفاخرة: «اي الماشاق لم تزل بالثبات ولهازم» لم ارسل الخليفة جيشه الى الدولة - عاصمة الجليلي لامتدحت بها منجحة فائقة. كما الارباب القروي والجمايي لقد اخضع له القليب جميعاً. أدى تسليمه اعتباره آمنه وامن حكمه القروي إلى تعزيز الوحدة الوطنية الرائعة التي تسارعت بعددنا الامام المهدي من الشرق إلى الغرب بين الشمال إلى الجنوب، حتى دخل في اغنيات الديبكا كما ذكر الدكتور فرانسيس ديتي في كتابه «مزار الديبكا». لذا بالبالا تقابل القاري الممثل بالتصانير من مناور وديارات متحركة مبددة. وأرادة قومية متحركة، ولطوب شتى ورضائل فنية، فتجارت دولة استقلالات التي انتظمت السودانية باسمه كما هي حدوده الآن. تجاوزت وكما بيت من ورق، ولولا انه شهب ذو صلات مغلفة ما استطاع ان يلف وقائته البهائية تلك، التي جعلت العدو يفرار بعدة عشية قتلها، وكان له اعترافاً بالثبات في العيون. تكفي شهادة الشاعر مرويان، كليليوت، والامال العربي في السودان وقتها وموسنن تشريشل. جسد هذه الصلوات كثر من ايته في تلمسنا عديده. ولا لولا هذه الصلوة يحضري منهم واحد هو بعد ذلك قمة شامخة. اعني به «الرجل للعالم الجليل» - بكلمات ثرائمة يوسف ميخائيل - والقاضي العادل الصندي في الشهادة: الحسين بن الزهراء، الشائر والشارع والعالم وثاني الدلالة. ذلك الذي لم يجد من الحق، ولم يخش في الشرع الخريف لولته لأم. ... مصالح على حسب الكتاب والسنة» كما جاز به القاهي الكروي المقترى بعداه اليض واعترافه بالإثم.

مما علم تقريباً مَرَّتْ على قلته صبراً - جوعاً ومطشاً - داخل «الرويدة» مدة عام تقريباً مَرَّتْ، صبراً على السودان منجب الشجاعتين ذوي الانصاف والعدل والادام وقيلة الحق - عليك سلام الله يا حسين بن الزهراء. ولا كنا منك ان تخلفنا عن الضمير والظلم، او جلفنا عن قولة الحق، او وبعثنا فلوبنا عن الأمل بالعرفي والقي من المنكى، او يمنا كراماتنا دينية بعداً في لماعة من لماعات الدنيا. عليك ايها الشهود سلام الله ورضوانه يا بايت في السودان ذكرك تستحضر وحدونك تحت رايين على خضك يسير، لولا الامر من قبل يوم بعد، لدولة القلم ساعة، ودولة العدل في قيام الساعة ■

في مثل ايامنا هذه قبل مئة عام، قتل القاهي والعالم الزهري الجليل والشاعر والشارع المجد الحسين بن الزهراء. قتل صبراً بالروح والمطر، ودخل الجنة شهيداً. كان يقربوا الكفاف. بل كان السودان باجتماع ذلك... غرباً بياباً. وكان الكافلون في علم ما بعده علم، فيجانب وجهه التمسح المنيح الذي لشمه الخليفة دياره القلتاقي وشقيقه وزيهه الامير يعقوب «جواب الرأى» كما كان يلقب. كان بإمكان وشقيقه لغرض شخصي ان تقضي بزيه فوراً إلى العذاب الربيب، وربما إلى حقه. وكانت الشائعات تملأ «البيعة المباركة» - ام درمان - حين كنت هذه تعيش في الشائعات والهوس المستريب. وكانت تظلم يومه الناس انصاء والقم، لقد كان الجميع تمت نعل ارباب ديني حنودي عقيد، وبعد سيماخ الحفظ والنهب والغصب والتفاني والتهجم، حتى لقد صارت كلمة «مهدية» تسمى القاهي حتى يومنا هذا، لا كثيراً ما يتسلسل صلباً باستنكار اهل حارات الدنيا مهيمية، ولم ذلك لما كان الحكم لذي سبغها بالفضل، حكم الضانوق الشريكي والكبرياء والسخرية والشرارة والساء، مما يور الثورة المهدي نفسها: مضرة رجال في تربة. ولا روال في طلبة اي في سخرية. او كما قالت بنت مكاري للمهدي تحمته: «ان طالب الوري واسمي بالجرة، وما عم نيل ما اقول فيه».

هكذا كان عهد خلية المهدي ورايها القوي، والكل القاديني في حقيقته، حيث راي الامام المهدي عليه السلام فور استلامه الخرافيم وتحويله للسودان بأكمله من الانجيني. من جهة أخرى، كان انصافه الوضع ورويدوه والكتيبون منه، يبينون التناقض الابله، والاعتذار المرائي، يزعمون كل شيء على ما يرام، وان دولة خلية المهدي منجدة لا تتأثر، وما كان ذلك سوى وهم كبري، جذ كبري، لما هي الا بضعة اعوام معدودة على الاصابع، حين اخذت دولة الجور والظلمين تتداهي وكانها تحلق عضواني من الشق والصليح مصدت به ربح صرصر عاتية، او بيت منكيت وان اوهي البهيت بيت المنكيت.

لا جدال، ان اسماً وابشع وانما ارباب عريه كوكب الارض هو الارباب باسم الدين - أي دين! ذلك لان أكثر فروع في الفقه، واهم حافز للظلم والبلع المقدس هو الدين، غير ان الاسلام - بخصيصه - هو دين على وجهته، دين العدل ورافة، دين بر واحسان، ودين خلق رابع وحة. لذلك من رويعة الدول الجورونية بعد باسم حكم اسلماني غريبة تسليط ذات على الآخرين، وصران انفس من خلفهم في العرية والحياء والكرامة، فلهه يكون ذلك عمل الانصاف نفسه، ورايى تنسمة في عريه عن اسلام، وان حاول ستر عريته باسم الاسلام، هذا ما فعله احد خيل خلية المهدي. كان حكمه جازياً لا ندم لذلك، راي كما جازي لا محالة إلى زوال - حال اسده ام قصر والنفس اسارة بالسوء، وشهوة السلطة اعنى من شهوة الجنس ورايى. لا اسهل من استعذاب اليوم بالبقاء والصلوات. بين مائة يتي الحريص.

كان الحسين بن الزهراء علناً زهرياً من اكبر ابناء السودان في القرن الماضي. اول من آمن بمهدية المهدي ودعا لها في وجه «علماء السوء» كما اسماهم الامام المهدي، ومن جاهد من اجلها ومات على بيعة لم يتنكر ولم يتغيب، من شعره مخرتة التي كتبها والثرة المهدية في مستهلها يدع فيها محمد احمد المهدي:

بَرَحَ الخُفَا، ما الخُفَا فيه غُفَا

ويقول فيها:

عاش «ابن سينا» جهده اصفاه

دفع رويته وارتقت في سكرته

بلى شفاء دونها الصبواء

كيف التواصل والقوى نهوت السرى

تفرقت حاجاتها في سوح من

ودعا بها له دعوة قاهر

لماجابه اهل النهى في طاعة

ذاك الرفيق الزمته واترك غمره

ومع ذلك انهم بالردة وقتل، لذا انهم في دينه انهم: «وقتل» اهل بيته شاهدا عيان ومراقب امين للدولة المهدية. هو يوسف ميخائيل، القبطي

...وحين رفعت ام قدري طفل الصغرة ورصعت مؤخرته الضامرة المتكرمشة تلك الرصعة الحزينة المليئة حياءً، وسمعت الصرخة الشجاعة الحلوقة من رثتين تمتلان بالهواء للمرأة الاولى، والدم المثلوث بالسفروس الفاتك ينطق جازياً من كفيها وعصميتها، رقص قلبها رقصاً الانشراح....

الداء - أي داء - ليس بذاته نعمة الهية او عقاباً او لعنة وإن كان تمال على كل شيء قديم فانظر الذين يسمونه بكونه كذلك، عليهم ان يعللوا لنا مشكوريين لماذا يصيب الداء (إن كان كذلك) بل يرميت به - وليس بالهوى - انفسهم لظلمهم الله وطهرهم قبل بعثهم. وحتى في حالات التمسك بالتمسك على اوتيك النقر ان يعللوا لنا مشكوريين لماذا يصرس الابناء بما اكفرهم الحصرم. ولماذا يأخذ رب اسمه الحق والعدل ثمانى وامشاه، البريء وجيرة للذنب وهو الذي حرم على نفسه الظلم. فالتمسح بطل هذا الاجتهادات اللامتنطقية التمسكية الكاذبة - وإن كان ميمتها كما نعلم الفجة على العفة والمسلية القوية - من دون سلطان بها مته تعال الفراء بالكتب عليه - وأخطر ما فيها، انها تقلل من قدرة وأضعفها ومروجهها من اعلامين ودعاة اخلاقيين على التعليل العقلاني المتناسك والمقتع في عصر الاكتشافات العلمية المذهلة، والاختراقات العلمية الجبارة، بما يظهر عقلياً (وغير من ذلك) وكأنه تواء المصلح التجريبي سوى انه مختلف العيني. ويحيل مقولات اوتيك الهداة برهم حسن مقاصدهم الى مثل شعوات الثورين المنطقة وميخيات السامق على المسلمان، حين كان الرضى العادي يفسر بحلول شيطان في الجسد ذاهل عن الطامع - مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الخليل الطيب فتنة شيطانه غضباً حتى الانقراض، ولا يمل طلق ابي يخطا غير مقصود دماً ملوئاً وما وذر ذلك الظلم وزيراً ولا استوجب غضباً وانكساراً؟

ما انجلى للملح الاخر المزري يصبغ بالخزي له حقاً، فالذي يدع عنه ولم ولا علم الصبية الجبال، ينتاب بعض اهل الاستنارة العلمية جهولاً، وبالأخص التفتين الى المهن العلمية، من توفيق بهم الاطلاع التخصصي والمتابعة العلمية عند استلام اجازاتهم الأكاديمية فانصري مداركهم صدا كثيف لماذا هم في امية مقنعة الرضى العادي فانصري بحلول شيطان في الجسد ذاهل عن الطامع - مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الخليل الطيب فتنة شيطانه غضباً حتى الانقراض، ولا يمل طلق ابي يخطا غير مقصود دماً ملوئاً وما وذر ذلك الظلم وزيراً ولا استوجب غضباً وانكساراً؟

ما انجلى للملح الاخر المزري يصبغ بالخزي له حقاً، فالذي يدع عنه ولم ولا علم الصبية الجبال، ينتاب بعض اهل الاستنارة العلمية جهولاً، وبالأخص التفتين الى المهن العلمية، من توفيق بهم الاطلاع التخصصي والمتابعة العلمية عند استلام اجازاتهم الأكاديمية فانصري مداركهم صدا كثيف لماذا هم في امية مقنعة الرضى العادي فانصري بحلول شيطان في الجسد ذاهل عن الطامع - مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الخليل الطيب فتنة شيطانه غضباً حتى الانقراض، ولا يمل طلق ابي يخطا غير مقصود دماً ملوئاً وما وذر ذلك الظلم وزيراً ولا استوجب غضباً وانكساراً؟

الداء - أي داء - ليس بذاته نعمة الهية او عقاباً او لعنة وإن كان تمال على كل شيء قديم فانظر الذين يسمونه بكونه كذلك، عليهم ان يعللوا لنا مشكوريين لماذا يصيب الداء (إن كان كذلك) بل يرميت به - وليس بالهوى - انفسهم لظلمهم الله وطهرهم قبل بعثهم. وحتى في حالات التمسك بالتمسك على اوتيك النقر ان يعللوا لنا مشكوريين لماذا يصرس الابناء بما اكفرهم الحصرم. ولماذا يأخذ رب اسمه الحق والعدل ثمانى وامشاه، البريء وجيرة للذنب وهو الذي حرم على نفسه الظلم. فالتمسح بطل هذا الاجتهادات اللامتنطقية التمسكية الكاذبة - وإن كان ميمتها كما نعلم الفجة على العفة والمسلية القوية - من دون سلطان بها مته تعال الفراء بالكتب عليه - وأخطر ما فيها، انها تقلل من قدرة وأضعفها ومروجهها من اعلامين ودعاة اخلاقيين على التعليل العقلاني المتناسك والمقتع في عصر الاكتشافات العلمية المذهلة، والاختراقات العلمية الجبارة، بما يظهر عقلياً (وغير من ذلك) وكأنه تواء المصلح التجريبي سوى انه مختلف العيني. ويحيل مقولات اوتيك الهداة برهم حسن مقاصدهم الى مثل شعوات الثورين المنطقة وميخيات السامق على المسلمان، حين كان الرضى العادي يفسر بحلول شيطان في الجسد ذاهل عن الطامع - مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الخليل الطيب فتنة شيطانه غضباً حتى الانقراض، ولا يمل طلق ابي يخطا غير مقصود دماً ملوئاً وما وذر ذلك الظلم وزيراً ولا استوجب غضباً وانكساراً؟

ما انجلى للملح الاخر المزري يصبغ بالخزي له حقاً، فالذي يدع عنه ولم ولا علم الصبية الجبال، ينتاب بعض اهل الاستنارة العلمية جهولاً، وبالأخص التفتين الى المهن العلمية، من توفيق بهم الاطلاع التخصصي والمتابعة العلمية عند استلام اجازاتهم الأكاديمية فانصري مداركهم صدا كثيف لماذا هم في امية مقنعة الرضى العادي فانصري بحلول شيطان في الجسد ذاهل عن الطامع - مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الخليل الطيب فتنة شيطانه غضباً حتى الانقراض، ولا يمل طلق ابي يخطا غير مقصود دماً ملوئاً وما وذر ذلك الظلم وزيراً ولا استوجب غضباً وانكساراً؟

...تحية لأناس بسيطاء، ربما أزيروتهم العين حين تقع عليهم، ولكنهم شرفاء، يواظبت يخوض النار جوهرهم، يركزون وقت الصلاة - بكلام بلادهم - ويذكرون العهد في لحظة لا يذكر الإنسان إلا روحه الصلوة، ولا يتفكر إلا بالنجاة....

قال باعتزاز: بقوا حيث هم... الناس الذين يصلوا أظهم من العجائز والأطفال... بقوا حيث هم، ورفضوا البوب... فمن طابع السوداني ألا يترك ما شاركه السراء إذا وقع في الشراء. وأنها الصلابة بعينها... لذلك قلت في مطلع مقال أن تحيتي للأخوة السودانيين ليلة الجمعة....

...وماذا فعلتم؟ وهكذا سألته، فاجاب: ...لقد اقتضت لهم النادي، وحوالنا إلى نزل ينزلون فيه، وجمع بعضنا من بعضنا الآخر ما تيسر لأغلتهم...

...وماذا تودون أن أفعل؟ ...كل الذي يحتاج إليه، وبعض الحرامات والراتب، لتيسر نوم الأخوة الليبانيين... وبعض مواد الترميم، لذلك جئت الليلة أبسطك عند الدكتور عبد الله الراسي، رئيس الهيئة العليا للأغلة، لاستعجال مواد الأغلة هذه... والف شكر.

مؤقت، فقصت الهيئة العليا للأغلة... وفي بدورها استجابت بسرعة... وبعد اقتضاها لكم المال، أعانني ما جرى في النادي... المكتبة الزهية فأصبحت قاعة نوم، وكذلك الطاولات في الغرف...

وأزور ما شاهدت أن النادي، وقد تحول إلى نزل طاريء، خضع بدوره إلى حالة من حالات المأزور... فقد نظم الأخوة السودانيون فريق عمل، يعمل على مدار الساعة دون أن يتعطل العمل الأساسي لأي واحد من أعضاء الفريق، بحيث يتناوب على رعاية النزل الجدد، ثلاثة سودانيين قبل الظهر وثلاثة بعد الظهر... وهكذا... وهكذا تستحق هذه البادرة الإنسانية الطيبة التتويج بها والثناء عليها... والف تحية يا جاد المولى إبراهيم كى وأخواته البراسل للشجعان الشرفاء... والأين... الآن تعالوا معي أيها القراء إلى بعض تذكيراتي في السودان... البلد العربي المظلم... ذي النطق المبهض...

...أنتهي ما أريد أن أعطيه من رسالة طويلة من بيروت إلى الخليج... دعني أوجه بدوري تحية واحتراماً ومحبّة لكلية، أولاً لأنه اشاع مآثرة من بعض بني قومي، في بعض حق في الاعتزاز بما أوردته من هذه الناحية... وثانياً، وبغض النظر عن اهتمامهم، فإن حساسيتهم وما فيه من فضل هو الذي حدا به إلى كتابة ما كتب ولا يعرف الفضل ويعترف به إلا ذوي الفضل...

...ودعني أوجه التحية والتقدير والمحبّة لما قاموا به وما كانوا في حساسيتهم يحلمون بأن يروه متفخراً على الصنف أولاً أن تقيس لهم الله قلباً حافظاً ولماً كاتباً... كم الفرح المثلث مرافقين لهم في الخليج قراؤهم، وبكم الحسرة بالاعتزاز... ليالي من ذا الذي صار يذكر سيدناهم العظيم، ذي النطق المبهض، بغير، في أيام مساهمة هذه، وكما يقول السودانيون: ...الليل أن وقع، كثر سكاكينه...

تحية لأناس بسيطاء، ربما أزيروتهم العين حين تقع عليهم، ولكنهم شرفاء، يواظبت يخوض النار جوهرهم، يركزون وقت الصلاة - بكلام بلادهم - ويذكرون العهد في لحظة لا يذكر الإنسان إلا روحه الصلوة، ولا يتفكر إلا بالنجاة... تحية لك يا جاد المولى، قرات هذا المقال لم أع تقراه، لم تحضّر ليبنانياً صاحب قلم ويبيّن لأن يخصص مقالاً كاملاً من بعض ما أريد... عنيك برباه حقا لك يا جاد المولى... لقاء من خلف من هموم من بعض أبناء بلدي، وما أكتب جزءاً بجزءه كما قال... أكتب هذا بضعف في ذاكرتي أياها من شعرا أبيان في الضمير، يا طلالاً ربهذا، أن استعنت أليها ترد بصوت بدوي شجي، ونحن

صغار: أنا حلال رفيقو أنا أخرج الرجال وقت أن يضيّقوا أنا المأمون في نيت (بنات) فريق (فريق) فأركم بعين عيالي في النادي السوداني ببيروت، ليست لكم متعة تصال متعة أن تروا ضيفكم أطمأنوا وأرتاحوا وأصالحكم تسجيم قولة شاعرنا العربي "واني لعبد الضيف ما دام بقاء...". ثم أملك لثواني إلا أن تملّني، محبة واحتراماً وامتناناً لكم يا سرفاء السودان الذين أوزق اعتمادهم أخلاقهم ■

وقعت تحت عيني مقالة مؤثرة في صحيفة "الخليج"، التي تصدر بالشارقة عدد يوم 8 آذار (مارس) الحالي، كتبتها الأستاذة معزوف سعودية، صدرت المقالة بالعناوين التالية: ضحايا السودان لأجباب لبنان... النادي العربي الوحيد في بيروت سوداني... كيف شاركه الأخوة السودانيون بأعمال الأغلة... وما أنا أكتشف جانباً من تلك المقالة الطويلة، تحية لمن قاموا بأواجب لا يبريدون منه - في يفتني - جزءاً ولا شكراً، يبادلون به الإنسان بالاحسان... يدفعون به اسم بلادهم في صمت، ولا دهم نفساً ملقة على الأرض تتنفس... صباي أن أعبر بهذا عن محبتهم لهم وامتناني، هم الذين عبروا عن محبتهم وامتنانهم للبنان ومن أولاهم الجليل من أبناء لبنان، وفي الله لبنان مسيحييهم ومسلميه معاً من اللّبن وقادهم برحمة منه في طريق السلام والوئام والحكمة، معلماً السودان... وما أنا أريد ما اختبرته من مقالة الأستاذ معزوف سعودية، الجانب المتعلق ببيروت:

تحية لأبناء السودان سواء كانوا في الخرطوم أو درمان، أو أولئك الذين ما زالتهم في لبنان... تحية للبراسل الكرماء الضحايا... فقد أصعبنا في الأسابيع الثلاثة الماضية أروع القصص حول مجاعة الهباء وهباء والمجان يعرفون إني... وأنا أكتب هذا المقال... وأنا الليباني الذي في بيروت، ومن قبله عاش أبوه، אחי راسي تحية واحتراماً للأخ جاد المولى إبراهيم، المواطن السوداني، الذي يرعى شمل الجالية السودانية، ومعها شمل مجالية لبنانية مستعجلة... كيف؟ فوضعت أولاً، أن الحرب موهبة جماعية، القذرة، ألقت في فريسي عبرت عائلات كثيرة هاربة من حرب... جمعهم... لذلك أطلقت ببيت كلمة مجالية... لبنانية وفي قلبي قصة تلك تحبس عن ودلي الحبيب...

...وأما الجالية السودانية، فبعضها يعمل ويعيش غريباً، وبعضها يعمل ويعيش شرفاً، والأخوة من أهل السودان الذين في الغريبة كانوا وما يزالون متميزين من أمة جالية عربية... صحيح أنهم كلهم من طينة العاملين، الذين يندر أن يملك الواحد منهم، رصيدي في بنك، أو حتى حساب ادخار، إلا أنهم من الناحية الاجتماعية أثبتوا في أيام ازدهار لبنان كما في أيام انهياره، أنهم الجالية العربية الوحيدة التي انشأت لها نادياً أطلقت عليه اسم "النادي الثقافي الاجتماعي في لبنان"... وهذا النادي يقع شمالي شارع الحمراء، وعلى بعد مائة متراً من مستشفى الجامعة الأميركية... فهم أذن على الرغم من مستواهم المادي البسيط أقاموا نادياً... وأين؟ في مكان كان يعتبر ولا يزال من أرقى الأمكنة التجارية والسكنية في بيروت...

...ولمحب الحق والمثلية، أشهد انني طيلة معارفتي، حسناً وحقاً الرسمية، لم ألتق بشخص ضد أي سوداني... على خلاف ما يحدث عند جاليات كثيرة، أوروبية وأمريكية وأسيوية وآسيوية... كل سوداني عندنا عاش ما عاش بجهنماً مثلاً الأماني... ومستهوى الفلحة، رغبة الأخلاص... لم يلق من أحد، لم يصب من أحد، لم يعضخ خارج البلد أحد...

...ومحبة لأبناء السودان أن ليست بسبب ما ذكرت أعلاه، تحيتي لهم كانت تحية بدمع العين... لفي وقت الضيق يعرف الأخ والصديق... كيف؟

تطعن في الأخ جاد المولى وقال: ...أرجو أن نبيّل... هل تستطيع استقبالي؟ ...وبإدارة: على الرغب والسعة... في أي وقت تريد؟ ...قال: فوراً...

بعد ذلك جئتني وفي شفتي كلام... وفي عيني دموع... وقال: ...دعني مشكلة... تتعلق بالأخوة السودانيين في شرقي بيروت...

حيث أطلب: ...هل قتل أحد؟ ...دعني أبدأ والحمد لله... هل استطاعوا الهروب والوصول إليكم؟ ...قال: ...ولكنهم أصعدوا يداً، وكلفونا بآلام مآوى لبعض الناس الذين يعملون لديهم... والذين استطاعوا الوصول إلينا... وماذا خولك الذين هم هناك؟

...ومصر التي اتحتني بكل محبة وتبجيل، النعم جيبها، تم أعيد ضارعا بكل كباني، أن أعرك الله يا كنانة الله، جنتها في خاطري امرأة واحدة، امرأة ليس فيها ما يستوفك أن قابلتها وحكمت بالمظهر، امرأة ليس فيها ما يميزها عن نساء كثيرات سوى كونهن لم تسبح لهن مناسية، أو يصادفن مراسلا أدبيا ينفل أحولتهن أو ينوه بذكرهن....

والتقدير هذا ما تعرفت عليه منشورا في صحافة الخليج في أواخر العام الماضي، ودفع بقلم السيدة «كريان»، لكتبة تعليق شاعري عنه في جريدة «الخليج» الصادرة بالشارقة في ١١ سبتمبر (أيلول) الماضي، بما حفرتي لكتبة هذه الشهادة استغراء، وتعميدا، وتعبيرا عن تأثري وشكري لهذه السيدة المصرية الرائقة.

سافر السيد طلال، إلى إحدى العواصم الآسيوية ليعود حاملا فريوس «السيد» في مملكته. هناك هناك بطريق أروج أن عدل لا ندرى، والتأنيب على أية حال هي في سواء بأعوج أو عدل. وعلى الأرجح الأغلب، لم يكن السيد «فلا»، يدري بما عاد يعمل في دمه من داء، فاستأنف حياته الزوجية كالعادة، بما كانت مغبة عدوى شريكه حياته أيضاً. ونحن جيلت بعد حين، أكدت فحوصاتها الطبية أصابها في الجنين ماء، فإبالية الداء أو بالداء، وكلاهما واحد لا فرق في نظر الجمهور.

انقلقت السيدة الحاملة فريوس «واليدن» (السيد) مع مستشفى خاص بالولادة فيه، متفانص منها على ذلك ما يتقاضاه عادة مستشفى خاص من مقابل مالي باهظ. وغالبا ما يكون قد زاد على ضريبة إضافية باهظة تحت ذريعة المخاطر التي يترتبها مع الداء السريع الفتك السرى السمعة. قام المستشفى بتجهيز غرفة زجاجية مفصصة بها أمانات، في التحيط الوثيق، وكان (الجنين) (واليدن) داخل هذه الشبوة كانت ترى أن الاتفاق الذي تم بينها وبين إدارة المستشفى يضمن لها تلقائيا أن يقوم فريق طبي من المستشفى بتوليدها داخل ذلك المعزل الزجاجي، فلتست في دراية بحقيقة الاتفاق المبرم، وأن كنت أريج يأنه كان يتضمن ذلك أو لا، وعلى كل حال جاء الاتفاق المفصص في مجهرها الزجاجي، ولا بد أنها تفرحت أن يسارع لمساعدتها الفريق الطبي المختص للتوليد حسب الاتفاق (أن كان متلقيا عليه). وأنها لم تتراجع مساعدة من أحد إذا كانت إدارة المستشفى أن وافقت على استئصالها للولادة ولكن دون مساعدة طبية منه، أي لادته توليدها في التواليد، ولادة كيلا كان الأم ولادة بالعين الذاتية، ولادة وحسب، فإذا كان الأمر كذلك (وتضمنه اتفاق) هناك حدث أكيد من جهة ما دون تحديد بالضم الطبي المقص، ولتتهاك لأعراف المنة والتقدير، وربما للفتاوى، أن كان في القانون المصري ما يعاقب على الامتناع عن تقديم العون اللازم لشخص يتعرض للخطر بما يخص عليه تشريع أي بلد متحضر.

إلا أن خلعت مصر من قانون يخص على ذلك.

أيضا ما كان ذلك الأمر من نواحيه القانونية، جاء تلك السيدة المخاص في عين المستشفى الذي قبل بها بالطريقة التي قبل بها، وبينما كانت تحرق وتن وتكوى بأبوابها، كان الفريق الطبي الذي تسوقه سواء بهذا الدافع أو ذاك، يتفرج عليها بمسافة قريبة من خلف الجدران الزجاجية، وربما لبعض المتفرجين الدامس متفرجين جدد، لمشاهد كميها، فريد كميها، لا يتكرر وما كل مستشفى يستقبل مصابة بالآيدز (السيد) الأسطوري جيبها المخاص فيه، ويحتشم على جنبها المصاب به منذ التكوين أن يخرج للمعالم بطريقته الخاصة من أجل التسامح، أن تمكن من الخروج. مفعلة المساعدة من وراء ذلك الجدار الزجاجي كما تتخلل كانت مضبوطة مأمونة، وحرية التداعي اليك مكسولة. إشارة في الذروة، يحفل التلذذ فيها الذعر الغريزي، وطلب الميت النجاة في أروع تجليها ساعة التجدد الجديدة.

هكذا، ومعلمها في أحد اشربة مصاصي الدماء التي يستمد الناطق إليها من عين ما يخافه كقصره الاستماع الرضي (يقع الميم والراء) كان ذلك الحبيب يستحب غنثه الكثرية، وإذا كان ما يمشع المشاهد المستمتع للصور بالانسان خلال تلك الاشربة المرعبة، علمه بأن ما يشاهده بعينه أن يصعب بأذى لاته محض خيال بل يحيل تأثيبيه موهبة لا أكثر، كان ما يضمن الأمان في الفرع الذي تبثه رؤية مماء تلك المرأة ضحية الآيدز (السيد) ما يجهنيتها في نفس المتفرج المشرق على الخبر المقترب، مغباه فخرجات في الآخر، وقليه يريق بشدة، هو ذلك الحائط الزجاجي الوافي.

القسم الآخر في العدد المقبل

لكتبة ما في مصر من غشاء، ويتوهم وأهم أن ليس فيها غير غشاء. لا يرى من بحرها الرحب العميق غير موهبة تتبع موجة دون نهاية من الطالاب والذئذ الأذاب جفاء. هكذا ذوالك حتى يفلجهم ذوال الصبور ذاك يوم يمر منه بالصفة الشائعة من ذرة فريدة تزئب بقلعها الصمات التسامي من نسي ومن أساء، بأن في أمعائه كنوزا شتى وأن لم تتغلغل لها العين. فلا يملك النصف الأمين للقر بالحق، إلا أن يعترف لمصر أن الكثر والندر يجلب جبينها، يقتل بيدها، يقتل قديمها، ومصر دائما هي البحر الأفلاقيوس في رحابة صدرها. مصر أم الأصاقل المصفاة، ذات الدرر اللامعة، مصر الحقيقة لا الأخرى، مصر الأصالة التي لا تمك إلا أن تحبها ونحبها. ذلك لأننا نعرف براعتها من طابيل العصف الملوكي كمن تظلمته وبخلاته وفساده والخيلاء، براعتها من الاستغناء المعتك أما الهرج الفرعجي الصاقل والزيف الغربي بكل قيمه الانثانية الجيلة الجواء، براعتها من تكالب السلطة وتهاوت الساطقين المستعجمين الأشبه بالذباب والنذاب الناهضة النعم الأممي حتى النظم من شملهم ذلك الغشاء، وما له!

ومصر التي اتحتني لحظتي بعد كل محبة وتبجيل، انتم جبينها، واحدا الله يا كنانة الله، يا مغبية يا ولادة، جنتها في خاطري امرأة واحدة، امرأة ليس فيها ما يستوفك أن قابلتها وحكمت بالمظهر، امرأة ليس فيها ما يميزها عن سواها من نساء كثيرات أمثالها في مصر، سوى كونهن لم تسبح لهن مناسية، أو يعرف ذلك ما يصادفن مراسلا صحفيا أو محققا أدبيا ينفل أحولتهن أو ينوه بذكرهن، امرأة - كما الجندى المجهول - لم تقع عيني على صورة لها حتى أشتمل بعض ملامحها - وهل يهم؟ بله دون أن ندري (ولم تقلجا به يقلل منها أو لا، وحتى اسمها الحقيقي لا نعرفه نحن الذين وصلنا خبرها، كل ما نعرفه أنها تلقى بأم قدرتي، ما قدرتي...).

قابلة، كتابة قابلة أخرى، اعتادت أن تسحب بيديها رؤوس المواليد لتؤمهم من أرحام أمهاتهم ليعاينوا حياتهم المستقلة للمرة الأولى. لم تكن شاعرية الزواج حالة الخيال لتتفرق نظرة تأملية حالة اللحظة البليد الأرائقة - الشاعرية فوق كل تصور - بين تلك التناقضات. مجرد دابة محبلة «دابة» عميلة، بلا ذرة ولا رغبة في مسلسلة ما تقوم به أو تزفوق، كل ما يعينها من أنجازها بعينها في الصغر فت، بالرجوع، ويدون خلا، كما تعلمت وقوت، وما يسئل أم والجنين معا، ترسع غالبا الوليد الخارج لتوئ للامع مفضض العينين، ترفعه منكسما، تمسك بحشمتها به من شفاطة سائقي اليديتين، وترسع كلها الأخرى مؤخرته الضامرة المتكوشة المضطربة بدم الولادة، حتى إذا أطلق حركته الأولى معلنا تنفسه، غسلة ومثته لأمه تضمه في حجره ويهز ويحميه شديدا الدراب، أما هي فلتعثر مهنها انتثت على خم فتحمده الله على التيسير.

أيها، وما كنت لآلم لاحتظت: «مهورك» أو «ما شاء الله» أو ما عدا، أو لنقلها، أي تعلن لها جنس المولود ذكرا أم أنثى وسيناد لها، أو ربما انصرفت لاستكمال نظافة بيدها وترتيب المكان من فضاء المبدعة، دون أن تولد بكلمة مزيدة ما لها من داء. أو قد ترقق الولادة وليدها بمسمة حانية أو نظرة رائية، ولكن المؤكد أنها دائما تتجزع عليها بمتنهي المسؤولية، ولعلها تعتبر تسفيرا من خللق بارءه بتدبير لطيف لساعة خلقه في هذه المظلال الحربية، فتقر لنفسها أهمية خاصة من غير تورم في الذات، وإن لم يعترف بذلك أحد حق عرفانه، أو يقدّر حق قدره، إلا عند الضرورة نفسها وفي بلايل اللقلق حين الموت الحية بمصر.

ولعلها كانت ستواصل رسالتها هذه بما جعلت عليه من تواضع وبساطة وانحاء حتى يحين تولفها بهذا النوجب أو ذاك من الداء، دون أن يصل إلى علمنا كنهها، أو كونها هي أيضا مصر الحقيقة بذاتها وصفاتها، لولا أن حدث صدفة ما حدث، فصرها - وإن لم تسبح اليه لارب شخصي - سيدا الشهيد وبطلته الضعيرة وضروغ الخير المؤثر المثير، دون أن تتغلغل وقتها كونها أقدمت على فعل في حقيقتها متميز ومذهل وخير، تستدق على الأشادة والآلية والتقدير.

فماذا لعلنا بالصعب ما قدرتي بما استأنفك عليه الأشادة والآلية

... نجمة في سماء قرونها العشرين تلمع بثبات. لا ينقص من حقها في ذمة سببها أمين أن كان خلفها في شيء من خيراتها (١٠٠) هذا أكلييل متواضع مني على قبرك يا بنت شعبك الخالدة، لم يكن سدى عنائك الطويل!

يا أيها المليونين،

إن أوت والارض... وبشاعة أعدائنا.

ربية القوم مثل ليلتنا.

ولنا النصر عليهم.

من القصيدة، انتحصر جوينيكا، سلول ايلوار - ترجمة فؤاد حداد

بعد أكثر من خمسة عقود، طريدة في مغلها البعيد - عالت -
الذين كانوا في الجبل (ساعة أخذ يستحم عبر الحدود،
بالفصحة المرسرة للزعة الأخيرة، الحريصون عليها بأكثر منها على
نفسها، بل وبمنهم على أنفوسهم). هم اليوم كهول، وأبناؤهم سلف آباء.
عالت وأن تطلب ذلك زمناً طال - باقي عمرها باكملة - ولكنها على أية
حال، عادت. عادت مظلة الجبين، مرفوعة الساعد اليمين
لأمام مستقبلها الفرحين، لا كوم عبرت الحدود، تلتفت مسرعة وداعمة
القلب إلى وطن خلقت بظرف ورامها، تستدعيه النظرة الواطئة، غير
واقفة من كونها ستعود إليه بها من الأيام.

عادت، تسير رتبتيها الواويتين بأشمام يمددها وهي حاكفة على
تدوين سجلها الذاتية التي ليست إلا صلصلة جديدة من سيرة
شعبها الذاتية. وبقلب ونبهتها الذاتيتين اندلست على أندلسية تلمن كل
فرع جديد، كعب جديد سحق. كما حشرات قذرة - البراعم النضرة
في شرايين وعلى شفاة هزئتين. وتعيد للشفة إلى شيفوختها
المتدبة، لمسوس شغل على وجهه الحويصلة المعصالية في مناجم
«استرويا»، يمدونها ملخوذين غير مصدقين أن التاريخ بكل جلالة
تترل عليهم في شخصها الباسنيار - يتوهمه التاريخي. عالت وجوه
الكرامة والبحرية والفتائل التي عالت في الجبال، ثم لأخيت - حذر
العصاصر المار - في حنايا الصلوع توماض الآن جبهة في الديار.
والطيور التي تشتتت في فزع ذات يوم مشرودم وراء اللغون عالت
ثانية إلى وكورها، «ميريو وصحبة ميريو» من مفكرين ومبدعين وأحباب
الحرية المصامدين.

يصف استنبالها شاهد من غير أهلها، والفصل ما شهدت به
الأعداء. الأوك بعد الأوك صوف. جلهم من أصلها، ما يفتكون
لكنها يستلطن الهتاف من صميم الأوك الطوي الأيبيري، يحين
دولويس إيسابور (الباسنيار) التي عالت، «دولويس بيتنا...
دولويس على أرضها - مبرار وتكرار لا يكون. لا تملك إلا أن
يتدري لها من خلائم آخرين. القنصا الطيقة هي هي ولكن
سوامها، والبروج المصمتة سر وجهه الأعداء الذي ما غابوا قط عنها.
سلط حجاب الزمن. الساحر يتماهى مع المني والسر يتحول عن.
الشهيد بعد الشهيد - ينهد في جيل جديد - والحرية ترحل إلى الوطن.
بغاطيلها خطيب السهل، الشاعر والفيل البرني، أن سمرها بك يا زهو
قويك الشكديين وما فخر شعبك الباسنياري، والسنجر خناجر، تزد
في تائر بالغ منتهاه. «دولويس بيتنا... دولويس على أرضها».

يكي صحتي، قال: ليست ما تال به الصنجر - تدوير حال
وحسب، وكذا زهرية تطفئ. لا بل في صفة في وجه من لفرجها من
ديارها، وبكل في جبين الصنم الكبير، على وجهه، متلف ولكنه كسيت
من أكرم كرم وسطالة - يسقي بها موتورين مامة صالدة في المراء.
بل، وبسالة مزينة موجهة للصناديد البرية تستاقوا على القاروس
وعلى الشتر، وفي الملطحات والشرفات والساحات، كالفرش على
الذهب، يتساقون إلى منحن حمود واقتدا، ما همامة الجود حين
الصنعية هي الهجة ذاتها لا أقل. بسالة تقول يا أحياناً، قلتم
ستتميزون حتماً وما مصاديق قولكم ذاك وإن تأخر النصر عما كان
مأمولاً. ومن يصفح أخيراً مصاديق قولك... فلا الجبريت يعل
الباطل حقاً، ولا الأقوى تشكل بعد ذاتها حجة، ولا الزمن يمنح شرعية.
«دولويس بيتنا... دولويس على أرضها». ولكن «الدوتشي» تدل
من قدمه منكساً عيناها جاحظتان للتر، بطرهما بطنين الذباب،
قربة منفرخة والفرغ من خيلاتها الكاتبة عيرة على أرباب روبا،
ولعون هو ما ذكر اسمه أبداً. أما «الكوبيلو» فقد ابتلعت مكتائبه
ذات الشالب الحديدية ومال التاريخ المتحرك، لتعود الشلعة الأسطورية!
منهم حقه في الكلام والكرامة طلبة دياجر تنقيشه المومي. نعلم في
تاج، ولكن على جبين حرة وبمقرطال صنيعة شعبية نافذة. وبقي
ثم، ولكن ليمثل كل القلم، وإيمان لا يذوق. كما فعل في
لحظة حرجية بجنان جرمو، وإحجام جرمو وصراة. وهل من غربة
وهو كابية في أحترام أبداً - وليس ذلك القنص - لنفسه هذا
السيد، قنع شعب بحكمة راقية وواقعية ريفية به، على طريق
التصالح والتسامح، مؤثراً استشراف عد سعيد على تاجيح شغلان
المناخ، ووفق جراح الأسم من جديد. يكفي أن زال العاوت وانقطع
دايرة.

وبقيت العيرة لمن يعتبر: أن الصبر الحق - طال أمده أو قصر -
لا مهرب منه أو مديد. وإن الحقيقة العديدة قدرتها على الالتفات
والانتمصا. وهذا ما أكدته تلك المظلة العظيم وقد وجه بموقن
مسائل: «بإمكان أحدهم أن يقدح بعض الناس كل الوقت، أو كل
الناس بعض الوقت، ولكن ليس قط كل الناس كل الوقت». ثم تضحك
قولة شاعر الانكليزي - حفيد لاروين - دلف ندمه على القزى الباسني
ليسفي غربة الحرية، وصوت الباسنيار في سمعه تغير الحرية
نفسها.

عشية اغضب «جون كروفر» جفنيه الاغصاة الأبدية الجديدة
صريع رصاصة كتابية، نظم قصيدة في سهل هويسكا يرعى أنجما
تتلاها عين تلك اللطاة على وطنه الذي أن يراه ثانية، مستمتاً أياها
بقوله الشامخة أبداً: «ليس بوسنا عمل شيء لتخفيف الألم، سوى
أن نيزين أن العناء لم يكن سدى». ورغم استطلاة العناء مفدا -
قراءة نصف قرن - لم يكن العناء سدى وما السناجر تزد: «دولويس
بيتنا... دولويس على أرضها» - هي، وما كانت تمطره، ومن كانت
تمطره. وكان هو أيضا صنيعة - حياياهم وإن لم يتعلموا عليه
احتمالاً - الشاعر الشجاع الشهم الذي نظم ذلك الشعر الشامخ ثم
اغضب جفنيه الاغصاة الأخيرة رصاصة كتابية وهو يقدي
الحرية في سهل هويسكا - وبقيته في جزيره في العالم بأسره،
مستيقداً عريضة الجاحفل الجديدة تتوهم السيطرة على الكوكب
الأرضي، والسيادة على البشرية. بعد أن جللت من أسبانيا والحبش
أختبارها مستغفرتها الأول.

لم يستطع وحده، الهل من انتصار الحرية، وإلحك تذكر من:
المشاعر منهم جورج أورويل وستيفن سبندر وماريو وإيلوار وغيرهم
لما أحرار أمريكا تلك جازوا برفقة رايا من الأوفق أن تصل اسم
«لنكون» قائل تلك الكلمة التي سبقت. يلمست لمين ضمت الشاب
ومفتنوا، الذي كتب أدرج ما كتب في الحب الأمالية الباسنياري،
وانضم إليهم من تراثته على سفينة من ورق، أبجر بها في بركة سجن
ميربوسه، وكانت تلك حيلة في الدخل بهم ولو بغيلة الشرقي، ليسب
معهذه اللعن، لحظة دهم الدخان.

بالمقابل، إربسل «الدوتشي» طرانه إلى أخوته في الشعر، يسوي
جوينيكا - الدنية الباسنيارية المتدبة - بالارض وبشر -
استنصر بيكاسو الذي وصف إيلوار بهجة بكزته يعكس معيهم
والأسم. ثمما كبره المارة التي يحجبونها، لكن غصبة الحشود لغزيت
ريشته الشهد في ذاكرة البديرة كوسم أبدي - ما بقيت على الارض
ذاكرة. مصباح الديقة ألواح باعل، وباصرة التايخ تشلي، حين
كان العنف السبع والرب الشرير الصارخ، واللغوي ثورا وفلس
واشلاء في كل الساحة. جوينيكا الباسلة، جوينيكا البطلة العائرة
جوينيكا التبتة. شاهد برفق التواصي على تناسي التارات رعل الصلح
التناسي الذليل، سيحل الصلصلة الصميد الذي لا يفسح له بيان:
لا ينسى ولا يصحح - وكالباسنيار - المارة التي يمينها، كما شهد
إيلوار - ظلت جوينيكا كذلك الكتلاني الدهش، شريدة في منفاها
البعيد، لأكثر من خمسة عقود، لا تراها عين الوطن إلا حين زال الظه
الغليظ.

قبل أيام جاء نعي الباسنيار. حاول المذبح الفرنسي أن يفيها
حقها: كان النداء الذي أطلقته. «لو سباريان - إن مبرو» - على أن
لسان. اما هي فكانت لا تستريح من كل مكان. بل الشفاد الأمالية
بين المدائير، وفي الإذاعة طبع الحماص وتوهم الصمود واليقين. وفي
الخزعة تواسي الجرمي. كانت شجاعها أسطورية، فيجيها الصندي
دين الانقاص: شجاعها أسطورية؛ شجاعها أسطورية؛ شجاعها
أسطورية؛ وبجرعة لا إرادية، وكما أشتعت في صمعة وأجالت قضات
رفاق ميسو في رواية أيليا أفرينجيز «سقوط باريس»؛ انبثقت قبضة
تهزما المروعة والظلمة تحمي الشجاعه الأسطورية السجاية في جثمان
لم يوسد القزى بعد، وأن وشد القلوب. تقول: وداعاً يا باسنيار!

وداعاً أيها الشلعة الأسطورية!
ابتدأت ثلاثة في واحدة: امرأة، وكابحة، واشكودية (باسك)،
والرغم من متهاها كذلك، أو أقل بسببه، ألفت نفسها ببنيها من فاع
لقمة. ثم انحنت مائة يدها لنديين وميندوات. نجمة في سماء قرونها
المعشر نبع بثبات. لا ينقص من حقها في ذمة منصف أمين أن كان
خلفها في شيء من خيراتها. لذلك قلتم. ذلك كانت عين هذا
شجاعه، وزارة كرامة وكبرياء، وبقيته بطولة، وبيرميلة أوا ورأها. ثم
كانت ناسجة فولان زبد، تستر به لثم شعبها وهو يتلقى الطنات.
هذا أكلييل متواضع مني على قبرك يا بنت شعبك الخالدة، لم يكن
سدى عنائك الطويل. ■

.. ومع ذلك، ليس شعب السودان هو القائل «والناس تأسد الرماح»
 وشعاره هو الذي لاحظت بحسرة ومنذ وقت مبكر، كل امرئ ياحسب
 في السودان غير مكانه - المرأة ليس بأصغر فيه قلبه وإنسانه، دون
 أن يفسر لنا كيف يحدث ذلك وكيف نتفوق...

أسوء حظ تقول؟ بل كيفما تكونوا ببل عليكم، أما قال هذا
 الشعب نفسه في حكمته التقليدية «لا فيها شق، لا تقول: طاعة»
 بل كيفما تكونوا ببل عليكم.

ومع ذلك، هل يستحق شعب ناضج، مدرك، بايب الطوية، كل هذه
 القيادات القمعية التي ظلت تدفع به إلى موابي الهوان والهلاك،
 والضياع والضياع - كل واحدة وأكثر خيراً من سابقتها ولكننا
 جميعها في تناقض على درجة الامتياز في التفتيش، والسفاهة
 والتفاهة، وفي ركن الآثام وتنبؤ المآل؟ ثم هل يستحقها جميعاً؟
 ومن هذه العينة المزعومة؟

من بل أين جاعته تلحم الوجوه المشاهدة، الزامعة لنفسها
 تمثيل وهي تمثل به، تقوده خطب عشواء وهو الحيدو البصر الناذر
 البصيرة؟ تلك القيادات القمعية للفتنة على لاشء، التي لا تسري في
 فراستهم عزماً إلا لاحتلال، أو تحسب بكرة خاتمة لغرة أو غشبة في
 وقفة أباه إلا خد شعها، ثم لا تجد نسحة للتفكير أو التفتيش إلا
 لخداعه والكيد له. فإذا لم يكن هذا الشعب على غرارها، فلماذا تولت
 امره قيادات كذبه، أن كل تسقط واحدها بما اقتضت، حتى تنهض
 من جديد تسمى أو نعت جديد، ولكننا نتلصق الأرواح؟ ومع
 ذلك، ليس شعب السودان هو القائل: «الناس تأسد الرماح» وشعاره هو
 الذي لاحظت بحسرة ومنذ وقت مبكر، كل امرئ ياحسب في السودان غير
 مكانه - المرأة ليس بأصغر فيه قلبه وإنسانه، دون أن يفسر لنا كيف
 يحدث ذلك وكيف نتفوق، أن لم تكن لعنة أبوية.

«ع»، ويكيل أسبق لوزارة المالية السودانية، زمان كان الوكيل وكيلاً،
 والمالية مالية، والبودوان سودانا «جاهد القيد إذا الفيت هي»، خدم
 «ع» خيراً دليلاً وأن يدبر بيت خبرة ومشورة في عقل الاستثمار
 الخاص بالخرطوم، فلا يتوقع أحد من مثل زفرته ورسالتة إلى
 الانجراف إلى احكامه أو اشتطاط في احاسيسه، ومع ذلك حين أخذ
 يصرف لي - شهادة هيان - للتأشيرة الشعب ضد استبداد التمزيق
 فنتب من صميم صميمه: «أنا شعب عظيم بحق»، نسر لي هذا الحكم
 الذي دفع به لي كجل أعجابه وحماسه، ما من أحد اشتكر لي بركان
 الانتماء، فأتذكر، اشتكر لأن يقابل ويأخذ باب بيته وهو خارج لكافة
 الامتيازات ما فيها التخصيص النهائية، كانت الدور خافية اللهم إلا
 من العجزة والقمصة، والأواب مفتوحة على حالتها عند الاندفاع
 للغيرة، ومع ذلك لم تسجل ولا حادث سرقه أو سطو واحدة، حتى ولا
 واحدة.

على احدهم يجد: كان الموصوف أيضاً في الشارع الهادئ مع
 الشعب الثائر اليسير ما أيضاً بعضه فضيحة فضيحتهم؟ صفار
 لحرص من اضطراب ثاروا مع شهبهم ضد موصوف كبار وعن اقتدار
 للصوميين الكبار المتخفين خلف المقام الرفيع والتهندام الناصع
 والالاف المتخلفة السارفين البلد بمالها.

في العام التالي رزته خلال عطلة بالخرطوم كالتمتاد، وصفها لي
 خلال الكوارث الطبيعية المتزايدة تلك، واختمت وصفه: «يرفع كل هذا»
 تجل المصون الاصيل لهذا الشعب، خذ جرائني تلك، بيتي يعتبر
 قسراً متيقاً بالفارقة مع الساكن العشوائية المتفاحة المحدة في
 مختلفات السكنية الشائبة الجديدة - مساكن الصفيح والكافد
 والخشب الملحم التي لففتها اصحابها النازجون لحزام البؤس
 بالخرطوم، كل من حو لي غارق في الطغايا بيته ويحده الفضاء بمولد
 خاص، الاصصاصة كلها معطوية في طمر منتهى، يسيل كاسح ويذل
 طامح، بلا تيار كهربائي، ولا ماء نظيف جاري، ولا قوت ولا حانوت، ولا
 دولة تعمل أو تلتفتهم بالعدل، ولا شريطة تفسد أو تنجد فكر مسؤول في
 شغل شاحل بنفسه عن مسؤوليته، وكذا عرفك ذلك وبيجرائني
 الشراطين يهرون ذلك أيضاً، وأنا ومع الناس أبراس، ويرغم ذلك
 ويرغم ما كانوا فيه من حاجة طامحة، وهران مضى من أدنى
 ضرورات الكفاف البهيم، لم يتعرض واحد منهم ولا مرة واحدة لأذى
 أو خارج من بيتي، بل ولم يطرُق واحد منهم ولا مرة باب بيتي طالباً
 أي شيء مما كان يجوز ويرغب أنه لا بد عندي، أنه شعب عظيم
 بحق.

علقت متذكراً أباه: «نفس هذا الوصف استخفته له عاماً أول
 عقب الانتكاسة» وفي الحقيقة، كيف تدعو السلطة فقراء معدمين
 تماماً وتسحبهم اغنياء من التفتت، حين لا شريطة بمقرية لتدعيمهم،
 كانت شرطتهم الرادعة بأكثر من الشريطة شائهم، قوم قبل أن يرفعهم
 سلطان، تزعم قيم ريفية هي كل مقتنياتهم في الحياة الدنيا وعليتهم
 ومغزيتهم، ومن فيهم من انبأهم المحظوظين من يتعرف على فضائلهم
 ويحسب عليها بها إلى أعجاب وحماس،
 في أخريهم في بالخرطوم الملحم والضي، وإذا نحن في قلبها التجاري،
 الهابت بي شطيتي مقاطعة لمائة: مثال اعرفك رجل عظيم، أحد
 التجار الميرسين، سألته: «ممن أين له العظمة التي تنسبونها له؟»
 حك لي:

«بقيت الانتخايبات النهائية المضافة»، نشرت نداء بالصنف اعلم
 فيه نيتي خوض المعركة الانتخابية مواصلة ذلك خدمتي للشعب، غير
 أنني لا أملك قدرة على ذلك إلا أن يمد لي المخلصون أياديهم بالعون
 الذاتي.

مساعدة نفس اليوم طرق بابنا طارق اعترض من السفل، قال لي «ها
 جئتكم بتبرع، فكلية أدت هذا الصباح»، سلمني شيكاً، فقلت طلب
 مني كتمان أمر حيث هو كذا أيسع لي؟ «عشوا في قيادة حزب
 مثالي»، ومن المستأثرين القوميين الراعي الطائفة الدينية التي يدين
 لها بالتمنية والولاء والوفاء، من وافض، «ها أريد رئيس ذلك الحزب، لذا لا يوه
 لتبرعه ذاك أن يحبس عليه».

شكرته على كرمه وبرهته وحين ما بالانصراف العيني انه ان
 القر نظرة عجل على الشيك فاذا هو غلظ من أي رقم وإن كان يتبرع.
 شيك «على بيض، موقع عليه، سألته في استهوان، ما هذا؟ أجاب
 بهدوء: «لكني كتبت عليه ما تريدون كتابته»، بادرته «أذن انت لا تريد
 لي الحقيقة أن تتبرع لي قطر لملز أكتب عليها مبراً واحدة»، ضحك،
 وكذب عليه عشرين ألف جنيه، من اضاف، «ما حدثت لزيد عيني
 بي في هذا الزم، وإذا لم أكن فسناك اشكرني رسالة بان أم احمد.

بالحال اليك وسأفهمه والقوم والآخرين.
 في السجل التجاري استقبلني ابنته بخفاة، قلت لو: «سأفهم
 الضرمين غداً في ما جاءه واجاني واسأبره كاش تهلل: «اعتبرها
 انقضت، قل لي ما هي»، «الاه»، «أوضحت»، «سأفهم» في بنشر موقف ابوك من
 شطيتي، انه من نزل ما اكتب عنه في اليوم السابع، «أجاب: «لا
 مده»، «أجابته كيف تقول ما اعتبرت في الحقيقة سبرهان ما تتراجع عن»
 قوله «أجابني: ما تراجعت، لما طلبت يخص الوالد بعده، ولكن متى
 عاذه من زفرته استأذنته لهما».

ودعت الابن الذي توهمت فيه شعبة ابية، في الطريق علقت
 مقاطعة، بتبنيها لعملي، هذا شعب عظيم بحق يا صلام، «أجبتها
 في سري متكررينها في كاشيتي لا يدرى، ولكنك أنت أيضاً عظيمه يا من
 تستندون لي في شحك الفهم ما فيه».

في نياتي في ايام الضرمين قالت لي: «لديك صديق كبير يونس
 في تلك المنطقة كثيراً ما سألني عن اخبارك حين اعصدا لغرض، في
 آخر لقاء يقفنا نتحدث قليلاً، وإذا بي أقول له: هذا شعب لو وصفته
 على راسي ما يلقيه حقه، شعب لا يخطئني قط في أي موقف كان، ثم
 قصصت عليه ما حدث عند اعتقال تحت طائلة قانون من الدولة على
 ايام السراح الضرمي، قرابة ثلاثة ايام بمنزلة الضام، «بهر
 ابني» في الطرف البعيد من الضرمين.

سحسوا في مسيرته منزلية وضفيها على بلاط الممر برامى من
 الزئانق المظلة على وقد جلس الحارس الخاص بي على كرسي بمقرية.
 كان جميع المحلعيين داخل كل الزئانق، ومعظمهم من طلبة القليل
 والمائة والقليلة القساء، مجلسون أو يقفون نصف عراة من بطانة القليل
 الخائض، ما ان رأيتي اقتعد منرتي تلك، حتى أخذ كل واحد على ما يريدني ما
 يستر نصفه الأرجل ليجلس بعد ذلك واضعاً راسه على راحتيه يحدق
 في الأرض مطرقاً في لحيات تام، سألني الضابط دفناً: «ماذا اعلمت بهم
 فقد كانوا قبيل صبيحت يومنا في صراح وشجار وتشتات بذوي تجارز
 كل فحش، كيف لمعت بهم للصمت والاباب على هذا النحو».

مطلبة مدة باقي في معتقلي ذلك، وإمالي «الامام - بهر ابني»
 بلا اتفاق بينهم أو تنظيم، ظلوا يأتون لي، كل واحد بما يسهر له، بما
 كلانا جميعاً شربة وصحابي رزاق يدخل علينا الطعام والماء البارد
 والشاي والقهوة ولا أعرف من دفع به، فبطية هذه المدة لم يملأ أحد
 من أوكاش القلعة والجرمين الذين كانوا حولي مني مني، فإذا ما
 جلوس مطاطي الزويش، صامتاً، وأجبتني، ساكتين لا لأفترقوا إلا
 من منيا، «حين اقتدست السلطة قارباً بقدي، حرصت على مصافحتهم
 أفراد بعد الأخر يدفع من خلال الضمائم المعدنية للقلعة التي
 تفصلنا ما بيننا، فكشروهم من قلبي لا ظنوا بديوتهم نخوي من أدب جم
 وتحشم وكريم مشاعر، ومع - للصبح - خدماً شامياً وقاع الجشم».

اختتمت حديثي بعد ما لحيوت بمصافحتهم وينس قد أجهد من لوط
 القاتر، ولكنه شعب عظيم بحق، وما أقل كل تضحية في سيول وأن
 عظمت.

وسي العظايا اختاء، يتسلط عليه في غلظة منه من لا يخاف الله ولا
 يرحم، ينطلي فتته كل منق اللسان يقول ما لا يفعل، يمنون طيبته كل
 منيس ضمير مخبره غير مطهر، يجد فيه فرصة كل مشورة، حياء
 وقيم، متفلس على روين، بل، شعب حادس وحياد ومروءة، ولكن
 يتقلب عليه أكرة بعد الأكرى سفاهة وبلهائه وبيجرائني وناشده،
 ولكل شعب بارقاء، ولكن... ويرغم ذلك الشعب الذي منه تحدثت،
 وليس لأنني منه تحدثت - لا ينبغي على الحماية بحكم الهوى الضليل،
 التزعة والسوية والذمة - وجهته جديراً بالاحترام وجديراً بالعبه ■

...ولا هو بالوحيد الذي ينطبق عليه بعض ما ناله منثناء واشادة... ولكن ان تدور محادثة على النحو الذي اجملته، وعلى بعد الوفاء الاميل من حيث كان الحكيم يمارس مهارته وانسانيته في توليف وتواضع، فلانه لا يخضع العرف بين الله والنفس، لقد وجدت هذا النطاسي دون معرفة به شخصيا، جديرا بالاحترام جديرا بالمحبة...

يكون في الوقت عينه بجانب اهم في المستشفى، وفي لا تشجيع لأي علاج. نصحته بخلاف تجريب هذا الحكيم الذي يده لهما البركة... وتحت هذا الاعتراف اصر على اخراج زوجته رغم الرضا والتخمين، ووضعا لعناده التفتت جهة يوقع اقاررا يتجمله مسؤولية ذلك ونزوا القريب التقديرات الاصطناعية من العودة المرأة لتعامل مع نفسها في زمن شديد واعياء للقابلة الحكيم الذي في البركة...

حدث الرجل الذي علينا اسئلة ما حد، وبعدما انتهى ختمها بسؤال عما اذا كان هناك متجرب كبير بالقرب من سكننا استغرب السؤال ولكن اجبت، طمأنيتي بان زوجتي لا تحتاج الى اي دواء، ونصحتني بان اشترى في طريق عودتي صندوق سمين ابيض حتى اذا احسنت ويظهر شرب من قبل الماء، خبوت لتقدم والماء داسي لانتزاع اول ادمي من حباته... بالتوفيق الانصاعا بيدي طبيب بدل ان يهتدي في تصديقه اعطاني ال متجرب عادي، خلعت حله على صحتها واكتفتي فقلت كما قال، وهل تصدق من اول زواجها فتحنانا لها صارت تمسك ما تاكل في بيتها ويرت فيها العافية... سامعني الله من حقه، لقد وجدت بده مبركة جدا...

امراة القلقا تاخر وضوعها زمتا قليلا غير محذرا من شهرها التاسع وما من بؤراء البتة - تصمتت صديقه باستنشاق، تدمت امرأة بعدم استطاعتها التغلب اليه وزوجها خارج البيت باستمرار، اقترحت صديقتها عليها الاتصال بهذا الطبيب فانها يفرح مكشفتا له، استبعدت كلية ان يقبل بهذه الطريقة، لدى اصرار صديقتها بان تجربها فهو مختلف، فقلت فويست المرأة لضعفتها الشديدة وبداته الازفام لورا وبهاضتها في الوقت اللانح لشرح جوانب حالتها بصبره الجهد الى النهاية نصحها بدهاء منشط للمراهق ولتصحبها بالمشي كل يوم على ان يتبها مراتب على غير بساطرة حيث في مثل حالتها بدهاء ادمي لا يميل كثيرا، وبطبيعة الحال، لم يتفاسد من المرأة للجهة طلبة الحديث بقلبات خبيثا عن الوقت الطويل الذي تقاتلت منه بين منتظرين، في هذه الممرارة ما نهها اليه بالقيص، ولكن صارت المرأة شاعدا لا على طيه بسبب بل وعلى فسله...

سالت شفيعي: ما سر نجاحه الكبير في رايته اجابني كونه قد جمع بين الطب كالتفري الذي تلهاه والعارف العملية التي جمعا، انه حكيم، يتناول كل حالة بحسبها حالة خاصة تتطلب علاجا خاصا، من هنا كان سعيه في القاء شتى الاسئلة التي قد تلي الضوء على كوامنها وان راعها غيره واشده، ويمتدح لياها على اللامع بما يجعل منتظره خارج غرفة الكلف يتبرمون من اطله لا يصدقها الا حين ياتي دورهم فما هو عنه هو وحده القائل لبيت الذي يترجم الى مال وان كان مريضه بالتناجح...

وشائبا اعتماده بوضوح اهتمام يذهب من ضمنه المهني بوضعه الخاص، بين اجل ذلك يتصمم لتسوية الاشياء في تامة في مشروبه، ان يطبق مراحلي القسم الذي اتسمه، وثالثا، استطاعته اقامة جسر بين يديه وبين لاصدود على السرور، نصحني من نفس هذا التذهب المعتاد في حق الطبيب، مريضا الساجد القنبي من تيرن وشعره بالدونية مما يحس به في احيان مرضي امام الطبيب حتى يندبش اكلته بما يمانع من حرج، ورابعاً، عمل القائل المادي هو آخر ما يلقى اليه وهو يوزي بسائله ولا اقل يسمى لكسب رايته، لا تذكر كيف كان يتلقى من القابلة خمسة وعشرين قرشا في الخليلج بين كل الالامع تقريبا يتقدمون خمسين؛ وما هو الا يتلقى اقل من نصف ما يتقاضاه غيره، فاعلم في الوقت الاضالي الذي يقضيه في محبة التمثل واستند التي يكثر منها...

لم التقي قط بديكتور الفونس عزيز، ولا اطني الا ان يشاء الله، وفيكتادير، هذا الاعجاب الذي عاراني من الحكيم الذي يسطع الحق المستحق لزملائه العاملين في نفس البلد لاسيما اهل التخصص منهم، ولا هو بالوحيد الذي ينطبق عليه ما كتبت في بعض ما ناله منثناء واشادة وفوق كل شيء علم عليم، ولكن ان تدور محادثة على النحو الذي اجملته وفوق كل الاميل من حيث كان الحكيم يمارس مهارته وانسانيته في توليف وتواضع، بما لم يخطر له على بال، فلانه لا يخضع العرف بين الله والنفس، لقد وجدت هذا النطاسي دون معرفة به شخصيا، جديرا بالاحترام جديرا بالمحبة...

ماعدت مهنة الطب نطاسيون مهرة، قلوبهم ملأى بالرأفة والمواساة، لا يحيلون طياتهم بضعاء او قاصدم المتداني برة حلول، بحيث تصد ابوابهم وحبابهم وانسابهم ويعلهم الاثران من لا يملك قدرة على ذلك، ويسعدني ان تمكنت من تقديم بعض هؤلاء الاشيار لك يا قارئي الرئي، وهذا بالمصادفة اولهم: طبيب سوداني له عيالته الخاصة في بلد عربي اسمك عن تسميته لما القعد الاعلان، اسمه «الفونس عزيز»، يقطن ريبا، وللاطباء النصارى باع طويل في تاريخ طلب انتمهم الفريية كزين فيستوسر ولسطاسي لوقا وسواهما وكما قال الصديق النبوي الشريف «الدين المعاملة...» ولكن لماذا الفونس عزيز؟

شفيعي المصور السيماني محمد الهادي، يفرشني ويمتني بزيارته لي معز واستمع للصيغة هذه الأيام فادمن من نصفي الطبيب يعمل فيها كاشمارا، وادأ بالشاره هاربا في سبيل حديث عام تعلقب الى ولاية مملكة بن شكاره ذلك الطبيب ومعه، شكاره رفته - هل كونه ممارسا عمويا - مقامها عليا به كثره من اهل الاختصاص، علما بان للطبابة العمومية مزاياها وللتخصص الطبي مزاياها، وكلا السائلان لا غنى عنه وبكامل للاخر، واما حال، فالطبيب في النجاسة في اتجاه الانتفاع بطب طبيبي من في ثقل الخلق في نجاسة ما يتلقاه وجوري الطبيب المادي ولا فلا انتفاع في حالات جمه، ثقة استماع استعابها على ما يبدو لكواليس عزيز تمكسها شورة ضالقة وصيت حميد تدنيا احباتا حذر البلد الذي يعمل فيه، ما يحلق من نتائج ان صارا لنتائج تشبه في ندر بعضهم الاجالبيب - من حل او مبالغة «جوابات طبي شخصية حيث قاضيه ابيه...

لاكثر من احدي سنة ولفيقي «الرفيد» على شديد تشلفه بالاطال - اطال غيره - بحيث لا يقين بعض بولت مهمما طال للامتنع وافرارهم ولايتهم، هل هو نفسه بلا طال، حتى لقد ايفك وشركة حياته على فلان كل عشم في انجب، ولم يدها طيبا الا وصادها لهما بخفية الامل، حتى ولقا في النهاية لتسبيها على عقم وعزها، يحدون ان الحكمة الشمية السودانية تنصح بان «الارضة جربت الصور» - و«الارضة» يا اها العبر دويية تفرش الشفي كوما تشرع اكلهم معلم الفصيح - فصادا عيادة «الفونس عزيز» بالانباراب المير المعتاد...

نصح الزوجة بعلاج طبيبي حده له وبمعالج بدائه وما اكلمته كله، ولقد علي بان تفرقها حيث تفرقت كان في حسنة ايضا، وهو عطار لا بد لانه ممرير ان فستهم ليله ليس من اخراعه من ولكن الاجموية تعلقت عن يديه هو دون من سببه وما من عوز في ممرارة نظرية بعد ذاتها، إذن ليس من سبب يال الى انه ذلك الصنصر المقلد الماعقول، الحطفي والوهبي في ذات الوقت، الذي نسميه بفق او بدونه «البركة» والتفريق، منكما امكن تسمية ما حدث «مجرية»، هكذا وبها يظلمتها كبر مية، تلاها اخوها فراس - والله من بعد برزق من مزايا بغير حساب، سمعت بما حدث في ذلك منذ سبع سنوات من اخي «الرفيد»، وهو يكل الطبيب الكثرة الجوزل شاعرا، ثم بعد الله الكوالب بالانباران المقيم...

حدثني اخي محمد الهادي: فالتقت اخيره بانهم في المستشفى تهرؤا تفريل زوجتي بعلمية قصيرة يمحرون لها، جاشني صرته حازما جازبا: لا تدوم فاعلمون ذلك البتة، سبكت زوجته ولادة طبيبة ما من موجب لغير ذلك الا عدم السير والتفعل - لا تدوم يسمنوا فطبل خذا منهم ان اصرؤا في قل في نقطة ومصلحت اليه حالة البرحم، لال في شكايتي عن نذبت استاسرهم عما طلب معرفته مني بفرني بالا داهي لمعية، ولكنه كان على ثقة من ذلك منذ البداية...

وحكي لي كيف وجد موطننا سودانيا تبو عليه بساطة القريب الصلة وباصولة الرضا في غرفة الانتظار بجادة طبيبهما المشترك، قال لي: بعد انصية او يملعن ذلك البتة، اعترف لي لماطوان بروج الانصاح السودانية الشدية والتفقد الذي انك، «اروج ان يفرغ له ان من حق هذا النصارى، قد ظلمت يا اهل ادم»، ذلك ان امراته الميرال كانت من النوع الذي لا يزرع طباما الا يزنه على الفور، وقد اتي فاقم معها العلم الضلوع الى استبقائها بالمستشفى، ولكن كان في الزوج المسكين ان يذهب لاداء واجبه الرسمي حتى نهاية دوماه، وان يعتني بشكايتي اطفال مصلح والبيت، وان...

الذي كان يبوذلك بقبيلتي رجل مهذب وشهم وشجاع عظيم
القرار يجيش بافكار تسمى لفرسي بالانتماء وإثراء وجدانه... هذا
الذي كان بقبيلتي، قاتل القاتل، وجنته ملجأ هو أيضاً... ولاكثر
من سبب وجنته جديراً باحترام... جديراً بمحبة....

«الآن نسي كل ذلك تماماً. صار يتشبع بي الآن الذي لم تشبع في
عنده طولتي. نسي الآن تكري غلظة غاضبة للمحبة وجه ظلال انفصاف
عن مكانها زياتها ومناصبها ناط بها في يامه المطبق رجاءه
السميت. نسي، ولكن كيف لي أن أنسى ما أصابني به وجهه وقدميه
مهما تقادم العهد وامتد بي العمر ومع ذلك، لم أكن راغباً في أن يناله
زيملي الأرض بأذي إنتقاماً لفرقة الصعر الذي كنته أذن. والذي ليلي
منه مير العذاب كفي يتقوه هو الصعر المقدس الذي كان يكتفه
سويده».

مرغم محاولتي إن اثني زيملي عن تصميمه وإن يترك الورد ومن
سيتولون أمره وشيكاً، أصر زيملي على الاستدارة راجعاً، وما رانا
الرجل ثانية حتى يتر رجاءه ثانية ومرغ إلينا مستبشراً. أراحني
زيملي بدفعة هائلة عن طريقه لفرغ سلاحه في الجسد الذي تهاوى
بيدين معدوتين نحواً. نفس العذاب نفس الفطنتي اللتين أوسعتا صدغي
وأذني وأثني ولقي وأضلعي وكل جسمي الصغر صغراً وركلاً ولكما
لطفاً من غير هوانة أو توفف. لقد ندمت لأنني أطلعت زيملي على
حقيقة الأمر رغم إستحقاق الرجل للعقاب التي تلقاه بحسبان أية
شرعة أريسية أو سميالية. لم أكن غالب. إن تلك الأيام كانت العادلة ناجزة
والجزاء أشبه بالجرم، وكانت الثورة في من لا ولي له.

يقول: «أعزها له العدل العادل الناجز، بل ومارستها بنفسي.
مكأن ذلك خلال ذرية تطواف أمني كالمعدن. مرت بقربة فرابت
فيها مشهداً عجباً. أهل القرية كافة صغيم وكثيرهم يتزعمون
مهاجرين من حول أبرة إن لم تكن حبيونة تماماً فتكاد. المرأة تضرب
مهرباً، غليظة رجلاً أمامها شربات متلاحقة مفيضة تستل لها من
صميم كيانها كل ما يمكن في من عزم أحمي. تضبط الرجل حينما أظن
أنه لا تكاد توفف لتلقط أنفاسها. هذا، والرجل يعاول إتقاعاً في دعر
هائل والجمع الطلشد يستحقن المرأة الميزه وكأنها تستمعهم أو كأنهم
بحاجة منهم استزادة أي حث، ولم يسبون الرجل ويسببوا
للنساء وقد ضربوا على طعناً محكماً لا لإفلات له، وإنما، بينما
العيون تطالبر منها البشر، واليهود يتكبر فيها الضطر، والتقصاض توتن
بتصميم أكيد على الفتك بالرجل.

بمضيعة استنصحت السيطرة على السوق والحولية بين المرأة
والرجل. تبين لي أنها امرأة مجاهد استشهدت تحت العذاب. والرجل
ويدهر - جاسوس ماجور - وهو الذي قاد عسكر العدو في الواقع إلى
صخب زيجها المجاهد الذي فيه اعتقل ومنه اقتيد لعذاب الرقيب
قائداًه. ولم يكن بذاك لكان «البهوء» معرفة مكان اغتفاء زوج
المرأة المجاهد أو لم يكن - بل بالسلا - أخاه.
«لا، لم يكف أخت السلا بفعلته الشنيعة تلك بعد ذاتها، بل
وسر بعدها فيما هو أضعف وأبشع - لقد بل يشق القرية عياناً بيلنا
بلا حياة، ويقتروا ويصطب سلاحه في اعتزاز بالآثم وخيلاء، ليرغم
أرملة أخيه الشهيد على مضاجعته في عين فراش زوجها - أخيه
المجاهد البطل الشهيد - كلما فكر بذلك أو عاينته الشهوة. وما هي
أرملة أخيه الشهيد وقد تمكنت منه أخيراً لتنتقم لنفسها من العار
والهوان الذين أجبرها عليها المرة بعد المرة زماناً طال، مثلاً لزوجها
البطل من خيلة أخيه المزمجة».

خفف صوته باكراً ما كان مضيقاً: «هذه امرأة الآن الذي لم أتمالك
نفس، أنا الذي أفرغت سلاحي في جوف النذل، ولست بئام على
ذلك». سكته بغير نقرس أسير الماضي في حثالة القهوه التي أمامه
ثم علّق قلائلاً: «حين أظن أنها قربت مقادير بلادي في أول فرصة لا
أعوها إلا لأمر قاهر».

الذي بقبيلتي يبوذلك حسوداً الرواة والطيبة، لا أصدق أنه قمين
بقتل ذليلاً. من الذي لا يثق به ويسلمن إليه؟ تسال بشأن بني برد
مستكراً: أي الرجال المذهب فألكمال لله وجهه. ومع ذلك أشهد لك
أفضل ما وصل علمي، إن الذي كان يبوذلك بقبيلتي مهذب وشهم
وشجاع، عميق القرار يجيش بافكار تسمى للربي بالانتماء وإثراء
وجدانه ومن لا يظلم لنفسه من وراء ذلك كثير. منه الإقتبح به وحتى
تباين طريقنا، لم يتكشّف لي بعد عيزري به في شيء. «مخبر»، المجاهدة
الجزائرية التي ظلت تستخدم فترة سفاري بالجزائر وهي أفضل من
الخدم - ما برحت ترد لي في أسي وتحسر: «الناس الملاح كلهم تحت
الأرض ما يفي فوها من كثير. لا ليسوا ملجأ ما بغيره». فهذا الذي
بقبيلتي يبوذلك مثلاً - قاتل القاتل - جديراً بمحبة هو أيضاً، ملك
من الآخرين. ولاكثر من سبب وجنته جديراً باحترام جديراً بمحبة ■

«ويسر القاتل بالقتل». وفي الانتجيل من يرفع السيف بالسيف
الدموع، ومهما كان الأمر فقد صار وهو الذي ليس من طعيه
العنف. ذات يوم أو آخر، وسيلة للقصاص الذي هو هدف العنف. وكما
جاء في القرآن الكريم أيضاً «ومن قتل مظلماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً
فلا يفسد في القتل»، والثورة من بعد، ومن لا ولي له. وإذا كان كلهم
الفيظ والعفو من الناس والأجدة عند الحسن، فالدليل حتى
بدون ذلك، يعني قصاصاً وأجدة بواجدة حسن، ولكلا الحائنين
مسروغ ومزاج. على أن ما حدث، حدث منذ زمن بعيد. وفي رثائل ثورة
كبرى أطلقت من قمم القلاع قرن أو يزيد، ومهوتر حبس ثارات
تعتقت، وانتهزت أرواح مظلم ومهسانات أصمت وأرهقت، أصمت
ليفسلها بالدم النفيس ما يبرسو على مليون شهيد. أقبل على قاتل
القاتل من أين أم قتل بسلفان؟

قالت لي عنه مستقبلي في مطار أولي: سيبتولك عنا في أيامك
الأول وإن تبده إلا خير معين. وأخبرتني مستقبلي في البيوت
(الاستديوي) الذي استوجر لي: «انتظرك حوتلاً وأضرار للذهاب غير
أنه عازمك غداً، حين يجماس - مستكشف بفضلك كم متين هذا
الجناسي». أما صديقي هنري فقد هالفتني من خارج فرنسا
يوصيني: «لا تتردد في الأعصاب عليه متى أحتجت لشيء فهو حميم
ومهميم. وإن يقل عليك، مكذا شوقوني لكأنه بهذا التقريظ وكأنما
باتقنا. وحين التفتيت به يهدمت شخصاً ضعيفاً متعزداً لحد
الاستثناء، وصموتاً مخلوقاً على نفسه دون إعمال لطيفه، لا يتكابر
ولا متصغر، ويشيع الثقة به فيمن حوله. ويحدثه خلال لقرتي الأولى
بالعاصمة الفرنسية. وكما قيل لي: خير رليف يومين قاتل القاتل هذا.
سألت يوماً ونحن بمقهى المفضل بيبي سان جرمان، قل لي، هل
شاركت في الثورة الجزائرية؟ أجاب كالمزيم: «كل جزائري سيمزيم كل
الآن أنه اشترك فيها إن لم تكن قامت على كتيهه». وبعد منهية
إستفراق مرأسه نالياً ليقول بصوته المتهم الخفيض: «لا، كنت في
الواقع في سن لا تسمح بمشاركة ذات جدوى لي فيها. أدركت
للثورة وهي في آخرياتها وعلى عتبة الاستقلال. هذا ما كان». ووصف
رشفة من لهيته المركزة ثم انطلق في قوبته كالمتعاد، لا يطل منها ثانية
ولا إن يحلّه جلبيته حذراً. أقول:

«لا أكره في بعض ما أظن في نهضة من نهضة تلك الأيام
الغالية: ولا إصراري ما تبسر. حثق مالي أمامي في الفجنان الخالي
إلا من الظل، ثم أخذ يتكلم بصوت خافت وكأنه أصبح يتحسس أثر
جرح قديم:

«بعد انهيار الدولة الفرنسية في الجزائر توليتنا نحن الضميمة مهام
الحراسة لحفظ الأمن. فقد صار على الثورة المنتصرة لتوها، أن تكبح
ما استطاعت عنان قووي عاترة أنطلقت لحسابها في كل مكان
وأن كان ذلك أحياناً كثيرة باسم الثورة: في إحدى الثورات وأنا أطوف
سيرة الأمن مع زميل في صولنا معتقلاً حتم ندداً من المتعاونين مع
العدو وينتظار أن يبت في مصيرهم. وادعيتهم اندفع أحدهم ويتشبث
بي في لطف مستعظمي بعلاقة زعم أنه لي يقيم منها وإن لم يتذكر
جهته. يستبذل بدائرتي لتسقيف لفرامك من ذوي قرابته أو
طبيعتنا فالوجه غير غريب علي. يتجاذبي بعشم فيه كرامة واستماتة.
عشي الأخرى كاستجداء الظلال الغير المتواصل اللطف للملاحق
الذي لا يعرف العيب أو العضة أو اللبس، يعاول شدتي إستشفاف
أثر في ملاصحي ينجذ ذاكثرة أو يبيهره استجابة عني لركبته، بينما
كنت أصدّه وأردّه، متخفراً أن يفر من أمامي. طلبت من زيملي ألا يابه
له وأن يصبر».

«أبدي زيملي إستفراجه من أصرار الرجل على ادعائه وتكراني له في
حدة غضب مكثوم، حين حسبت أننا صرنا بمعودة كافي بحيث لن
يكون الرجل في متناول زيملي الذي أعرف فيه روحته فيؤنيه، ربيته له
حقيقة الأمر.

«كنت وقتها صديقاً صغراً أحمل الطعام لجاحدين محققين في صفيا
سري في وسط الد العقول المجاورة. إستوفيتني في الطريق ذرية
عسكرية عليها أمر فرنسي، وتصدى لي من بينها أحد أبناء بلادي
يستطاني أن كنت أحمل ذلك الطعام. وكما إزدادت شففاً وإتطافاً،
أصمت الرجل لي صفعي ولكمي، ولطمي وركلي، وكأنه فقد صوابه كلية.
كانت صنعته لتقدني سمعي، لا، بل كانت لفظته انتهائية تققدني
حياتي نفسها لولا أن انتهزها ألف مرتبة بالوقوف حيث لا غفلة في
الاستمرار. تركوني ملقى على الأرض بين ألوت والصياة وانصرفوا.

... فهاذا قصد محمد بذلك الدرس المذهل البلاخ الفذ الذي صدم مشاعر زمره من اصحابه؟ في تقديرى قصد - بين اعتبارات اخرى - تعليم امته احترام الشبيبة واحترام المعمرين. فلا ينبغي لعدالة السن وحدها ان تنكر على شاب نصيبه من الرشيد، او المصاحبة للمسؤولية، او الاهلية للقيادة.

عبد الله بن جعفر الطيار وان ضمت من الكهول امثال ابي نادر: وراه او امرت على صفاً للرايين له. - كما اورد الوافدي في مفتوح الشام، فقام هذا الشيوخ والفتيان بن عبد الله الرشيد. الشبيبة: ما للفرابة، وهذا هو الاسكتندر الاكبر، تتلمذ ما بين الثالثة والسادسة عشرة سنة. وارضوا فلذا به بعد قليل يخالف المعلم الاول، رايه في كيفية معاملة اليونان للشعوب المخفضة وكان راي التعليم الارجح. وحين بلغ العشرين او كاد، اجتمع على الاعمال له كافة القوا. لا جامع من حزم ومكة ونهابة ومهابة. حتى لقد اعترف احدهم يله حين من يشتمل له بعد مكانة انتابته نفس التضمير كما لو في حقته. وفي سنواته القليلة جندل ذلك الشاب المملك جمعا حتى ولج مهجة الهند. وحين مات في استهلاله لثلاثين، خلف وراءه الفضى الهليني ممتدا ما بين بوايه فرقل حتى النجاش. احراج هذه الفكر وامثالها في خاطري، حوار اوردته صحيفة «السياسة» السويدانية بعنوان دافعا مع اصغر رئيس اتحاد مدرسي. واليك: «الطالب كان يبلغ من العمر ١٦ عاماً، باصم الاول الثانوي. تم ترقيته مؤخرا رئيساً لاتحاد مدرسي شبكات الثنتية بنين، الذي يضم ٢٤ عضواً يهتفون لفصول المدرسة المختلفة، والسياسة» كان هذا الطالب احمد هذا العوار. سؤال: هل ربحتم نفسك لانتخابات الاتحاد؟ - لا، ولكن شخصي زلزالني في الفصل اولاً، ثم رأى الاعضاء الذين تم اختيارهم ممثلين للفصول ترشيحي رئيساً للاتحاد، وفعلاً فزت بعد اجراء التصويت.

سؤال: هل تؤمن باشتغال الطالب بالسياسة؟

- لا بد للطالب ان يدرك العمل السياسي مبكراً، وبخاصة ونحن في وطن يؤمن بالنظام السياسي الديمقراطي. أما فلذا، فلكي يدرك الطالب ما يحيط ببلاده من مشاكل وقضايا، ومعرفة دوره الذي يسوقه في حياض امكاته. هكذا لم يقل انه يؤمن باشتغال الطالب بالسياسة ولا العكس، إنما استخدم الفعل بهدوء، فتمتن. سؤال: ما هو الدور الحقيقي للاتحاد المدرسي في نظرك؟ - متفهم جميع الطلاب بعد المدرسة لاتجاه الاموال الخاصة بالانشطات المختلفة، وبالمشاركة الفعالة في تطوير وطني مدرسيهم شكلاً وسهوى في كل النواحي الثقافية والاجتماعية والرياضية. يحاصر الصحفي: انن ان الدور السياسي للاتحاد؟

ينقادى الاجابة المبشرة مرة اخرى ويد ببالغة نضج: «انا لا ازيد ابداً أسلوب تحرش الاتحاد بالمسؤولين تجاه الازمات التي تمر بها، ولكن هذا لا يعني صمت الطلاب عما يجري، وعليهم في هذه الحالة التمعن عن آرائهم بصورة حضارية تمكنهم وفي الطلاب.

يستعوض اهم مشاريع دورية اتحاديهم التي يترأسها ولا تخرج من نشاط تدريبي نافع يؤكد انه سيتم في اطار اشرف ادارة المدرسة ويتبنى الحوار بكلية اخوة منه؛ ولا يعني لطلبة الطلاب ادراك دورهم الالتزام واتجاههم. ولا شك ومع اغباء ومفسوس ومفسوس ومفسوس استقبل، ولهم بالحصر على التسليم بالمعلم، وقديماً قيل: المعلم يرفع بيتاً لا عتاده، والمعلم يهدم بيت الغز والشراف، انتهى. احسنت يا بني ويؤكد انه الله والذرة. حاول مستقلاً ان تتبع نصح معلم اللغة العربية بتجنب حشره بين بين المضاعف والمضاعف ليه ولو بالمعلم، رغم شيوخ مثل هذا الحشر الآن بتأثير لغات اجنبية او توفيراً للطاقات.

ناشئة اليوم قادة غد وعاملات. ومقدار ايمانهم بان التصديق والتصدق دافعهما للخدمة لا الولوجة او الاستعراض، واداء امانة لا اشياء ذات او جنى ثمرات، وبمدي تعليمهم بروج عالية للانتقاد والمحاسبة والمناقشة والنصر والهزيمة، وبامكاننا الاطمئنان على معافاة العمل العام على ايديهم ومن صلب الوطن. ان اتزان اجابات الابن احمد التميم بعد مضي ما نأى عن غرور، وما تأير على التعلم لا سيما من الخطا، على ما قدم الامم على ما تونه واحسن التمتع. ما يتوقف دائماً لمعيب ذاته ومصلحت لادته، وما تروى على الحقيقة والنفع والمصلحة. فلن فعله هو وجبلي في اليأس العربي، كانوا جديريين بالاحترام. ويديرون هم دائماً بالخدمة ■

يجعل مستنكراً: كيف يبي احترام من لم يصل بعد سن الرشيد! اسأله بدوري: وهل الرشيد من ليس دون ومبوهله رشد! لا ما تواضع عليه المشعرون جميعاً للاحكام وحكاما واعلام وان كان اعتباراً ثم لم للاحترام عر ليس قبل بلوفه احترام بتاتا! ما لعلنا نخلط ما بين الاحترام من جهة والاحكام والتبجيل من جهة اخرى؟ ولكي يتضح باكثر ما عنيه يتكلم «احترام» هنا، علينا مضاهاتها بالحدى نقائضها ونلقل للاهتاهل. فغندت تعني ادراك ما في شخص (او شيء - ص ٢٤) من قيمة متبيدة او كائنة والاعتراف بذلك مع حرص عليها وتوقره لها.

بذلك يتجاوز مفهوم «الاحترام» في هذا السياق، مجرد مراعاة متبادلة من امري لآخر فقط لان مرأى الشمس ليله، وان كان ذلك من صميم تربيتنا الدينية بلا تكران. (وبلا تكران تصعب ايضاً كلمة «توقر» من صفاته الشيخ لا حلم بعده). ولكن في جميع الحالات، لا ينبغي الخططين «الاحترام» ودلالات التبجيل عنه، كالخطابة بالقلب والتعليم لجميع التعليم، او كالاتهام والقعود والقيام، او كتحفيظ الروض والالهام (او العكس) وما اليه من رموز النظام والاحترام على غرار الاعاجم التي وباستخدامها في غرض موضعها او لغير مستحقها - ان كان لها - يبلقظ فوراً الى بهزاة ومهزاة. صي بهذا لا تاري جدالة السن في ذاتها جرحيها حدث جله في احترام - ناهيك عن امتنعه.

احترام لا ينبغي قصره على فئة معينة مثل ذلك الذي «ارثي الحكم صبيانه» على أنه نبي. او على وارث النبوة والوفاة كالمصبي القليلي الذي متى بلغ العظام تفر له الجبابير سلجدين - يحق او مبالغة. او على العجيبة القابلة كموثا الذي بدأ في الخامسة تثلثاته الموسيقية (بخصوصها موجودة) وليما بعد العشرة مطولاته المركبة بموهبة غالت في الكبر. ولكن لكل ناشئ فتيان عهده ابيه على استحسان ذلك الاحترام، حيث بإمكاننا نظام تروبي مستطيل للقران ومفجر للمراهب ويستعمل لتفجور الشخصية على اتم ما يكون الاثراء والابداء. تعويد ناشئ القفاين ذاك (والفتيات - ص ٢٤) الرشيد قبل بلوغ العلم. انشينا مثلاً احبوة غلام الزعيم مع امر المؤمنين وكثير اشباهها في التراث العربي والعالمي. ثم ماذا كانت علي سن عهده، حين سبق والاسلام يتأشع؟ او اشير الى سن محمد، نفسه يتخالف بالعلم مع الكهول في بيت ابن جدعان خضية سائل: ومن احسن تاديبه؟ والصحبي نفسه لا اسأل كم كان مجموع سني «ابن مريم» من المذود حين اصليط بما غير بها أسلوب صنع التفرج البشري الى يومنا هذا ولن يشاكسني في هذا الزعم تسليط المادي للثاني يا اخاه!

كان «انقاذ جيش اسلمة» اولي المجهلات الكبرى والمصلحة التي خاضتها ابدان ابي بكر العفيدة فور وفاة مؤسس العقيدة. فقد رأى المصلطي في سائق حكمته عبد لواء جيش من جل مصابيته السابقين، يطلاق الرزم في تخويق للمصلطين، لشباب لم يبلغ تمام العشرين يا للصب! لذلك حين اسلمت خليفته ذاك بعنان فرس «اسلمة» يعفر بالقدوم مصوبا بالامر والشاب منيف عليه من الصهوة - لا الخليفة قابل لنفسه الركوب ولا لذلك الشاب النزل - ربما قصد ايضاً ان يجسد بعد ويؤكد، والجيش يرمي من خلفهم يشاهد، الدرس الذي اراد تلقينه لاهته القادة القائد الذي اختار ذلك الشاب للامارة في «اليد».

استاذان الخليفة - ولم يأمر - الامر الشاب اغفاء «مصر وعي» له بالخدمة الشجورى حيث حتى هما كانا ضموطين باخرة «اسلمة». فهاذا قصد محمد بذلك الدرس المذهل البلاخ الفذ الذي صدم مشاعر زمره من اصحابه؟ في تقديرى قصد، بين اعتبارات اخرى - تعليم امته احترام الشبيبة واحترام المعمرين. فلا ينبغي لعدالة السن وحدها ان تنكر على شاب نصيبه من الرشيد، او المصاحبة للمسؤولية، او الاهلية للقيادة، ما كان بذلك جديراً تماماً. وللأسف، لا يزال في أمة ذلك اليوم العظمين حيثي بيتنا من يقنع هذا الدرس الحكيم - آخر مدرسه - معلماً كمن انكر ان ذاك امارة «اسلمة» ومن قبله امارة ابيه. ولكن قارن هؤلاء بخالد يؤكد لابي عبيدة الذي يحدث به لاجناد قوة محاصرة في «ابي القيس» على رأسها شاب ايضاً هو

...التي نظرت الأخيرة على خطابه بحرفوه الكبيرة المشهقة...
 في خطبه كثير من شخصيته، اطوى خطابه، أعيد كتابته...
 حيث كمنه بين كتيبي، استحضرت طيف صلحهم عليه الرحمة
 وأقول: جزاك الله يا صلاح عثمان هاشم عن الفكر الغربي وعن
 المعاصرة خيرا، ايها الخلد في اعماله...

في الأصل الروسي..

طالب الحقيقة - يا زك الله - لا يستكبرون قط عن طلب الرأي
 من محبيه قمتا ببدء رأي قد يزيد من جلالها وبهايتها. ولكن
 طبع رأيي في هذه المسألة - دونما غمط للنفس - نطق منه بالبرص
 على الخلد القديم - أصلاً وثلاً - أضخ في الحقيقة ان يستلحق
 من ليس هذا مجاله مثلي، الاستفادة، باكثر من ابداء الاعجاب به
 والاعتراف بالاستفاع والاستعانة، تاركاً الحكم المذوق فيه (ان ابدى
 احكاماً) للعالم المتحرر والتائد المستبصر، غير انه تصد طموح وبهوى
 اغنى به المكتبة العربية، فلقم الزئباق بالجلس الوطني للثقافة
 والفنون والآداب بطلب التقدير اعزائيته له.
 لم أجد في الاوصاف التي جعلت من القول به في تسجيح المخطوطة التي دفع
 بها الي مكتبي الخواص الجود وانما قد يغتبط من جديد حرصه على
 التوحيد والاصحاح وما افادته الكمال. ولقد ذكرت له رأيي هذا وانما اعيد
 له المخطوطة الصحيحة على مجتنح السرعة، كان عنوانها «الضلال
 الشرقي الاسريفي في المصور الوسيطة المبكرة وعلاقاتها بالجزيرة
 العربية» للمستشرق الروسي «كوبيشانوف». يصف في اعمدة هذا
 الكتاب بكثرة «ابوسع حبال» الذي يخطي الشمال الشرقي لافريقيا
 وادي النيل والرافلة، وخاصة الحبشة والنوبة، اخضع الى ذلك انه
 واسع في نظريته التفرعية التي توشك ان تكون على الغرار التوتيني.
 كتبها بالفرنسية: الا توتيني.

عشني ان يجد هذا الكتاب من اكثر من جهة لكاديمية وسواها
 وبخاصة في السودان، احتضناً لا نقاداً مقدماً ودراسة جادة.
 اما كتابتي الاولي: «تريستان في القطع العربي الى الفوق المغلوي»
 من تاليف الصلاة فاسيلي فلاذيريفوتش بارثولد فقد توشك
 اللجنة الوطنية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر على الهجري
 بالكثير فلها الشكر والتقدير. يقول المترجم في تقديمه: «عنه امر
 الاولي التي يظهر فيها هذا الاثر العام في لغة الضاد، ذلك بعد مضي
 ما يقرب من ثلاثة ارباع القرن على ظهور الاصل الروسي له، وتبع
 معرفتي بالكتاب الى ان يزيد على الثلاثين عاماً، قرأت للمرة الاولي في
 ترجمته الطويلة، وخلال القمم بموسكو، ومن اعصبت اللغة
 الروسية طرح سلسلي يوتي، قرأت للمرة الثانية في اصله الروسي.
 وقرأت الى جانبه اكثر ما دونه براء ذلك العلامة اكبر الذي يعد بحق
 المورخ الاولي لاسيا الوسطى الاسلامية، وهنا اخذت تتطور لي فكرة
 نقله الى اللغة العربية، وحقني في ذلك عدد من الاصدقاء والزملاء
 لخص منهم الدكتور يحيى الخشاب، عالم الاثريات المصري،
 وقد جعلت الطبيعة الوسيطة الجديدة في الاساس لترجمتي.
 فنقلتها نقلاً دقيقاً وأميناً الى لغتنا العربية، وشملت ذلك بان راجعت
 ترجمتي هذه في ترجمة الانكليزية التي ظهرت في عام ١٩٧٨،
 والتي اشرف على اعدادها المؤلف نفسه. ثم راجعت من الترجمة في
 المصادر الاسلامية التي استلقي منها المؤلف مادته، وعرضت المسودة
 فقرأها قراءة دقيقة أميناً وأجريت فيها قلماً بالتصحيح والتوضيح
 ومن اسلوبها وحقني على توضيح الجوانب الغامضة حتى يكون
 الكتاب سهل التناول على القارئ العام. ولم يفتني ذلك ان اضيف
 بعض التعليقات والتفصيلات من المؤرخين المسلمين، بل في اثني
 استدركت ما فات على القارئين اللغويين من مراجع من الاشارة
 بوجه خاص الى الطبقات والعربية الحديثة، ولعل ما يسر
 في نقل الكتاب الى العربية ايماني الى جانب الطبقات بالغات
 الفارسية والتركية والمغولية، وسيتبين للقارئ خلال مطالعته للكتاب
 اعتماد العلامة الروسي على المصادر المدونة بهاته اللغات اعتماداً
 اساسياً، خاصة في الفصول الاخيرة من مصنفه.

التي نظرت الأخيرة على خطابه بحرفوه الكبيرة المشهقة، كما لو معلم
 يكتب في سيرة لفتائش، في خطه كثير من شخصيته، اطوى خطابه.
 أعيد كتابته الى حين كانا بين كتيبي، استحضرت طيف صلحهم عليه
 الرحمة. نقلت في جوازي الحية والافترام والحسرة في فرصة
 ضاعت قلبي، لم تكدهم قلبي حيايته، لم تعرف لفرصة حتى معروضة، بل
 وكان بعضهم لسانه اليه من وراء العظماء لفرحة لو حسدا، انحصر
 فوق كل شيء على السودان الذي يتحجر على لم راسه قاده لا يفران
 التاريخ. وليس لديهم اي حق حقيقي بالتاريخ. ولا يتعلمون حتى
 لمصاحبتهم الاثنتاين دروس التاريخ، وكثيراً ما يكون المشرق على الثقافة
 والعلم والقرار فيه - على ما يحمل من لقب عربي - اجولة مطبوع
 المعصرة مطبوعه السيرة. فأقول لطيف صلاح عثمان هاشم في
 عليك، جزاك الله عن الفكر الغربي وعن المعرفة خيراً ايها الخلد في
 اعماله، انما الميت ميت الاحياء ■

لئن انتهي لبيت له مكانته في السودان لمواقفه في خدمة التعليم
 والفتاء وشقيقه الشرعي والمدني ولشراكه شخصيات منه في
 الازهر الفكري والحيثان الاجتماعي منذ اوائل العشرينات، فما
 كان ازهد صلاح عثمان هاشم في الاستعانة من اهله ذراعاً يتوكأ
 عليها على حين يملك قريلاً، بل لقد قل لي يخطو على لثقل السوداني
 السائر البزواي ما جذات (الى الفتاح غير قول) محكمة اضافية.
 حيث صامتاً اجزل عطاه، وصامتاً ترك دنياها وراءه.

تخرجت بخصوص اساسي في الجغرافية (اساسي)، القول، فلا
 تخطيني يا اخا العرب في اللغة براح، ولكن جباه الله بموعبة فذة في
 النطاق اللغات حتى لقد استدرجه مساقيل قول نوشجون - وليس تهنة
 الذات - لساريتي ذات مرة وفي مرج معروضة بما يتوف على تسع
 لغات، ما بين الملم كالف واجادة تأمة. ومن تلك التي اجادها تماماً لغة
 الروس. وما خصصتها بالتعيين إلا لان اعماله الكثيرة حتى الآن
 نال منها.

ما تمتد لقاماتها المرات المعنويات. كان يقتنذ سعيراً للسودان
 بباريس ومنها الى طهران قبيل الاطاحة بالشاء، بعد ذلك ترك الخدمة
 الدبلوماسية ليستقر في واشنطن مركزاً بقاءه حيث لعل للعمل الفكري
 الذي اجتذبه، يتروى على مكتبة الكونغرس يستعملونها لوالاي في
 استجلاء ما يتروى ترجمته من مستطيل عويس ومقتطع

في تلك الاوقات وجدت بوزاني شخصاً بسيطاً ومتسطحاً ولكن
 باهر الحضور، لا متصدر ولا متفكر ولكن على ثقة باللفظ، شديداً
 رصفاه بموهبهم المشتركة واحاديثهم السليمة ولكن في انشغال بما
 يزعم من تسمل ولا اكتشافهم، جدير بسمو مهنة، وطموح غايته،
 اقرب ما يكون الى جيل يتوهمه رأيي دانياً، حتى اذا حسب انه يلقاه،
 ظل الجبل على حالتيه دنواً وبعداً.

ثم لم انتقم منه تعلم لميل لسعي في الفشاة بغير امل - امامي -
 الصلة الخاطئة منه لي إلا ان يتعريض لطريقه اليه كالتعريض
 للفرصة، على كان مبتغاي غيرة. فذكرني بقضاء حق كان الاوجب
 بي فضاؤه وصحبه حي بثلثي مستوجب. كان كما يشي من حين الى
 حين على بعض ما ينشر في هذه الصفحة، وله ثناء اغراق لا ثناء
 استحساناً؛ ثم داهمته الفرية كان على امية الذهاب الى مكتبة
 الكونغرس لواصله مسعاه الشريف، لهوى على الارض شديداً ما بين
 الحسب والقراسل. وهكذا انقلب من اهل كتيبه على الى رثاء له. ولا
 اسلم ان يجد في يده (الى صارت سيماوية - اسفاه - انشغال
 لمره في بواره الخاص من المكتبات والتخصص والتفتت عن المعالي،
 بعد سابق شيمته في الجاهلية والتنازل في عمل الغير ومن
 المبادرات) ان يجد منصفاً شاكراً او فيداً ذاكرة ليليه حقه. بحسب
 هذه الكلمة ان، ان تكون تفكيراً عابراً بفعله، فلتقرأ معاً خطبه ذاك
 الذي لفر لحكمة صباح اليوم بين يدي، حيث الخطب هو هو أو جزءه
 مهم منه، يقول:

لعلك تتسائل ما الذي يحمل رجلاً لم تتسم بينه وبينك لفرص
 اللقاء الطويل والتعرف عن كثب حتى يكتلك بهذه الهمة. غير ان الذي
 حملني على ذلك هو ان الوطائين في اهل الفكر والاب اقوى بكثير من
 الوطائين الاخرى التي بين الناس. فكتبت اتمنى لو سعتك الفرصة
 لتعمل بقلك السويل في مرداتي حتى تقوم معيها وتسهل وبعها.
 فان رأتك لك الفرصة لا اخلها الاسترسل لك، فارجو ان تكتب لي على
 جناح السرعة لارسل لك بالكراسات. كما امل ان لا تفضي رجائي هذا
 وان تعتبره ديناً في عتق نعو الفكر العربي ونحو المعرفة عامة.
 ولخص المهمة المطلوبة مني بان المترجم يحتاج الى التخلص من
 سيطرة المؤلف الذي نقل عنه، فليس هناك خير من عرضها على
 شخص لا ليست له معرفة بالاصل فيعمل على تصحيح المتن
 وبصافته من جديد ما يمكن، ويضيء مكتوبه متفتني في ان ادوم
 مفكراً واديباً... وصحاحاً.

ابسم للآمنية الاخيرة حين له استبطانات لكاهية خيبة كماء
 التبر، هناك وليست هناك، وكما تفتيا، فقد رأت في الاخرة وكذلك
 توصيته في، لما طرا لك ان تدع في ترواة الترواة فلا باس ان
 تأخذنا منك على ان تكون اليك من حبل الترواة.

في خطابه نسخة من آخر ترجمة نشرت له وهي «العرب على
 الحدود بين ميزنسطة وايران من القرن الرابع الى القرن الخامس
 الميلادي». اللغة المسترشقة منها فيكونتاً فيليبسناكس، ونقله الى
 العربية، يشرح في اعمدة الكتاب في كونه يربلي النصوص على القرون
 السابعة للاسلام بمنطقة القاراني، وبهذا يوضح كثيراً من الاطر
 التي ظهر فيها الاسلام. ويهتم كثيراً ان اعرف رأيي في الكتاب وفي
 الترجمة وفيما زودته به شخصياً من تعليقات واضافت غير موجودة

عوض الحب وإحلام التناجخ الخاصة، وعوض التمتع بالصبا
البهيح وهناية جسد غش يتناضج في عصفوان، لم تدر كارمن
راسها بعيداً عن شعبيها المقموع، وعن أطفال وطنها المرأة
الجوعى، الذين من أجلهم فقدت جمالها الطبيعي فازدادت في
نظراً لأجل ذلك جمالاً، وستكون بلا شك أجمل بكثير في عيون
أولئك الصغار حين يكبرون...

وبما كان على الرأس شئ...

فالذي قدم للأطفال خبراً وبين

أودعوه خفية مثل لوبومبا،

حفرة شقروا لها قلب الولد.

هل تذكره سلفادور الليندي المحتضن ورفاقته مستقبلاً حتى
الموت عند بوابة قصر الرئاسة - لا دفاعاً عن القصر أو الرئاسة، ولكن
عن حرمة الدستور، وشرف الوطن، وحبيب الأطفال الذين في نمته؟
كذلك كارمن، نشأت تحب أطفال الذين منحهم الفخز واللين، ولكن
صاروا بعد اغتيالهم يموتون عراة بالجويع، صاروا من بعده يتامى،
فقدوا قلب سلفادور الليندي... صراخهم الحنون.

خاطبتهم أمها صبيحة اليوم الأول للاضراب العام في الثاني من
يولييه ١٩٨٦ وهي خارجة للاشتراك فيه: «كوني على حذري يا كارمن، لا
أريد أن يصيبك مكروه». أجابته «إذا حدث لي شيء يا أماء فسوف
أموت مفتوحة فداء أطفال يموتون جوعاً... قل لي، ألم يلم ذلك الشريف
العربي وقد رأى الأم اليائسة تجمع في طرلهما ما تسقط من أعمال.
الرباب على التراب كي تطعم صغراتها من جوع، فأنزل لها «انت
وامشالك توردننا حنولاً». ومن لحقتك عزم على الفروج، وخرج.
وقلت: هكذا.

في الطريق مع رفيقتها في ذلك الحين العمالي وجدوا أنفسهم فجأة في
واجهة جنود على وجوههم الللاء الأسود، وفي أيديهم الرشيشات. لم
يكتسروا حينئذ للفرقة بل استسكروا حينئذ ذات الثمانين عشر ربيعاً،
الطالبات بالنسبة الأولى بكلية الهندسة، ومعهما زميلها «دوريفو»
ورؤساء، الذي يكرهها بعام، صارتين فيهما: «أفهم انتم الطلبة الذين
تثرونون الشعب، فتشوهن، يهوهن لهما بضعة أسئلة، أخذوا يكتلون
لها الكلمات كيلا، وبعد ذلك أجبروها على الجلو على الركتين ثم
أفرغوا عليهما وقود سيارات، واشعلوا فيهما النار.

ما كانت تفسد السمعة اللينة، حتى ربي الجف، في
التمساعنة منها الأنيقة غلظتين وقذروا بها في شائعة انتشرت في
طريق المطار. وهناك في إحدى الحفر ومعهما صبيغتهما قضي عليهما.
معبجة ظل فيهما رفق، جرا جسديهما جراً في شبه غيبوبة حتى موضع
بناء مقرية حيث استدعى العمال الشريك. وإذا من ساعة ولم تظهر
سيارة الاستدعاء، أوكلت الشرطة سيارة خاصة محلتهما لاثرب عيادة،
ومنها بعد ساعات نللا لتستشفى لكبر ما لبث أن مات فيه «دوريفو»
بعد أربعة أيام. مات «دوريفو».

طار إخصائى الحروق الكبرى بجامعة هارلر بعد احتجاجات
الجالية التشيلية في الولايات المتحدة بصفوفها إلى العاصمة
«سنتياغو»، وهناك نجح في إدخال كارمن مستشفى «التراباخادور»
حين سمع لوالدتها برزوتها بعد مرور سبعة أيام على حدوث الاعتداء،
لم تر الأم اسمها منى محققاً في المسائل، بعد وجه لسمع على رأس
منفتح ويحد منتهم مقترى. تمت الأم أن لو أراج الرب ابتنتا من ومن
عذابها المتأني فأخذها إليه. غير أن صوت ابتنتا جاعها في ومن
خوفت: «فيليني يا أماء، ساعدني للبيت سريعاً، فينبأ على فمة الرأس
حيث أوقعت أفل، تهاشم لتفسيها يا الله! أحييت أن تأخذها إليك
فأذا هي راغبة في الحياة، أحياناً حتى البقاء في الحياة بطولة بذاته.
عزى المئات التبرع بدمائهم وجلوهم لطفلة التي سببت منذ
الغداة الفارعة الفتاة ذات الشعر المتناجر الفاهم، التي ظلت منذ
صباها الباكريدي اعتصاماً فريداً بالفرقا والسكان، بقلب ذيوب رقة
بالأطفال الباكريدي اعتصاماً فريداً بالفرقا والسكان، بقلب ذيوب رقة
يموتون جوعاً، أو عن تكبيرهم الأوفاء، أو عن حكم الإعدام الفوري على
مئات المعارضين السياسيين لطفان «بينوشيه»، قاتل ذلك الأربل
الأنشب النيل الذي قرر حكومتهم منذ يومها الأول توزيع الحليب
على الأطفال دون مقابل، ولهذا حين نادى التحالف الوطني بالاضراب
الذي شل العاصمة، اندفعت كارمن ورفقتها ملين الدماء، وكان ما

كان من أرباب وانتقال بالذهب. «هم على ما يفعلون بالمؤمنين شهداء».
تمكنت الجالية الشيلية بمونتريال من إحصاء كارمن العلاج في
كتدا. وفي المطار وقف مئات المستقبلين لها ولعائلتها في صف شرف
وانطلقت التحنن بالتمسيد الوطني الشيلي. ما أريد الوطن وما أفرقه!
يا الله! كم تحملت في صمت نيل وصبر جميل وتجد صامد، بتغير
ضداداتها الكثر وجلساتها العلاجية المرفقة، وكم تاملت يوماً بعد
يوم لتعلم كيف تقدر على الأكل وحدها، أو السير لأول مرة حتى غرفة
العلاج بالأشعة، فقد كانت سالفاها ضامرتين ضموراً مفرغاً. ثم كانت
بازاء امتحان رهيب آخر، إذ كانت مشوقة تشهدها فوق كل رجاء، لذا
حين وقعت عيناها على شباعتها في المرأة للمرة الأولى، انفجرت جامحة
بالبكاء، عاتبتها أمها: «ألا تذكرين يا كارمن قبل مفادرتك المخاطرة
فوك في أنك تغيلين الموت من أجل قضيتك؟»، وبالرغم من تقاطر
الدموع الحارة الحارقة هزت كارمن رأسها بالأيام. وفي اليوم الثاني
استمادت سكينة تماماً.

التشويشات، والجلد المشدود حدث حتى ليكاد يتحرق، والأصعب
المعوج، والذراع المقنولة والكفف المائل، ولوجاع أوجاع أوجاع بلا
أمر، في كل مكان، في كل وقت، في أي وضع تتخذ، ومن غادرت
المستشفى لشقة فيها عائلتها، ظلت ترتدي حلة مطاطية ذات ضفط
عال، وترتدي في الليل على وجهها قناعاً واقياً.

بعد مدة عادت إلى وطنها حين زارها «البابا»، كانت تتلقى التهديد
تلق التهديد من مجهولين بما أجبرها على تغيير محل إقامتها مراراً.
ولكن أينما تعرف عليها مواطنوها كانوا يبدسون في راحتها بدايا
وتصاعقت خروشوا عليها في جمل كلمات، وفي يوم الاعتقال بالبابا
في الملب الوطني، صقلت لها الألفوف المحتشمة صرارة، أحاطها
الصبر الأعظم بذراعيه وهي تقول له: «أبني القديس، أعرافني
الجند». وهو يرد «أعرف يا بنتي، لقد قاسيت كثيراً». ضامد العالم
بأسره هذا المشهد المؤثر.

رغم الامعان في التفتي في حواره في طابور الخصمية مشعل
الحريق فيها، الملازم فيلندينز ديتوس، تعرضت عليه لحظة عاونتها
بجلاء تام فطاعة امتحانه الجهني لها، في ذلك الضمى الكابوس،
تكن عدالة المحكمة العسكرية (قل في أي قانون بهؤلاء الناس!)
لم تر له جرماً أكثر من عدم اسمف شخص في حالة خطر...
وبس!... فقط لا غير... هكذا!

ظلت ما بين صليبة جراحية والأخرى، تتلق مؤتمرات في أوروبا
وأمريكا الشمالية عما جرى لها ويوجري في وطنها، وبعد العودة لورد
انتهاه فدائيتها، أما في العاصمة الشيلية فقد لوبن الاعالي جدارية
ضخمة في نفس المكان الذي أحرق فيه «دوريفو» و«كارمن»، كلما
محاضا الجند، البلاط، الأبيش أعاد الناس رسمها، ولدى الجدار
توضع دائماً أزارهم وصلبان وصائد، تذكى لجميع الشهداء ونحية
لشجاعة كارمن.

تقول كارمن: «أنني مصممة على الاستمرار في كل شيء ضد
وتفاني لكي يصر أطفال غدا من عنتي الغدرة، من عنتي صبيحة
«المصقلة» الكندية بمونتريال «أن كارمن في تحملها للحياة رغمًا عما
تقاسيه، في تيفانها التجرد الذي ابتكب فيها، ولا يكليده العديد من
مواطنيها، وهي رمز شعبي شامد في سيربات حريته».

عوض الحب وإحلام التناجخ الخاصة، ويعرض التمتع بالصبا
البهيح وهناية جسد غش يتناضج في عصفوان، لم تدر كارمن راسها
بعيداً عن شعبيها المقموع، وعن أطفال وطنها المرأة الجوعى، الذين
من أجلهم فقدت جمالها الطبيعي فازدادت في نظراً لأجل ذلك جمالاً.
وستكون بلا شك أجمل بكثير في عيون أولئك الصغار حين يكبرون
فيعرفون كم أحبتهم بحق كارمن، حتى علفت الموت ترافقه على وجه
الحريق، حريق وقوده كيانها الصارخ بالألم المحض. ويتبقى الشرب
التي في بدنها وفي ذاكرتها شائعة على ما بقيت كارمن ■

بسلام السودان افسحوا له ودفعوا في محرابه السوساني
عنه القبر شهادة باللغة العربية. لم تدرك كم كان احمد عظيماً،
تجسس على الصليبيين، كان احمد عظيماً بحق، وشريفاً بحق، وكان حبه
الاكبر للسودان، لا تدعوا شبيبة بلاده ينسأه. اقول لها: هذا دين
له علينا، لن نقصّر في ادائه.

ان يكن يعلم السودان، لغتنا به وبغناه في مقابر المسلمين واقماً على
القبر شامداً باللغة العربية. لا تدري كم كان احمد عظيماً، كان
صديقاً لشخصيات كبرى، صديق شوان لابي بهيرو، وبه
تعددهم، لا استبعد، فقد كان احمد من قادة حركة السلام العالمية،
حركة التضامن بين شعوب العالم، تهش، كان احمد عظيماً بحق،
وشريفاً بحق، وكان حبه الاكبر للسودان، لا تدعوا شبيبة بلاده تنسأه
اقول لها هذا دين له علينا ان نقصر في ادائه.

كان احمد يكتب بوقوع صديق صريح، في جريدة والصراخ
التي كانت مدرسة لوجهها في طريقة طرحها للتضاميات الوطنية
واستنهاضها الجري للشعب للاطاحة بالحكم الاجنبي في السودان
وكان احمد من وكلاء الصراخ، كما كانوا يسعون انفسهم للتقاة،
كان معلماً سرعان ما تحول الى محترف ثوري في عطية - المنية
العملية وقاعدة الحركة الثقلانية. كان مؤسساً لاتحاد الشباب وقادراً
ليلة الصعود السمة باستايليفراد في نادي الخريجين بام درمان في
عام ١٩٤٨. وكان خطيب المناير والخطوب وصيد سمجون الاستعمار
مؤلف ديوان «قائلي كراع»، بعد الاصول الفارغ ذو الشعر الجبل
والاستقامة الواضحة التي تكاد تجمي بالفضل، والذي تراه دائماً
يعتني بهندامه حتى لو لم يكن يملك سوى الذي على جسمه. احمد
الذي يناقش بقوة عارضة ومثاقفة علم وفخارة علم ونصاحة بيان،
الذي لو شاء ان يكون في الواجهة الاجتماعية لكان، حيث لم يجرع
الذكاء، ولا فاته التعليم، بل امتاز بالوقوة والمزايا الشخصية ولكن
اغترار الطريق اليه طريق الحقيقة والتقصية وضمة اليه
والمسؤولين، وراهم كذلك اخطا ام اصاب.

لهاري كل طعناً من ليلي وما ذكرت حتى الآن وانا اجهرش صامداً
لهم من دورج عن بلده اين كنتم حين حمل احمد علم السودان
على كتفيه، وفخر قديمه وتأسيسه، وتصب عرقاً وراح وهو يتكلم
التضاميات باسماحة جود كرام، وجددهما باردة، ولكن احمد الذي
حلاصته من قبل بلده وتكلم في الحارة بر صماتها ولحم عجيبتها.
رفع ان يرفح في ارض بلاده التي احبها يشفق لعمه بأنه لا يملك
فيها شبراً واحداً، ولا يملك شبراً من ارض السودان، الذي يعلم علم
اليقين انه يملك فيه شيئاً مما نسجه بيديه ونور عينيه لصحة او سدا
قال في مائة: لا تتفكر في ارض السودان، ولكن كذاوني يعلم
السودان. له ثراء حوله معه عن السودان، الاستعمار، بيقية ما اقبل
معه من دروهمات، لم ترى ارتجلته له ارتجالاً زوجته الاسترالية.
ولكنه علم السودان على اي حال.

ولن اكف عن الكفاة حتى آخر يوم، كلما ذكرت احمد.
قلت زوجته الاسترالية: استودعني احمد اوراقه، ساحاول
نشرها. وقال زوجته ربيع الله: هناك مطبوعات اجازتان، الاولى من
مسنكة احمد التضاميات من التيل الخالد الى سور الصين العظيم،
ان لم اخطيء، والا فلا مسلمو الصين، حاضرمهم ومستقبلهم. وقال
من اوراقه باللغة الفارسية يتوقع صديق صريح، واضماره ورائه
ايضا ترجماته، وقال احمد شرقي:
خبروا، اما مدوا جنازهم، ولا

منا على اوطانهم محبوب

من بعد ما رفع البهاء مشيد

ولكن شر بالبلاد اريد

يتجاوزون الى الحياة الجيدة

لم يطالبوا اجر الجهاد زيدا

يا شبيبة بلاده لا تنسوا احمد، لقد احبكم الصديق الصريح
ان تولدوا، احبكم وراكم وبقاً حراً مجيداً، ثم ضرب المثل للارواح
شجاعة الراي، وبالدفاع القصد، والديار عما تراءى في
الحق، وباليمن واليمن والشعب، وبالقائلي العزيز كان صديق
وصديقك احمد محمد خير رجلاً جديراً بالحب جديراً بالاحترام

خطاب يصلي منه بعد فترة اكثر من عشرين سنة يقول فيه:
وقابلت زوجتي الحالية في بكن حيث كانت مبعوثاً من حكومتها
الاسترالية لتعليم الصينيين لغة الانكليز، وارتاحنا هناك قبل سنة
اعوام. وعند الفراق مع زلاتنا الصينيين ليلناهم على الخدود، معتقن
لهم كل خير وصانعي في مسيرتهم الجديدة نحو «البيت الابيض»
ومثال الحرية، ولم يكنوا راضين. وقد شد من اربنا في اتخاذ هذا
الموقف ما رضعناه من لين صاف طاهر من شدي روح التفكير المستقل،
وكسب العيش - تحت اقصى الظروف - من عرق الجبين حتى يبرجه
مفريات لا صبر لها ولا عد. انتهى بي اللطاف - حتى الآن - في
استراليا بعد ان هجرت الصين في ١٩٨٢ بسبب غيتي الشديدة على
حركة التمرد الوطني، ويطلب مني ان ازيكه بحكم علاقتي الجيدة
للبيوم السابع.

ترك «احمد» وضعه المريح الزليج في الصين ليلته وراه خبره
اليومي في استراليا، التي فضيلتها في عينه انها لا تضع على وجهها
قناع المضيلة الاشتراكية زوراً، بينما تسعى لتقيضها. ثم ما هو
يطلب ان ازيكه للبيوم السابع، هو الذي كان كاتباً رسمياً مرموقاً حين
بدأت انا الكتابة، وكان لهم ان اخول ان اسمي استاذي... هي
صديقي الفنان الخطاط عثمان واقع الله على الطرف الاخر من
الخط بلندن، يصف في لويحتين اهدهما لي كهدية منه ومحبته، وإذا به
يخرج انا ثلاثة اهدما لصديقنا احمد محمد خير باستراليا، وعثمان
يبدد في تطهيره للابواب المرفوعة «ويلقا القريب في البلد النازح ماذا
يتلسم صنيعة». يا لولاه عثمان وشغافتي تلسم. اخبرته بخطاب
«احمد» وتقصيري في الرد، وسألني ان اطلع انه مصاب ببعض
خشب. ذكرت، قلت سمعت وصديقنا احمد شامداً من يحاول حذف
الحضور الغدري لاسري، ويصاحبه حذف وجهه الفعلي بفعل او
افتراء. اما تشككي المتتي بغته حياً من قبل؟

اكثبت احد خطاباً طويلاً ل احمد فوراً، اقول فيه شيك لا يزال
محاجة اليك. يحتاج منك ان تسجل له ما عشت من تاريخه الجيد.
ان تسجل له حشايدك من تلك الحقبة. ان تقصص له تجربة جوك
وخبرائك ككاشد مناضل. يحتاج لشعرك المتحد، لتجربة البليغ،
لصراحتك الشجاعة، لامانتك الشفافة، لثالك الريح. وكان في ظني
انني سأسعده وسألهنك تلك الكلمات الصادقة التي بعض ما
يستحق من انصاف وتقدير تماماً كما اسعدت. بمشاه شاعره في
اعناقنا دين كبير هو محمد كمال عبد الحليم، احد الله في عصره
واستزادنا من عطائه الرائع. صبيحة اليوم التالي اوردت القرص بآرهم
الذي زودنيه اخي عثمان في المدينة الاسترالية التي بها احمد. فارق
القرص ثمر ساعات، فبني ايقظته من نومه عزيزة فسيفسر بصوتي
لا شك. صوت امرأة لهاها زوجها التي عشاها: «لا فلان. صديق
لاحمد في باريس هل في ان اكلكه ان منة صمت، ثم كمن
يقتزع سهما من خاضته ثالث بمشقة، احمد مات وبغناه قبل خمسة
ايام تهش طويلاً، وانا اضبط على نواجدي احوال التمسك وقد
بيت البياض. تستعيد جاشها معتقدة، وبين الاجهشة والاخرى
توضع:

«اصداقاه في الكونيت اودوا وباسل بطاقة سفر للسودان ولكن
احمد رفض الصودة اليه او الدفن فيه، قال لا معنى لذلك. احمد
قصدني كملها في حلقى غصة. اما كتب احمد في خطابه «عندما
يلفتنا انباء وانتفاضة الشوارع التي اطاحت بالقمري، عدت كما
تعود الطيور عادة لا يكرها». حاولت اسداه النصيح لركاب سفينة لم
يكونوا ملاكاً وان كانوا على ظهرها ويريدون «دفنتها». ولم يكن على
شخصي غير البلاغ المبين. ثم رجعت الى اليابس وكثت الطارد
المحاولات، وظلال الامل بكل الوسائل. ثم عدت مع زوجتي مرة اخرى
في نهاية سبتمبر من العام الماضي، اتحسس دربي في الظلام، بحثاً عن
اي شيء استند اليه، ولكن اري اليه الاشعل حتى هو. ثقاب واحد
يضيء موقفاً لقدمي.

تستأنف الاسترالية المخلصة ولا يمكنك ان تدرك مقدار حب
احمد للسودان. احمد لم يكف لسانه عن شكر السودان حتى توفى
لسانه كلية عن القول. احضر احمد الا يدفن في السودان ولكنه اوصى

بـلى. ذهب وفي عهده دماء شهداء كلما تأودت أعقاب فرجة
تستعصبة ذكروهم وتغنى بهم. ولكن شمعهم ارسله صديق عن
أيمان ما توهم فأنصاع للحق في استنكافه للحق. السبلطة. كما
قبل - ففسد، والسبلطة السبلطة ففسد أفساداً مطلقاً، ولكنه لم
يكن فاسداً...

استشاعى للجرم، سرتي ان القائد عمل بما أوصيت به،
الفرح يعلو فسلمت لتوجيه من مؤس كربة. بسرد ذكرايت في غفوة
وسبلطة جمة وأنا استألت نفسي: هذا الرجل الطيب القلب هو ديبكتورتا،
للسائق الذي كنت أصعب عليه غضبي، قبل ان تفرغ من الشربة للجماع
التي يشرق بها قلب الشمس مائة، ان الفصحى حين النصر، فإذا به يقول
بأنه سبلطة الدائمة ما كنت أحسبها لا يورثوني لهذا الحد. لن أبقي
بالقوة، وروا توثيقا لتسليم لم يكابر ولم يستعير، له من يقول الأستاذ
الصمودي في «الوحدات» ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧م جميع الانتماء العربية سلطت
بانتفاضة عسكرية لا أنوس وليبارها بانتفاضة نظامهم «فصائريين» والى حد
ما متشابهين، لكنه يستعرض بعض ما لا يليق به من مقله، جهلا او
تجاهلاً.

لعلني انصصت ما سبق لزعم من الإصفاة، فإذا يوحد منهم سبائتي،
الم يصك نفا مقله من جعفر كرا؟ قلت: وما مقله من جعفر كرا! الم
عبد الرأفة، هكذا:

تذكر حين امر وكبير أسكان الشمرى بأن يخلي كل من واقع عليه غضب
سيده، المسكن وكبير لاهل الرضا في ظرف أربعة وعشرين ساعة والاد
أخلاء غوة. كان من سبلطه عليه الوزير جعفر خيت، سبوت انتقامه الحاد
مجفركا، وكمل زيارته القوية السبانية، وهو المعروف بكلمات واستنكاف
وسبيلقة الوطنية. فإذا به يجد نفسه بعد أربعة وعشرين ساعة بالقبض

ورعه اثنا عشر تحت حوزة ربه من الفأرج.
تتألم المواطنين القليل الضل، ويرجع كثرين لغيره ماوسع مناسخه
ولكن دون الدل الذي يريده، وهذا يمكن أن يقال بأنه أكله كذا كذا،
لم ألح القصير الذي لا يخليه يورث ويضد يده في حرارة يقول له محتانه
الشمرى سامي ما يخلي، وعلى أبل ردي في بقعة الفصحى للشارج ان
يحتاج لشره الشالي قبل ستة أشهر فعليه به ان حين انتهاء مدته،

لتنقش جرحه في عناه وكبراه وفي ويشركه بأنه لا يخل بمسكن لا
يدفع له مستطمة. جعله الرجل الضل، ولكنني رأيت أبني لم أجبه باحثاً
في مستطهر. لم تكن ذلك ان أجعل ذلك السبب حاداً يخليه ويغي، ان لم يكن
يريدك غير ان شجاعته والرفع ما لا يهوي به فمشهد، وكان ذلك.

قبل انتماء الأشهر السنت، كان طارق الباب دعوية لا كان يصك
فرحة كمدات وهو يقول: «لا تشعل النار بالبحث عن كبر، جددت لك
مقله لعمري. ان يحتاج لدار ذك قبل ذلك، فليقل سطناً. وأضاف صديقي:

تصوروا
لم استعير، وقيل ان اعقب اهله في سؤاله: لو حلت الفاروق؟ وكأنني
ذلك السامع. أجبني: لا ففاروق؟ كبريم سمي يوسف عزيز قدم أرباباً لئلا،
أية مقلية؟

الم يكن جعفر كرا رئيس جمعية البعثات التي استتبعته وفجرت
للمقاومة الميكروتية العسكرية، ونصحت البعثات الدمشقية الضل، وشعبت
للفطرات العامة عهد الشوادة، ودماعته حتى انتصرت وانزاح ذلك العهد
ثم لم يكن «أبراهيم عويد» هذا، هو نفسه راس ذلك الحكم العسكري الذي
أناخته الانتفاضة بخلقت رئيساً «أبراهيم بازة الأفر»
بل، فسلطت. الرجل وقهره، ان شاء ان يهز مشهوداً به في رجائه
لفظ. وما عاها في موقف آخر، حيث لا يلزم من كان خاسراً أمام الأخر على
اليد عليه الا ان كان خاسراً بحق، تصديه وشخصيه. ان كان كذا - بيوتان
تماماً عن صلبان

صمم الرجل بما حدث كلفه، هل ان حدث له كان قاهره بالاسم، أقوا
يوقى معه حتى مره يجلجل. لم يجله هذا شخصياً جعفر صراع لا
يبدون بين الأشخاص، بل يجلل كاهله بأن ما حدث لفاضل لا يعنى من قريب
او بعيد. ناهيك عن اداء شامة. كان كان يكلفه شامة او التي هي
الضل ما يسبقه باندان من مقله. لا، بل اقلت الشبهة والوجه في
جوانحه لمألف نفسه بما لا يلائق. ناهيك عن عرواده الضعيفة والمجذبة، ربوا
من فخرهم مشهود، وهو من عزاه عن غفوة قلبي لا يعرف التناقض والوجد، ربوا
عمل ينال طابعه قوسه فاستجوبه وتصدي يصلح بما في روعه من حسنى،
مستفكراً من زمن سابق مقله الضل.

قلت للسلط: مثل ياسر، وديس للسلط. معادن محددا فيها، وما على
منصف الا وسبلطه لا حجة. فاجيب الرجل وسعد ثناء من والاه ومن
عزاه عن العوا، وبخاصة من عاده ام، وذلك، حتى بعد زوال الشبهة والسنسنة
والسلطان، بخاصة بعد زوالها. كان جم السبلطة، جم التواضع، جم
الباشاعة، لا يتصرفن سامياً وتهمهم لا يستعصم انيس من طبعه.

بلى، ذهب وفي عهده دماء شهداء كلما تأودت أعقاب فرجة
تستعصبة تغنى بهم، ولكن شمعهم ارسله صديق عن أيمان ما توهم ما
توهمه ان كان يصعب على لأخذ بامرهم حتى حين ان سبوت ما توهم
لفصاع للحق في استنكافه للحق. السبلطة كما قبل. ففسد، والسبلطة السبلطة
تفسد أفساداً مطلقاً، ولكنه لم يكن فاسداً. ومن ذلك، جعل ملكا
الأخلاق. وكان له لاهل ملكا أخلاقاً - بأن لم يكن لتقصه لعبة السبلطة
التي سبق اليها سبوتاً تمنع على من لم يستطع - حق في مقيتنا، وجدارة
بلمتراسنا، عن غله لنا أجمعين»

كان نظام الفريق إبراهيم عويد في السودان (١٩٥٨ - ١٩٦٤)
«ديكتاتورية عسكرية» بالغاير التي تضبط هذا المصلح. بل كان
واضح السبلة الانتقالية. رأي ان يسر بالأده والأمر كما يسر النطو به
الجم. واتخذ خلال ذلك قرارات بالخاصة او التي لن حاول القيام بمعين ما
في قاده ذلك النظام، ولين حاول قضايت من الدنيين، مقلتا تصرف دوين
الرجوع الى شعب بلاده بتراث أجيال لم تله. وهكذا بين الدعاء والمناصح
لنفسه بالاستمرار شأنه في ديكتاتورية ناهيك عن أمور أخرى، ويل لشعب
بلا ذاكرة. ويل لشعب بلا باصحة.

أما الرجل نفسه، فقد عرف عنه خلوه من شهوة الحكم التي تحفز
الديكتاتور. وربما كان هذا منطق الحالة التي داهم بيتي وبين
شقيقي الأكبر الذي عمل مع المصري في فترة الازال، ونحن نقارن بين
الرجلين. فقد كان الشمرى هل خلافا ذلك، شكس الاطلاق في غير وقار او
تؤجل. لا يدلع به الشمرى الى استيعاب الا احساس بزياة، ولا يوحشه من
بقي وفاروا الأجن. حكى لي شقيقي هذه الحالة عن «عويد»:

في الافتتاح الرسمي لأول محطة توليد كهربائية القيت في السودان،
تحتن ان اتولى طرح جواربهما الفنية حيث كنت مسؤولاً عن
تصديدها. فأتى الفريق عويد، وشيخه الأبراهيم ميلانسي لطيف
بهما الحلة ومن خلفنا رجال الحكم من عسكريين ومدنيين يهابون الدهيين
الكبار ورجال الإعلام والحاشية والعريس. تغثر الشمرى في نفسه لمفسدته
بيدي، فإذا هو يتفوهني من ساعدي ليصالي في النصير ربوا للنس:
«اتعلب يا أبني ما الذي تشيقي هذا؟ اتعرف ماذا يعني هذا؟ لم أهر
جواباً، فإذا به يكتلم لي الذي يتفوهني بيده في غير ومقله جعلي، مكل فؤاد.

كل هذه الموقاة والبهلية دون مقله.
أما عن غير منظمه فلم الفصح ان لم أفرق. ومنه على الأطلعة بنفوذ
سنوات. وذات يوم كنت احد فيه رجلاً من سواكن، ومن مؤسسي نهضتها
المصرية في الأخر الموضات ومن الأروم سفتل البيوتاني، إذا به فريه
ديكتاتورية، السابقي. لو كان يماكني ان استعير فللا مقله، ولكن كبريه
والرجلان الكبريان قد ولما سلفاً ويحاربان في بشافة. لو وصل علم ما كنت
عنه ان الرجل الذي اصاب، ولو كان يتذكر كل كلمة في له تكن تدور على
اسابيره غير أبله حاشية وأشراحة مثقفة.

بعد الجاسات استألف عويد، سابق حديث قلته مقدمي، ذكرايت في
ليبيا إيمان الحرب العالمية الثانية. كانت للكتاب السودانية إجماعها في
الاستماع الحشوية مقلها في الصعارة اللربية. واعترافاً بدورها خصها
الأبراهيم وهو يدل على الصعارة بالده المستعدة حديثاً يعطيه رجال المقلية
العربية، بأن تجمي، تأليه لوكية الشخصي مقلية، كما كلف ذلك الجهة
التكبيرية كتاباً بعنوان «الحسين واليهام»، لا يزال السودانيين على
اليوم، يرددون اغاني تلك الحرب من الذين (فتشوا بكبره وباهين - را الله)
وكيف ان (عكفرة، تزيها في جهنم) وما كلفوا يعون الفصحيد والافتزاز
والذكرى، ان هذا الرجل الضلر الجلس اصابي وأناشله من ذلك الرجل من
السبلط الاثبات ومن كان معهم من جنوه قلمى بالفتوح كانوا له الحشم
فهم.

ليبيا، آنذاك دون نطق، فإذا أضفت الدرة والللاه في الحرب، كانت بلاد
خشب. ولا كانت لدى القوات السودانية ما يتوارف عادة المقاتلين من مؤس
وسواد غذائية عزيزة، فقد قام السودانيين الحاربون بما رأى الواجب
الطبيعي نحو ديوهم (ان ديوان) وأكراب بايل على السنة الثلاث، للساع
محمود ابو بكر الذي كان مع القوات السودانية للثابة للجيش الثامن في
ليبيا وسبلطة اشادة بالتواؤم الذي روي بينهم وبين كرام القوم آنذاك.
حرص الفريق «عويد» على التأكيد على قيام السودانيين بحق الزروة على
أفهم هناك، كالتكيد وضمان عن الشكس حتى يبل نوره نفسه من شمشة.
ثم ذكر كيف بل يتورع الحاربون الأفريون (من مفه وجنود الأفريين
نيوزيلنديين وسواهم من ذلك الخليل الأتي من المستعمرات والتكويونيات)
ان اظهار تشوهم لدشول المدن الليبية الأويشكة السيفوف وفضاء مولات
ببيجس، كما سامني فراضون انفسهم على في مدينة مفتوحة وتكافؤهم
بالأغصاء مع برتگريون انداهم من الانتصاف لاه عويد، «وأدغم الصرمان
المنص بمصافرة الموت في مصراع قلعة ليس هيات غير الاغلام من تحت،
والقتال والرياحات من فوق، تملأ. على أتنا - المقاتلين السودانيين - وقلنا
لهم براري ورياحات مقلية طعمهم بأعلى صوت - الصالحين المكل المصين - بأن
من يسر بسبب مواطنة ليبيا او مواطنة ليبيا حشونه رصاصاً لا تمنحنا
الحاقية. بل لم سعد عزيمتنا لدعوا انفسهم من كثر، ما الفرق بين من
يشرق ويغاري ومن في «دربان»؟ يسأل ويظفر ذلك، فكان في عيني.
بضيق. وكان الاتكالي لاتصاف بضيق ان اعتباراً خاصاً، لاتصنيف
عسكريتنا ولواتنا الحسن، ولا يعرفونه جيداً من خلافتنا. لا نفعل ما يفضي
احداً، والويل من يغفل ما يفضي. لهذا أبكل ان القائد كل ما يتعلق
بالمواطنين الليبيين. ذات يوم كلمني بالفتح في جرمه انكناهم عامل متعلق
ليبيا صدموه وقذفوه في قلب الفرح النتائج ما خرج منه. قال
الجاني ان حبل احتفاله انتفخ حين سب له مفهوه الاجنبي بيده، فكل
شيء الا هذا! شرحت دوافع الرجل وأوصيت باعتبارها بشدة والرافة به، رغم

... وأبانت بإحدى الأمسيات في الفندق الضخم حفل عرس كبير. وأبانت شوعية المحتفلين من طبقة الموسرين المحظوظين وقيل لي أن أولئك ممن لهم جاه ومكانة في رحاب الثورة، تعجبت من هذه الاشتراكية التي تحرّك الشباب والأطفال دون ماوى ودون رزق، وتبيح الدعارة والهوى وتدخل الرعب في قلوب الناس البسطاء...

وبصوابه العديدة. ولكن عبر ستة أيام بكافأها أعجبت واستمتعت بحديث واحد يجلس في مقعد السودان. شاب في عمر ابني سامي. صال وجال في القاعة بصوت رصين تحدث بلم وعسرة وأدب. تعرّفت عليه لأعجائي به. وشعرت بالفخر والاعتزاز إذ علمت أنه دبلوماسي سوداني يعمل في سفارة السودان بإديس أبابا واسمه نجيب الخير، والله يعلم. جال فكري في الماضي والحاضر والمستقبل للسودان المنكوب الذي انهكه الضياع. وقلت وأنا أقلب في سريدي بغرفة الفندق في ساعات الصباح الأولى: أن مستقبل السودان في خير وإمان أن كان فيه من أمثال نجيب الخير. وسياخذ الله بيد السودان واهله الطيبين. وسيرزق نهاية الخلق المظلم عندما يأتي جيل نجيب الخير إلى مركز الصدارة. حفظك الله يا «نجيب الخير» وحفظ أملاكك كل مرقف من المرافق وفي كل موقع من المواقع. هصاكم الله من حسد العالدين وعيث اللامسولين. نجيب هصاكم ميكوك الواهي الامين ليفض جتبع الحكام بالأيدي. والمستوزين الذين لم يماروا دروس الماضي ولم تفتح عيونهم ويصائرهم مشاكل الحاضر بظلال في عيهم يعمهون.

شارك في الندوة عدد من السودانيين. جاء المهندس «المر» أحمد محمد وكيل وزارة الري ممثلاً للسودان وانتخب بالاجماع ونيساً لهذا التجمع الكبير. فدار دفة المناقشات والمداولات في كفاءة واقتدار التجمع. ونال استحسان وشكر الجميع. وجاء المهندس «نجيب مكرم» وعصام الدين مصطفى، بظلال الجانب السوداني في هيئة مياه النيل وك ساعدت وشجرت بالبراعة والفقر والاطمئنان عندما كتبت استمع اليهما يتحدثان لهذا الجمع الكبير في فهم ومعرفة واتقان عن الجوانب الفنية والقانونية للتعامل بين الدول المطلة على أحواض الأنهار والبحيرات. وكان يجلس بجانبني الزميل والصديق المهندس «الربع عبد السلام» ممثلاً للبنك الإسلامي. وكم صال وجال في القاعة الواسعة وكان عالماً ومعلماً في كل ما تحدث فيه. تذكرت اخوتي وإحبابي وزملائي في وزارة الري من مات منهم إلى رحمة ربه ومن ترك ومن لا يزال باقياً فيها. عصبة من المهندسين والفنيين والعاملين المقتدرين. يد واحدة من الخفر إلى الوزير. يعملون ليلاً ونهاراً في تقاني وإخلاص وكفاءة فائقة بأقدار. وكان التنوير ومن وراءه من الجبهة والحقادين يسعونهم «عصابة الري». نعم. فقد كانوا خطراً كبيراً يهدد الشركات الأجنبية وأصحاب المصالح والطامع ومن خلفهم دول استعمارية ومؤسساتها التجسسية. كلهم متربص بها. وحدث ما حدث لايفاض تنفيذ مشروع الرهد السوداني بجدة أنه مشروع غير مجر وغير واقعي بعد أن فشلوا في أبناف مشروع السوكي المشهور. وكان لهم ما أرادوا. وجاءت الملتقى الكبرى وحدث ما حدث حين ثار الشعب ثورته الجارفة عليهم.

تذكرت كل هذا وأنا بعيد عما يجري في قاعة الاجتماع حتى صحت من أحلامي المزعجة بصوت الدكتور «محمد النيل» ممثل منظمة الصحة العالمية يد في يمينه في الندوة. وكان كثرهوانه مصدر فخر واعتزاز لنا جميعاً. هكذا أصبح السودانيون مشتهين خارج وطنهم. كل ذلك بفضل الانظمة الفاسدة والحكام الجبهة وأصحاب المصالح وفقادي الذمم. بنس الطلاب والمطلوب ■

لذلك تذكر شقيق المهندس «مرتضى» الذي ورد اسمه في مقالتي عن العمال الفصائيين الستة الذين أبدوا تعاوناً مفعماً بالشهامة لانجاز مشروع «السوكي» الزراعي. بحث في بمقالة بعنوان «خطرات مقرب من اديس أبابا». ولما كانت تتعاش وروح المقاتل التي دابت على نشرها في هذه السلسلة، لم أر غشامة في تقديمها لك. وأنا بدوري أشارت كاتبها احتراماً لن ذكر لثقتي بأنه لا غرض له البتة في اللئنا على من ذكر إلا إعطاء كل ذي حق حقه. كتبت المقالة في ١٥/١٠/١٩٨٨ في اديس أبابا علفت لشقيقي هاتقياً ولكنت لن تها اديس أبابا ثانية. أجاب «لا يهمني إن لم افعل»... وإليك خطاوطه يا قارئ الكريم: كنت في اديس أبابا للاشتراك في بحث في ندوة تتعالج مشاكل التمنية في أحواض الأنهار والبحيرات. وكانت زيارتي الأولى لها في عام ١٩٦٩ عندما كنت وزيراً للري. جئتُها بصحبة الزميلين العزيزين «محمد عبدالله نور» وزير الزراعة والسيد «أبيل البر» وزير الاشغال العامة بغرض تحسين العلاقات مع الجارة «إثيوبيا». قابلنا الامبراطور في قصره وجلسنا معه ساعات في حديث شيق. وتقدينا على مائته المتواضعة. وحديثه كثيراً عن أيامي في معدني. وأنا طالب في الابتدائي. وحديثه عن النيل العظيم وحققنا في مياهه وكانت مقابلة ودية. قال لنا فيما قال «أنه واهم من يلن» - أن كان في اديس أبابا أو في الخرطوم - أن هناك من له القدرة والقوة على أن يفرق ما بين الشيعين التوامين. كان نظامه يحكم بالحق السماوي. عاشت من الاستقراطيين والاطاع والأغنياء يتحكمون في الغالبية العظمى من الفلاحين والقرعاء والكادحين.

عدت بعد عشرين عاماً لأديس أبابا التي يحكمها عسكريو إثيوبيا بإسرة الاشتراكية المقتري عليها. وقرأت الشعارات الداعية لوحدة الطبقة العاملة والحرية والديمقراطية وهي تملا الشوارع والميادين. ورأيت تمثالاً ضخماً للنين أمام مبنى اللجنة الاقتصادية لأفريقيا حيث عقدت الندوة. ورأيت كل يوم وكل ليلة مظاهر الحاجة والفقر والعوز. رأيت الأطفال والصبية والشباب وغيرهم يجمعون الشراوع والمجانين ومداخل الفنادق يجسأ عصا يسد لهم حاجة. يعرضون على الزائر الاستمتاع بساعات في مكان قروب حيث الدعارة والهوى. ورأيت في إحدى الامسيات بفندق الهولتون الفخم حفل عرس كبير. ورأيت نوعية المحتفلين من طبقات الموسرين المحظوظين وقيل لي أن أولئك ممن لهم جاه ومكانة في رحاب الثورة، تعجبت من هذه الاشتراكية التي تحرّك الشباب والأطفال دون ماوى ودون رزق، وتبيح الدعارة والهوى، ويتخذ الخوف والرعب في قلوب الناس البسطاء. وقلت لنفسني وأنا اتطلع إلى تمثال «النين»: «والله لوجاه صاحب هذا التمثال وأرى ما رأيت لصمم تمثاله». تذكرت «نميري» واشتراكيته. وتذكرت المدعو ضياء الحق وغيرهما من الجنرالات الذين يحكمون الشعوب المفلوبة على أمرها.

كانت الندوة ملتقى حافلاً لعدد من المتخصصين في تنمية أحواض الأنهار والبحيرات، والعارفين بمشاكلها وقصورها. وتوقفت فيها الكثير من الأفكار والمقترحات والتجارب من افريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية. وصيغت في ختامها العديد من التوصيات البناءة والمفيدة لكل من يريد أن يتصدى للتنمية الريفية. تحدث فيها كبار المتخصصين والباحثين في هذا المجال

... وإنشئت لقيبت من كثيرين بعض خذلان في حياتك، عزرائتي
ولمست في أذنك باسم العرب (ولو من وراء ظهرهم، ولو دون تخويل
منهم، ولو ربما لا يكفي) أن شكرا على ما قدمت لهم علموا به أم لم
يعلموا، حتى ولو لم يكونوا وخدمهم المستعصودين به.

أما سبب معاداة «درايت» هذه للشعوبية، فليقينه بان الصهيونية
تسوة مؤامرة شيوعية، يقين صادر - لا محالة - من الطبع النحوي
الاشتراكي الذي عيّن على الحركة في البداية، بالرغم ما كان من
اصطراع عقيد على ولاه الشغيلة اليهودية بين نزعة الصهيونية
«بالعودة» وحل المشكل اليهودي فلسطينياً، وبين تيار ماركسي يتلمذ
«بالعودة» والعمل من أجل حل الاشتراكي بشغل شغلة شرق أوروبا -
يهودية وغير يهودية - على نحو ما يسطر لنا بخاصة المزارع اليهودي
الاشتراكي «أسحاق ديتريش».

استقبلني ضيفي بجذل واضح، لا ادري هل لفدرة عادية، لم
تلطف لوجوه من الفريق «الأخر» حوله، بما يرضي على مسد
مصاديقه، وبخاصة ازاء شائتيه من غلاة الصهيونية التمسعين.
يقابل جلله ذلك، أحسني بمقارنة المحظور سراً، بما لو اكتشف
حساسة الذمار من الوعدوا الشياهم، سلفوني بالاستتيم. فكان
ساروتني رغبة ملحة في مباحرة صلاته الربية ذاك في أول فرصة تتر
ومضيفاً بعد في وللاخ «العقادة الشاي» في ضافته، وقد قدم بزيوت
له العافية، فظهر كعادتي شخصيات «أسحاق بايل»، أو طيبيز ربه
تتدبر لدور في خيال مؤلفه.

بانتقال الجرائز نسيت، لكي ألحاجا بعد عدة السهر بطلب بطلي
كيف توصل لعضواني بعد جدد. كيف عاينت القلة ولكنكم لم تن
تسلط، كيف الفرحة انتصار العرب في حرب يوم الغفران، حيث كان
حصة طرقاته بما جعل كبريات الصنف كالتبايتور من ربه
- تبسكتي. كيف تراقب الصهيونية المتفلتون مع الله، يري
فلقلوا له تيمس جد بسببها ولتأ حتى تمكّن من بفسها، بعد
استهلاكها بقة يهوديته. لم كيف لا يزال ملابا برلم مكاشم.
وددت مشيداً بصموده وصلادة عزيمته. شاكرًا أن تذكرك، طب
مني بالبرود الآيب السباح له بنشرها، قلت يا حسبه الاعلام القلة
طليت من لا يفعل فلا بد من استئذان حكيوتي. ولكنه كان العرب
الذي اتل اعناق الرجال، خذلت في فمهم جد يسير في العقيدة
لا، بل وتلمعت عليه في يفتلتي حيث أراد أن يجرى خطياً غلباً
الى خبنة اعلامية، وان لا تذكاً لغرض - أن كان شيئاً وندم لئلا
غرضنا، فإنه يستدرج العمالة. لم استبعد احراره في بطورهم
ذلك، ولكنه احترم رغبتي، ربما بقناعة مملطة على ما قد راه حذر ادين
موجب، او حتى جينا بعد ذلانا.

غادرت الجرائز، وفي غمار حربي الضروس مع التمرير وبثله
كان آخر من يضطر في محبيب شرايين، وبمقتضى اديته الثلاثة. ان
فويحت بضميه في «الهيرالد تريبيون» وصفت عربية. فحدثت عليه
بمقدار ذكرياتي مع، وبمحايلة البلاسة صنع المستبد، فذكر
شجاعاً بحق، وسط مهورسين لا يتورعون عن انتقار ليم، مثلاً في
عناد اصحاب البلاسالات، مسخراً امكانات الصوبة كلها في غرض لا
يبرو لنفسه من ثلثاً، مثقالاً رغم كافة المعينات والمواسات. وشا
في تاليف مودة بين العرب واليهود، فلا استجلب له عرب ولا اعتاجل
يهود، اني ان سلفا القلم من اصابعه حين كف قلبه عن التفتت
وعني فكرة متفجرة تقرب بالصعني بين اتباع الديانات الثلاث يهود
طويل اقبل محاسنك جلودري، «الابراهامي» - تدل بعد ذكنا في
سماحة وجدان وسمو عه.

لئن كان ديني: لا ينبغي الحكم على امرء، بمقدار تعلقه في
فعله في الحياة ولكن بمقدار ولعة غايته، فلا عليك اذا ما يسير
شرايين ان تم بعيداً، او مفتقراً، او مستقراً، او نهيت التمرير وفطر
والنبيذ من بعض محاسنك، فالعمل الشريف جزاءه في شرف القسمة
واثن لقيت من كثيرين بعض خذلان في حياتك، عزرائتي انني مست
في اذنك باسم العرب (ولو من وراء ظهرهم، ولو دون تخويل منهم
وما لا يكفي) ان: شكرا على ما قدمت لهم علموا به أم لم يعلموا، حتى
واو لم يكنوا وخدمهم المستعصودين، ان: حتى المستعصودين، لا
شغيفي ليدك انجر يشكرك عزائتي الان وكون من لا يهودك له
فلئن لم تكن بتركت من نوع من يقل سنابل، اما كفها فغفرا انها -
وقاحة الصلف العنصري وكلاحة العنق القاتل - اطلت زمره، وكنت
بذلك جديراً بالبحارم، في وجع عذبات «لا تتر وازنة دون لفرهم
كما جاء في القرآن الكريم... فودعا ايها اليهودي الشجاع» ■

كنت وقتذاك مثلاً للسودان في الامم المتحدة بنيويورك، حين
شدت انتباهي ثغرة وفيها ترموف به: يهودي يولندي هاجر الى
فلسطين عام ١٩٣٩، ليقاديرها، فبور قيام دولة اسرائيل بذت السفاح،
اتال عنها، وبنت السفاح، حلقاً بلي، وبث يسفها بذلك اينما وده
ذكرها، وذلك حين توقف العرب منذ زمن عن استخدام صفة
«المزعموة» التي بدأوا بها، قطعاً من قدرة «الكلمة» وحدها، وبعد
ذاتها، على الغاء الواقع العنيد.

ولكن بقي له ابن فيها لا يول له القتل ضحية لتلهدموي بين عرب
ويهود. فلا سبيل اذن من غير قتال وولم بين المختلطين... لهذا،
اسس «منظمة الاديان الثلاثة» التي يترأسها (ولا اعلم برديف له،
فكأنها هي هي) غير فطن لكون التوايا الحميدة، والوجه الفريدي
الحبيدة، لا تكفي ليرم الاخدود، بل مثل تسخلة ذلك، على ما فيه من
اصالة وبسالة، لا بد نالني اليه كلا الفريقين نظرة سوء، يحسبه
كلهما تشويشاً عليه وتعزيراً للآخر.

على ان جدري ذلك التسلل للقم العربي فوق الجحود. افلا يعلمن
وهو اليهودي - لا يهود - آخر قليل لدفع لفردي بمادة
الناسمية، او يتلبد احساس، على الاقل، حيال اليهود نتيجة جهل
مشين على احسن الفروض بالتاريخ المتساوي للشعب المختار في
زعهم - طمناً لا مؤازرة فيه او مؤازرة - في مشروعية للكيان
الصهيوني؟ جدواه من حيث شغوبه من القليع المنصري المتصعب،
من حيث شهادته الاكثر الانعاز بسبب يهوديته، بغض النظر عن
الداع اليها او المقصود بها، او من اتفاقنا او اختلافنا معه كثر او
قليل. يكفي ان يرد هذا الصوت اليهودي الشجاع مقولة اليهودي
الشجاع الآخر - الفردي ليليتال - بأن: «علم اسرائيل ليس علمي، كي
يصبح ثقلنا المليلب الموضوعي - بل في الحدود الدنيا - للقم
العربي».

بهذه الرؤية، حريت له رسالة تفتي لي، جسارته وسنو سمعاه.
فكان جزائي دعوة قوية لحمل تكريم بنسبة زيارة الدكتور «اسحق
اسرائيل شاهام» لليهودية. اخذتني الدعوة على غرة، وان لم اجعل
فصل «شاهام»، المكالم من أجل هدف يعزز من فكاح الشعب
الفلسطيني، لا سيما بتريق انتهاكات حقوق الانسان الفلسطيني في
وطنه السليب. ولكن كيف لي، مثل دولة عربية، بتعطي المحظور، لماذا
اعتراي بفضل اسرائيل ذيل واحد، ويسر (وما لفلواة من حدود) بانه
اعتراف بإسرائيل ذاتها؟ ومثي ذلك؟ في اوائل السبعينات حين لا فارق
في الحين العربية الماثية، بين اسرائيل واسرائيلي (قتل بين فلسطينيا
لانار مثلاً وغدا ماثية) الا مقدر ما بين عربي وافقي. فلئن لبيت
كلك الدولة، صغر ذلك في نظر الاشياوس حماة الذمار مهني ونواتهم،
لكنه الخائن. لذا تكتيت بحكمة اخوتنا المصريين العتية: ابد من
الشرف والفة. وبدت وعظمت بصيرت زعيم.

كتبت لمحبيب شرايين معتزراً عن حضوري، ولكن بعث له بنصحيي
في تكريم بلش لينة سريق الانسان في اسرائيل، الذي بفضل عناده
ومجاهرته وادبه اكتشف لليوشية انتهاكات جبرام كثر. لا يهود
بالقم ضد قومه الا ذو خلق عظيم. ثم بقيت في نفسي حسرة ان لفتتي
شرف لفاء مكافح له علينا جميل، وكنت بذلك الخاسر لا صراً.

لم يخشيتني شرايين من مفكرته، اوكل بي انا وهو اسمه
«العقادة» ليلفاني بانه طريق الفرائض بيوكة. فكيف انتقاس ان لم اكن
عديم مودة؟ حملت هديتي المتواضعة وقسمت. البويت (الاستنويج
كما يسمىه) جد بسيط ومواقف. على الجدار شعار «منظمة الاديان
الثلاثة» - فلا يحتر بذراعيه على الصليب ونجمة داوود. هان هذا اذن
مرفها السلمي: اكدر اساهير، وثالث عتيق مفير، وعظمة موشية،
ويهودي وحيد يسمل.

ولكنه ايضاً طفر «الدولية العالمية للشعوبية» التي يترأسها كذلك،
ولا اخلاها كونه من اسم وعهي، فيها لثليل محبيب شرايين، صاحب
التراستين. ولكنني حين لحظة فلتنا هذا «المرف» كنت احسب الرجل
يسيب «درايت» الوهمية جد «صنيعة «الي، اي،» ومنها يتسمل.
فأذا به ساروق حين عرفنا بانه مجرد مغال صفر، فلا تسميني احد
كبار بجاللات الاعمال في دول مستورة، فان كان مغالاً، فيقالوات
حكماً بتواضع سكتاه هذه من وزن الريفة، ان كان لها اصلاً يهود.

... كسجاعة اكرام. لم انا ايضا. استمرت تنظر للموت بين عينيه الحمراوين على افضل تقاليد شعبنا العريقة. لا تطرق قطوحي سائره اليه، بخطوات ثابته، وهامة سامة، وابتمساة وثقة، فما كان اصرا بالاستسجاء..

كعداتي ما بين جاد وهازل. ولكن لدمشتي وجدتها تهتف بان ما اصف قريب ما تحسن به. بقيت مدة لا تنصر باستجبال ولا تحول لانقل، ثم استأنشت لانتقل بصديقي الذي اثار انتظاري بعد انصراف ضيفه في حجرة الاستقبال.

وجدته في شبه عفة وكأنه عين تمثال الحجة والوجوم، ينوء تحت وطأة الحنف وفي تستنزل عليه الهوم وان صبره لمحجيب. قلت له: اذهبي ان اكرام لا تعرف حقيقة ما بها، تحسبه مجرد نثرة عاكة ازمنت. جفل وكأنه كان بانتظار فرصة ليفني بسر هائل يملكه واليها. بل هي اشجع من رايته في حياتي، وتعرف تماما ماذا بها. فلقد ارأها الطيب صورة صدرها بالاشعة، فاذا باداء استنصرى كبريا فتمتلي السنته ويظهر شره في كل انحاء. اعدت وصيتها سلا، ويعتد بظلمها الاصفرع من شقيقتها التي في ليبيا حتى يعتاد. لا، مل شجاعته لم ار قطه.

صوبت لها، تمنحني انلما كونه لا تشكو من شيء كبير، وهي قد دعت ظلمها الاصفر الى الابد. ان تراه وان يراها ثانية، فلكننا اقتطعت بيدها فلذة من فؤاده وجات بها. فمن اين لهن انهن كانت الابتسامة الهلابة والسكينة؟ ولقد سافرت اخبتها للبلد عند ذلك ليس بقصر، بل قفص ذباب اسفوسا ولو بظفرة سامة امام عاتديها او ياديه وفي. لا لثبات، ولا للفرقة، ولا لتعمل! اسكها والآخران يا حسن؟ يخبرني تهوتبها اني، والصفية على ايا حال طوع لا تشي. افهمتها لو كانت يفهم ان موضوعا لن يتكرها معها طويلا. لا، لم شجاعته لم ار قطه.

في آخر لقاء بها ثم تلك. كان رونقها على حاله. وجهه كأنه يمشاة خلفي يروح، وصعيا صريح طاهر ينير في رائيته تجلة كأنه مصحف مفتوح. ومع ذلك كانت في اخواتي مراهل مرموها، بل حياتها، سوي انها ممنوعة تترى بالجلل شمرا وسريعا. لم يخطر بباله ان تبادر بسؤال من صحتني يتبعني وصفي وبعلم ان عين صحتنا كانت في تلك اللحظة تدمر في الخط الكبري وفي بذلك عمية. في اليوم التالي، نلت المستنصفي حين عاجلتها اليه دون افعال طويل.

امسكت بصديها صبيح الذكر اقوده بعيدا عن الباكين. سالته هائسا: «اتذكر سيرة تلك الكريمة التي حدثتني عنها من قبل؟» يرد متجسبا: «الذكر». ويومئذ كان يد لم ير وجهه اما قطه، ويسمع فظاكر كلة الاخرى دعة جرت، ويومئذ: «الذكر». ويومئذ كان عليا ان تليل ما اختاره الله لئلا، يرد بعناد وقد انتزع كلة الصفوة من كفي وتولف عن اليسير «أعرف» ولكنني لا اقبل، كان بلا ريب يحس بان غيا. فادعها باني علي لا يمكن قبوله هكذا. لم يتراكم ربه العفوي البري، في سري غصة في الحلق وغمامة في العين فامسكت بكفه ثانية وعدت به من دون قول مزيد.

اصطحب صديقي جثمان تلك التي اختلطتاه المنية في عتولها ليواريه ترى السودان. لم التفت به بعد زمن. حدثتني انها نذ لها وصيتها كما احبت لها ان تلتقي. وراح في يانها صمت على الاطلاق الدنيا الا وقد ابرأت دنسها من كل كبيرة حسبتها كذلك او صغرة، وزعم وطأة الله لم تغفل عما راته حقا عليها. تريد ان تخرج منها ظلمة تماما بكمنا مخلقة في اول مرة.

وكسجاعة اكرام، هذه لم ار انا ايضا. استمرت تنظر للموت بين عينيه الحمراوين على افضل تقاليد شعبنا العريقة، لا تطرق قطوحي سائره اليه بخطوات ثابته، وهامة سامة، وابتمساة وثقة فما كان اصرا بالاستسجاء. كانت تلك هي السقطة القسورية بعينيها سوي كره اسمها لنفسها «اليفين». وفي بسالة تامة اخذت توارى حكم اعدام صدر عليها بلا جريمة، كانت به عمية، تتوقع نزول محسنة على عتقها بين لحظة واخرى، لا يتقلت من بين استناتها الضاغطة على الوجع الهائل لئلا تلك البسمة الصبور الحسور.

هكذا صيرت ليلى الاعلى في التماسك اليقور امام المنية الكاسحة، لم تسمح لنفسها باني تناقض ما بين ايمان ظلت متمسكة باعداها، وامتحان مززع لتجاسر قول عذابه، دون تجزع، دون تمارض، دون ركة، دون ركة لتجاسر، دون ركة، دون سخط على الاقدار، دون وفي. وكالشخص التي كان تغمض عنك عينيك تاكل تترامى ما بين جنفك، خلف اكرام، وهاما نكثري شجاعته نادرة من كونه الاربع الاربع، خلف خظرت لاذكراها الا احصي الهامة نجلة واحتراما ■

في مسابقة لاستحلاب قطرة واحدة لا اكثر، من ليمونة اعترضت تساماً من القشرة القشرة، فبليت جميع محاولات نوري العضلات المفلتة والباس الشديد. حينئذ شق الصوفوف رول نازل كشبح، اعمل بطريقة ما اصعبها المروقتين في القشرتين العنيدتين، فاذا هو يستخرج منهما لا قطرة واحدة ويحسب كالمطلوب، بل قطرتين الواحدة فالأخرى. سئل باندهاش: «الك سحر، ام سر خفي؟» وفعل انس هذا ان جان - قل عليك الامناء مهم بواقعية: «لا هذا ولا ذاك، مجرد مفتش ضرائب يعرف شغله». اذكر سؤال يوم التوفي: «يا بائع الفجل بالمليم واحدة، كم للميل وكم للمجلس البلدي؟» كانت مصلعة الضرائب الى حين تركتها على الاقل، ادارة تموذية يمح. بين بائع الفجل في ذلك لن وضعا تقاليدما الرعية، ومن حافظوا بدهم باخلاص ويصبر على تلك التقاليد، تقاليد في رأسها التعامل ألهم مع دافع الضريبة احتراماً وانصافاً، والتزام صارم بنظم ليس فيها نذرة لفساد. ومن على ذلك انها حظيت بنفر جمع بين الكفاءة العالية والانشياط، وبين السلك الشكور على الصمود في الشخصي والمهني. وانني لاشعر بعمق ان ماتهم ريتا، معبرين افضلهم عن كذب.

وبمن صديقي محسن، جاساً لائم النافضة، واكثر به عقد زملة حلت بالتحاور والود، وبسكحات برية كما في مستهل المقالة. ثم حملتني رواج في مهبها، فدعت بي في البداية خارج وزارة المالية، وفي النهاية خارج السودان نفسه. وخلال تطوالي في الاوقات سمعت انه تزوج. ممن؟ جيبيني محنتي: ممن اكرام بنت مولانا الشيخ يوسف. تلك الفتاة المهدية التي كانت تعمل بالمالية، لا بد انك تذكرها يا اخي وتذكر والدها من بعد دراستنا اليه في ام درمان. طالع بي الزين، ان ذكرت اباما فلا انكرها هي. ولكن ايا كانت، من تستطيع ان تدفع بصديقتنا اصراح الطلق كركاسة في ريفي الى اسرها الجويل. لا بد اننا جعتم من الجاذبية، وقوة العزيمة، وسمو السليما، ما لا سبيل الى التناول عنه، او للتعامل عليه. بعقب: «لكانت وصفتها هي».

فقال لي زين، ورح يا زين، ثم التفتنا من جديد في باريس هذه، واذا بذلك الزواج وقد انسر ردا في رماة السابعة على مخايل النجابة والجرارة. وطأة صغري بعيني، نطقت وليد. فمضيت صديقي اليها فيبادرني منها ادب واحترام. لم يطل مكثها معنا، فانسجمت كما هو احرى باهتمامها. وظل هذا دأبا كلما زرتهم، إلا ان تخلف زوجها لعذر طاريء، وطلب مني الانتظار. عندئذ تستقبلني بعفائها الود، وبعد حين تكتلي لاطلاعي الاكزياء بقضي وقتا حافلا حتى يصل ابوهي. وانحرف، لم تكن اترجم الى انا، فقد كنت. انش حريا دون مواربة بل طغيان التمري، لا يهون عني فيها تسبب حرج لاجد، لا سيما ان كان له وضع رسمي كجديلي.

سالتني سيدة سودانية في باريس متهمني احبانا: «هل زينة اكرام كنتشفي؟» لا، ماذا بهاء؟ فحضت صومتها وما يفرها اذن صافية، كانت تخفي ان يسعها ما يستطع به فقلت بذلك اهتمامه اليها. «الم تستمع اداء العصال»، هكذا لا يسمونه باسمه. وايأ كان تعتم له سواء كان «العصال»، او «الصغير»، او «الفيث»، او «الفتان»، او ببساطة «المريض ذاته». وايأ كان تعقيبها عن ذكره سواء كان نموذج باهر، ان اسأل الله السلامة. - وسعنا وسملنا، في آخره. الم الحقيقة هي ان كل من يقضي بالمره الى موت اكيد وحيث ليس باقل منه، فلماذا الهمس والويل يا اخفاه؟ لا تدري نفس باي ارض تموت، وايضا تكونوا بديركم الموت؟ فلماذا الهمس يا اخفاه، نحن بنو الموتى ما بلنا نخاف ما لا بد من شره.

عندما بيوت ذاته، بعد ذلك قبل استجابات الشفاء وقبل انتكاس بها الداء، ثم زرتهم. فادني صديقي الى غرفة مجاورة وعاد لخصف معه. هناك كانت اخته الكبرى التي استدامها للغة الفارسية وفي قربة الارادة، باصرة الخضور، اطلت اسهامها في الحركة النسوية وشغفتني فمصلحة، وطولت تستمعني رثاءا الشرف الهندي. اما «اكرام» فكانت مستقيمة عظامها على سرير - تذكروا الاكيد للمرض - مستدرة بثوب جرت حتى حنكا. لا تظهر عليها آثار علة. سالتني بطلق من صحتي. اخذت اشكر عقيل نزل حاد من طلعنا صديرة ترمزها اوجاع السكري المعتادة. لعني بالفت في الوصف

تم استنادا مقتصرين حيث اشتد التيهال وقد استبعدت
المخالطة تماما، حتى إذا ثارت الغيابة طلفت القلب، اتهمت أنفسهم:
صديقتي العربي، رب اخ لك لم تلده امك، لكناني واه في عين وطني
بين هؤلاء لا فرق إلا في تفاصيل. ولقد وجدت في أولئك الامجاد
الذين ابتمست لي بهم اكسير ذات يوم، فضلا جديدا سليل فضل
تليد.....

الرسمي - وباشانه له وشغفه به - الى مثل الهواية الخاصة، بعثا
يحول فوايته الخاصة - بأخفا بمبتهى الجد والتمهات والمتابعة -
الى مثل العمل الرسمي. لذا حين اقتضت علينا عاشنا بمنزلة نحلة
ذات ارق، حوامية في لثقي رتانة في نرق، وطناني مستمرضا معرفة
متعمقة بملكة النحل نظاما وسلوكا، مشرا بان العمل الطراز الذي
امانا هو غلة منحلته البنيية. وهو - بالإضافة - صائد صمك له كوخ
لهذا الفرض بجانب مغارة على الشاطئ، دعاني لاقرض فيه الشعر -
او ليهيا. وهكذا تكشفني في هذا «الأكاديمية» الجيد، بهوياتي
المعددة، روح خلاقة نشطة تجمع فيه ما بين الفنان والمثقف، فلما يبدد
الوقت العزيز كمادة معظم العرب فيما لا يفيد.

كرو مغربي يتدفق سليله، يستقر فيه الجود الموهوب، ويسابق فيه
سقاء الاعمال الطليق. هكذا، دون سابق معرفة بي، ودون كثير
احتمال في لقاء آخر إلا ان شاء الله، ودون إتياف بي من وراء ذلك
غير المودة في القريبى، وبغير أروع زهر لا يملك إلا ان يتأرجح، تقطعت دعوى
من الاستلاذ مهدي الدرقاوي، المصمم باكادير. وكان بعض اعداء
ثناؤه على حجاج من بدى تهاور معهما خلال حجة في امر فقهية لا
يخوض فيها إلا أهل الدراسة المتخصصة حتى لقد حسبهم كلاً
فاذا بهم يجلس تجار ماربين، سرتي ترتبط لحب بني قومي للمعزة،
وع ذلك لم يجعل الحاج الدرقاوي شهادته، فلو فعل - لولا تراحمه
سحائرو - لتكهد أيضاً بما رآه وأمد أسلهم من بني قومه من يدا
أولئك علما وأبدا ويليبي معاشرة، ما ذكرني وبارني تلك - قبل أكثر من
ثلاث سنوات - لأكادير، إلا بذكر هذا المثلث الموهب البشري.
وبكأنه الأخوين عبد الحميد وعبد الفتي الكنايني العاميين أيضاً.
ولكأنما أيت «الكبير» إلا ان يزيني كامل ريتنه. من نذكرت من ام
أذكر - وبسبب تزان بقية إلا بأقلامها هذان باهر باهر وبهم
وأكرمهم بي، طاب لنا الانسح حول خزان حالي، فأعزاني تطعيم
بالثروة، حين نصرلها أخذني عبد الله الشويدي برقاً، وأما جعلته
سمكة؟ كيف تشرح لهم «الترا» وكنهم ان يروها يديته، وهكذا
احترامهم لكل اسبوعك لا الترو والحين ما لا تعجب، هكذا بصراحتي
اراني حالي جلياً في لغة تذاور بين الرشاقة واللباقة والذوق السليم
فاذا الفعل غير ان تفجور ضاحكا على غفلتي وبلي سماعتها وأعدي
معي بالضحك، ولكنني لم أشعر بحمجة له وتربى منه ما يكتر مع
شمرت به اعظمتها وبور يهينني، إلا تعاطي في غير علم عن من هو أمام
وان تنة رلة لسان من غير قصد، فلا يجهك مثل من يهدي لك عيشة
والحق، لقد أخذت في سواد التشرني كثير علم من المغاربة، وبسعي في
علم التجوم، اذكرنا اشارة شاعر بدوي سوداني الى بيتية الصومعي،
ولئن قصر شرح الدراسات السودانية بجامعة الخرطوم - ولكل
جهة الخاص - عن تقصير ذلك، ففضل «سوس» وطلعتها باقي على كل
حال.

أما أحمد الشويدي، مخير مدرسة العرفان في «زنان» فقد اراني
من بشاشاته الأولى، وحين أهدى لي حبة مغربية صيفية ذات طصونية
تليق بليلي الوصل في الانلاض، مارس حديقاً فحوى الجملة التراثية:
مواضع عليه خلفة صمك، تشعرك رشاقتة وأطلعه بالقرص الجيد
الذي في طياته، يظلم مني اخذني الى «إعلان» حيث قرأت لكلماته
على غير اللقبي ألحومك الحامج مسعود الدرقاوي الذي تخرجت على
يديه من مدرسة «سوس» بجي، العتيقة، اجبال من حفلة القران
ودارسي علوم العربية والدين، وكان واحداً من علماء «سوس» الذين
أشاد بغضلهم ذلك الفرح لشرفي العارف المنصف.
انتقي في أحمد مكاني في الحافة ويحب لي شطائر الطريق. بدأ ردا
يقطر وهو واضحو عبد الله وأرقان تخته ليوهان في تم اودار
منصرفين عن اشتد التيهال وقد ابتمت السائلة شاملاً، حتى إذا
نات الديار طقت القلب، اتمت لنسبي، صديقتي العربي، رب اخ لك لم
تلده امك، لكناني واه في عين وطني بين هؤلاء لا فرق إلا في تفاصيل
ولقد وجدت في هذين الشقيطين وأولئك الامجاد الذين ابتمست في بهم
أكادير ذات يوم، فضلا جديدا سليل فضل تليد، ويوجدتهم أخوة
جديدين بلصحية جديدين بالاحترام ■

خلال تناول كاتب كبير ابواكم التعليم النظامي في بلاده
السعودية، وعقب تنويعه مسابقة التجوم احمد الطيب
الراكشي، اشد بالور الذي ليع العلماء «الطوره» في نشر العربية
والاسلام، فسرت لارضا فضل لنويع، ثم طلقت أتمال الأوروبية، هذه
الظفر (أي المرسوعة) العجيبة، كيف اجلسنا جميعا في حجرها
الزروم، من المشاركة الى الشقيط، ومن اعالي النبل الى اعالي الفرات،
يكل تنوعنا الفلسفاني البهيج، ورايتها اليوم كالألم الحقيقية في
قصة عدالة سليمان الحكيم، تنازعها حق امويتها «فلانة» الزميمة،
التي لا يبهما ان يشق الرضيع شقن ملأها كما لها بابة حال نصيب.
فاذا ابصر والبصرة مما في ذلك التعريف الربح الخلاق، طيست
العربية لكم لرب ولا أم إنسا في اللسان، فمن تكلمها فهو عربي،
حتى إذا نصبح محمد القرني لثباعه وبصبي من اعاجم وأعاريب، بأن:
وتملوا العربية وعلموها، وجههم في عين الوقت، وهو للتصنف حتى
من نفسه - الى اميرين لا يقل مغزاهما جدارة لمراتهما حق الآخرين،
وبالأحرى لمراتهما الآخرين، أولهما وجوب احترام الفرد لبسان قومه
او كما قال - وبكلمات أرسطو: احترام الفرد للغة أمه هو اساس
الكرامة البشرية). وثانيهما: السعي لتعلم لسان قوم آخرين، حيث
ينفعهم إكتسابي - من تعلم لسان قوم ابن شرمه، وينفعهم
ارتقائي: لتعارفوا - بكل ما تعني - لم لا فضل لعربي على اعجمي.
فاذا بهذا الانقسام الانساني، التمثل في التعريف المصدي
للعروبيتها، يصبح اساس هذه الازمة التي استبدت اشاء الحرق
والصبر الجاهل، بغايا الرضا اللغوي الثقافي، وإغواء التكون
الوجودي المشترك (دون غملا الخصوصيات المنقطة من التباين:
السلامي والجغرافي والتاريخي، بل وبعتي السكاني - لم لا ذلك
مما هو وريث او مكتسب او خاص)، بما صار بيتك في اوصالنا رشة
عشر وحدوي جيلان ان يكون حقا، بكل اعطى لثني، تعريف لا يودج
خلقه جديداً - مثلاً كي يقف مولف سلف العظيم صامعيا عن
خفيته بين حملي قائلًا: «وانا امرق من خير غير منصفنا شطري،
واحبي بشارتي بالمنصل» - حتى ولو نال هذا المعتزة الجديد كل
عروبتي بانتمائي عصامي لاحق، كاستغراب عبد بني المسحاح الذي
كان ينطق العامه هاء وهو من بعد من أشعر شواء القصص، أو
استغراب ذلك المولى البيربري (أو قل «الأماني») الذي احو
اسطره عند بوابة «هزال» مما جعل الارض اليبيرية، تبدي بهرجة
والصبرية - ولا غالب إلا الله. هذا ما اعني بالصبر والبصيرة في ذلك
التعريف السامج، وإني ألاف لا تزال في جالبيته وأقم، كانت
إلخائي الشويدي، وقد شغرت من الانسلاط اليمية.....
كنت انتمق هذه الأفكار العشوائية بظاهري، اتأمل حالنا انا
القديم من بلاد النوبة - رمة الحق - الى نيار «الطوره» الذين كان
لصنامهم بشهادة مزرق مشرفي منصف، ففعل في نشر العروبة
والاسلام وقد نوهض امامي فضيلتها «أكادير» التي استقبلت بلادي
تكية زائها لا كسالة أصابت ايمدين وان استبقوت للمؤازرة في
كأتم قومي، واستنطق الجاهل شاعرنا سودانياً مثلاً على جزائه هو
مفتار محمد مفتار فلان الافتعال الأولى في مسابقة عروبة موضوعها
أكادير، تمثيت ان لو كان هناك سليل بذلك.

فور وصولي الفندق كان يجاني عبد الله الشويدي وبأخفني ولي
الدور سمه. ثم يقول لي: ما لتتدق أن ما تقدم حديثنا من سمك.
من عندنا، وأنا من ريمة أليمية، لاكتشف بعد مفادرتي «أكادير»
مدى مسؤولة عبد الله الشويدي، وبك الفخر «الأكاديمية» للضياف
في الانبعاثات التي حلت بما كان من قبل جسمنا تهاولا لو توكتا عليه
لأنهم.
يلوف بي عبد الله الشويدي خزانة الكتب الثلاثة ليلمة البديعة،
فأرى لمره جده فيها حيث هو مديرها، فراء وفاربات مكبون على
التصنيف لا يفرعن لثقلنا اعينهم ولا شيء مفاسلة. كل شيء
منضد ينسق ويصوبو بنظم: الأرفق، وطبقات الامارة، والمراجع
وواقع الفراء، بل وحتى المصالح الموهب، اهم نفسي: مواهب صالح
بحق، من اخلص لطله، فاجاده، فاضتر به، فاذا هو ويحل عمله

هكذا.. وبون أن انسى مائة أولئك المهندسين السودانيين
أحسني أيضاً هامتي احتراماً لعمل نمساويين ستة.. اتخذوا
قراراً مكان لهم من ورائه أي مكسب سوى امتنان بجيش به
فؤاد تربية سودانية معطاء.. على ضفة النيل الأزرق...

أولئك العمال لا علي.. وهو لا يملك حل حرية فمناخهم فيه ولو لم المستوي
الشخصي.. على أن يماكني إذا شئت مخاطبتهم بنسبي.. لماذا قبلوا طواعية
وعلى مسؤوليتهم الخاصة لا اعتراض للشركة على عتدته.
منهضة تمت قاصداً أعماله الثلاثة تماماً الظهيرة قائفة.
ويجتمعت شبان في مستول عشريناتهم.. شبه عراء.. بعضهم في اغفاد
القيلية.. بعضهم جندلتهم رءاء حر خائق.. نعموا نظراتهم بعقول ظلي في
لا مبالاة.. جلست فوق خضبة يجدها على الأرض في يسط الفلح في حيت
باللانية اعرفهم بنسبي: أنا قان زير الري.. اعتادوا لي جلستهم يدين
تحتي يادوب وإن ظلو على ما كانوا على من سابق ترميتهم.. وانظروا ما أريد
منهم مسترلين..

داعت عليهم ما سبق في قوله ليدوم من الحرب التي اوجعها بسبي
لوز شركتهم البعطاء.. وفيه اقصمت ليدوم من ميرد لائق جنسية زيجي
التي كانت بعض الصلصة موطاة.. شربت لهم المغزي الكبير الذي
تنطبه بانجاز الشروع في موده المجد.. لا سيما لاحقاً بالموسم الزراعي
وما يمنه ذلك لفرقة بلاندا الشابة.. واواطين لا استمتع نوعية حياتهم
كلية ان كنههم من الزراعة الحديثة لاول مرة في نفس عامهم ذلك.
صارحهم أن ان قزمت رغم ما اوصفت كل عدم اليه في التراكيب التي ابد
الانتقام تماماً من الاطفال الجارية لفرمك.. فبدأ حكم القانوني بين مغاز
تارمنه وشان احرار ولا مالة لاحد عليكم في.. ولكنكم تقروهم وانتم في
بصية تامة.. لا عواقبه علينا.. اعطيتهم باله يشتم على لحاق اجتماع
مقر وزاري في التلصة من مساء ذلك اليوم.. ولكنني سارحي.. سري
انتظار لفرامهم حتى السادسة مساء.. وانني تاركهم للتشاور فيما بينهم

اتربط قراهم بالصفة وان اعتاد اهرم..
في الاستراحة الحكيمة بدأت مع مهنيي الشروع انتظاري.. انتظاري
في سبيلنا الستة من الزمن منوط تماماً بكم اعرف او لا من اولئك التلصة
النمساويين.. كنت على تركيب الفصاحات.. عندنا اعدت له بولة لائقة.
تدند من صباب ككي.. وتخطيط السجل.. ومنع قروي.. والتم صائد.. لا
ينقصه غير انجذاب اولئك الأجانب الستة اليه باختيارهم اليه.. هكذا كان
متمكناً جميعاً لاني تراه يهتف ويهتف من وحن في الانتظار.. اكثرت في الوافق
لم يمل من داه.. بل لا تزال تتردد امامنا لم نكمل احصائنا من دخل علينا
أحد اولئك الستة وكان مندوبهم توجه لي بحديث السيد الزوي.. انتهيما
من الانتظار قراهم في صوره الضيافة.. ان تصمد علينا تماماً.. ان من
الصلحة التي تحركت بها قداماً اليه.. تحرك زملائي نحو المجمع.. واعلمهم قد
بداروا العمل سلباً.. ذلك ان تصدروا صلاح فرحتنا ولم تكن الساعة بالكاد
الاربية.

ويبدأ بأحدث استنتاجات الظهيرة بيلانه العميق.. كما تراه.. قل قد
يعني الدائم.. انني ابدأ تلك الخشبة العظيمة.. كل الحقيقة.. ولا شيء.. قد
الحقيقة.. اكتسبت حقاً فقتهم ونزهرتهم.. فضيلاً.. بلد كنت حاضراً معنا
حق الفتحاح.. وبذلك كنت اشداتي بخلل هؤلاء العمال النمساويين
في خشيتي.. وكبريتنا لم بالوسم.. حيث كان تعليمهم الفروي ذلك انهم
الحاسب في انتصاريان في مركبة تشغيل الشروع في وقت المنسب.. لم يكن
بمقدورنا لالاص منهم مكافآت المدة.. او كان هناك وقت لغراء هدايا لهم.
فلكنتنا يجهد اللل وهو غرائنا عارلة بالجميل.. ثم اضاف بلهجة امتزج
فوها الامي.. بجرائه.. بل الاحتراق قائلاً.. روج ذلك... لم تعلم بأن النديري
قل يرفض الامتياز المخرج حتى آخر لحظة منساعاً لم أفر
صدرة على هذا التراجيح الذي لم يبق لي الا هذا العاج مني فجيء..

بلهجة قلت لي هذا القضي يبعث امل شركة (أندريش).. بل اننا في
الحقيقة.. لا اتم.. بل على اكرام العلية.. لقد قدمتم لبلادي.. على نطقها
متكثراً.. بالل ما يمكن من علة.. وباجترام تلم الوعايد التي جعلها.. بل
وهيتم بلهمد مما تعاقفنا عليه.. وهذا كل ما كنت اطمح فيه بل واكثر.
هزني حديث شقيقي اسام كل القضي الرائي التي اكرمه فيه شركة
نمساوية برفانج هوة له وبطبعة اهرم لطله.. محسن.. فقلت:
سأكتب كل ذلك في «الديم السباد».. وفيك تدوير ترجمة له لالائنية على
تنشيره في صحيفة منذ تهرها بمائة ايام العمال الستة.. في كثر حاله من
الاجابة: شركتهم على علم بذلك.. قلت بعدا.. انني منقذ ما اقتوتت على أية
حال.

هكذا.. وبون أن انسى مائة أولئك المهندسين النمساويين خططي
مشروع السويكي الزراعي ومفنديه من الاكل الى الباء.. بما سيطر بيف اليوم
وغدا شامد على كل منهم الطوية وشموخ فزتهم الفنية.. احسني اهرم
واعتاً احتراماً لعمل نمساويين ستة.. اتخذوا قراراً ما هم من
ورائي أي مكسب سوى امتنان بجيش به فؤاد تربية سودانية معطاء على
ضفة النيل الأزرق.. ما تخلصت فيها قدود الزرع الموهي بالبيئة والشاء.
وما دارت بالاه العروق صفحات مشوري السويكي التي تسابق اولئك العلية
الاجابا لشركتيها تحت وطأة حر سوي التي رغبني.. تنشأ من خهم
القانوني من عوبي.. معرضين سلامتهم الشخصية من مقابل.. لولا شهامة
ليست بقاصرة على قوم دين أخرون.. امتنان بجيش به فؤاد السودانين
يعرف كيف يخطو الجمل.

في ساحة ستيبلناتلش في قلب مقيتنا.. اياها شقيقي الاكبر الى
مقي نعمل واجهته الركنية اسم غاشدة.. كاريو.. فديء.. قلاً:
من هذا من أي ماضي النمساوية.. بخلته من قبل بدعوة من معمل شركة
«أندريش» النمساوية التي كانت لها آنذاك اقل كجوى في السودان.. كنت
في ازان وزيرا لفرج.. القضي خطتي هنا استمدم بعد انتهائهم من افتتاح
مشروع السويكي الزراعي.. احسنا انقطعت بالامداد النمساوية التي اعقبت
فشل انقلاب ماشم الاعمال وانقطاع ما بيني وبين النمري للابد..
حين علمت شركة «أندريش» وبديءي هنا.. كانت معتمداً بان يعاول
جهده كرومي عيشي.. زارني لهذا الغرض.. فاعلمنا من كل ما اقترحه
للتقدي بظلم عيشي.. صارم بظلي مربي بالسركي.. ولكن يزان اصراره.
توسلنا ان نشرب فشان قوة مما في مكان يقتره.. كثر هذا المنهى.. لسبب
ما.. تخلف زيجتي من اليوم.. معاً.. وصمحتي طلي محسن..
فرغت من ارتشاف قهوتي.. وعجز الطفل عن اكتمال طيقه.. بينما اخذ
مضيئنا بلتهم قطعة حلواء.. اهلعت انه تفرغني من تارة لآخرى بنظرات
غامضة فاستمترت معاً.. اواحي: معزرة.. واكني في اذنك منك رقم سماعي
انك صعب.. فمصلحتنا كل كجوة.. ومن واجنا اكرامك بوصفك الوزير
المعني.. ومع ذلك ما انت تكلمتي برفانج هوة لك وبطلي حارو لبلادي.. على
حين ان كروميوني به ان مستخدمك نال قد بكثر.. قد تمنوا ان ياتلنا
ووسموا لوزين كيار من بلاد شيبية لالائنية.. فيطيلوننا بجهل
ويقدمون لنا طليات في شرافة وعريكة وكانهم يصدرون اوامر لخدمهم.
ويجن من ذلك سر شيبتيها لا نستطيعه منهم.. ولكنت على غير ما هم عليه.
وهذا مصدر حزني..

والفقت على أن ما ذكره صار القاعدة.. واكن في هاتي.. احس باتني الذي
عليه كروميوم وليس العكس.. ذلك لان شركتهم قدمت لبلادي.. بل وحتى في
انا شخسياً.. خدمات تستحق امتناناً.. استوصني فافسحت:
كلنا في اوائل السبعينات تلك.. عندنا مشروع السويكي الزراعي وبلغ
مساحته تسعين ألف فدان.. كان اقل مشروع بهذا الحجم يصممه وينفذ
من الاكل الى الباء.. للمهندسون النمساويين.. واول مشروع بهذا الحجم
ينفذ في موابده افريقية بجدول زمني حثيث مضغوط.. بحسب مضبوط
باليوم والساعة.. وكان اول مشروع ينفذ بالكلية التي قدرته قبل البدء فيه.
دون انل تجاوزها لبة عند الانتهاء منه.. ثم لم ترق من قبل ولهم واحد..
ذلك منصف على المهندسين النمساويين على راسهم زيميل عبد الفتاح
يوسف.. المهندس المقيم - الاعايب حقاً.. تصميماً.. وتحسينات لائحة.
وتنفيذاً بما يتغير مفردة.. حث وضما فيه عظيمهم والورهم.. وهذا حوبي
الشروع من داخل المبنى وشاهري.. لذلك تذكر ما اتي من لطل مخلص.
ماكر حول انهيار الليانة.. رغم انه حدث عارلم يخرج من صباب الطوارئ
الحرسية.. كانت له بواج فارة قتلها لجنة التحقيق الفنية التي شكلها
التصيري بعد مفادتي الزوارة.. قبل جود لها فترة تقلد منها لمؤاخذة.
بلى انذكر كل ذلك.. وكيف تصدى لذلك البلد بقله.. كذا أسد جريج هذا
الذي يجازي الآن.. بفرهم المجمع المير.. ومكافآت عدا عنان حير
من لمتنار الجورة الاولى.. والثانية.. والثالثة والتي الحقيقة للشعب.. بل
انذكر بكل حسرة.. الفاضلي يوسف الصديق بين اخوتي.. وضياح وبن على
يد غيري جاهل.. او هلوز متساهل.. او ايلني بل يستعظم لمت حبه الفاضل.
ولكن كانت ثمة مشكلة عويصة تهمزض خبايا الجودل الزوي
المكثف.. كما ايد يردد لها في العمل.. اصبحت الحالب الخشونة من حوه
البحر.. يوسم زركاع العليل قتل العلام (مركز زراعي الطعن سكتاني في مود
الاجاز). فاذ لم يبين قولنا فقدان كل اوسم.. لم يكن مخلص من زركاع
صفحات الهاء (التدريجات) في نفس الوقت الذي يتم فيه تشطيط البنايه
الفولي لحسة الضحك (التي نال بدور نصيب من التمدد الذي انشأ
الخلة الزمنية البرمجة بمتساراً من جهة.. والمحيطات الخلية من جهة
الخرى).. على ان المجد لليرم بيننا وبين الفكر النمساوية التي تجهزت
بالمحاضرات وتقيم بتركيبتها.. ما يكن يسمح للمعلم للتكثيل بلتران معاً
ولكن يتعاقب كل هو مخطي.. اي تركيب الا بعد التشطيط.. لشكال لا بد
من حل على هذا الشكل فقد ذلك اوسم الزوي الذي على وشكه.

لذا قدمت المسؤول النمساوي مباشرة.. بسطت له جوانب من الحرب
التي بل يشنها على شخسياً وكلاء الشركات الأجنبية الأخرى - اوروبية
ويابانية.. التي خسرت امام شركته الفلاسفة المدة.. فلم يبق لها غير الواسل
السري.. اخبره عن انهمامهم في بمعاهلة الشركة النمساوية.. بسجة ان زيجتي
له نفس الجنسية.. تارجمهم بواني ارتشيتي.. وكرة بانها تتلقى مربيان
لالامدا من الشركة لقاء الفون باطما.. اخبرته بانني لا اكثرت لهده
التهرا.. ولكنني اطلب منه عدم خذالي في الحيرة التي تعرض لاه.
«سأنتي».. وماذا اتوقع منه بالضياف.. اجبت: موافقتكم على تركيب
الخصمات في نفس الوقت الذي تكلم فيه الانشادات القوية.. وليس بعد
انهايتها وتسليمها كما يلزم الاتفاق.. فيذلك فقد تمكن من تنفيذ برنامجنا
المكثف في موده المجد.. بل ما طلي مستحيل.. فالفانز النمساوي يمنه
منصاً باتناً لا يتضمن من مظاهر عمل سلامة عمل التركيب في المستوي
التمدي.. وغلبتهم في ترمي دالم لخصام تطليه حروفاً.. لا تلامز يتوقف على

لقد فطنت أسابيع رعد الحكومات على استفسارات متصلة العفو الدولية. وجدت الصداق يظهر صدقه من لهجته، والصراخ تفحصه كل كلمة يوارى بها سواته ولقد وجدت الحاج عبدالرحمن سولي وزير العدل النيجيري. لاكثر من سبب، وبلا معرفة شخصية او متعمقة به، جديراً بالاحترام...

ومع ذلك تحس بتواضع التفتش. في كل كلمة نثت منه، ولعل هذا بعض دواعي طمأنينة تغمر جوانحه بتفتيش منها في السياسة التي يتحل بها، ولكن ما التواضع ان ان لم يكن مجرد الاعتراف بان مواء والده كما يقول عامة السنانيين، مع إقرار بان ليس من كبر الا حق - وبالأمر ما بلغ أمر من رقة ويمنع تعقيداً للتراب والذيان الاكبر. وهذا ما يميزه عبدالرحمن سولي، كل شيء.

فالحاج عبدالرحمن سولي، مسلم صادق في دينه، والله اعلم. وفي حسباتي ان المؤمن بوله حلاً - ايأ كان الدين الذي هو عليه - يتجل صدق ليمانه ونقاؤه، قبل كل شيء بولق كل شيء، من موقفه من اخوته في الانسانية، وبخاصة الأكثر فيهم حاجة إلى العون والمؤازرة حيث الدين هو العمل - فلا غرو ان يهتد بجانب كونه المنافع عن الحقوق والحريات - بلقب رسمي او بدونه - رئيس الاتحاد الوطني لمساعدة العمال.

بالاضافة، هو مؤلف كتب عديدة، وحائز لعدد من الجوائز الادبية. وكان آخو ما نشر له كتابه "الطريق إلى الحق، يمكنني فيه تجربتي في أداء الفريضة. ومن تذكر الخالق مخلصاً لم يتناساه في المخلوق. على ان الامانة التي تصدى لها، تطلب في وقت واحد احساساً حسيماً بالعدل، والزاماً بالقدرة على التحقق من ذلك، ومواصلة بين الحق والرحمة، وتسلم عن الاعتدال بالتمسك وعن شهوة الانتقام، ولعلني تلمست فيه اخلاصاً في القيام بالامانة التي حملها، وانا اقرا كلمات:

مكل القليات والامهات اطلق سراحي - كذلك سراح كافة المعتقلين اما بالعلم او بتخفيض العقوبة، ما عد اولىك الذين لهم صلة بمحالة الانقلاب عام ١٩٨٢. وما المحكوم عليهم بالادام عام ١٩٨٥، فقد خلصت عقوباتهم إلى السجن المؤبد. وفيها يخص حقوق الانسان فقد قدمت التزاماً لزموني دفعه التحقق من تشكيل لجنة لحقوق الانسان هو الآن ومن الدراسة او قبل مدينتي. ستكون اللجنة برئاسة علي، ان تضم ممثلين عن وزارتي الخارجية والداخلية، وعن القضاء والحسين، وعن اتحاد النقابات العمالية، وعن الرابطة الاسلامية، وعن نقابات العمال.

اترى يتحركه ينفذ مشروعه الطرح، فيسخر المشروع لصالحه قتلة في تحد ذلك البلد، لم صراعاً ما يرون الزينة استغلت غرضها وصارت بالأحرى ميلاً لفيصلين منها؟ سنرى.

يسألها بفرانسيس كياتندي، مندوب مجرى الدولية، في عددا بتاريخ ٢٠ ابريل (تيسان) عن السمات المسجل سابقاً في انتهاكات حقوق الانسان. يجيبه الوزير بصراحة، بدون انكار، او تزيين، او امتنان للكلمات:

...لقد بدت الصورة تتحسن من عامين، ولكن بغيتنا لا يظهر اسم بلانكا ثانية في القائمة السوداء لمنظمة العفو الدولية. نعم، لا يزال هناك مجنأه سياسيون من الذين ضلوا في انقلاب عام ١٩٨٢ ولكن صدر بيان رسمي بشأنهم يتعهدون بمحاكمة تتسم أمهم، ولقد اعيدت الاموال التي صورت بجرمهم حق اهلها حيث لا ينبغي لدولة ان تبني تصرفاتها على التخفصات.

ويستطرد وزير العدل "ان مكتب التنسيق والارتباط وهو الشرطة السياسية النيجيرية موجود دائماً. لقد كان المفترض ان يدخل نفسه بأمن الدولة، ولكنه تصرف عن هذا الدور واخذ يصلي للحسابات الشخصية ويترفع لصالح الحياة الاسرى. هذا من الخط انتهى اليوم، وان كان ان الدولة بحاجة دائمة لن يقوم عليه، فل علاقتهم جود مع وزارة الداخلية. يجب:

- في كافة البلدان، الشرطة وسائلا الخاصة التي تستثمر أحياناً بالعدالة. في وقت سبق، كانت هناك اعتقالات ادارية بدون حيليات قضائية. اما الآن فالحوض اصبح اخف وطأة

تفتش. انما اتبع بحدود حكومتهم حتى عن سنسنت منشطة الطور الدولية. وجهت تصديق يظهر صدقه من لهجته، والمراوغ تفحصه كل كلمة يوارى بها سواته. ولقد وجدت الحاج عبدالرحمن سولي، وزير العدل النيجيري، لاكثر من سبب، وبلا معرفة شخصية او متعمقة به، جديراً بالاحترام، فغفر الله له في ربه

النور في قلبي وبين جوارحي، فغلام أخشى السر في الظلماء؟ يتسأل "الشابي". حقا علم، حتى ولو كانت ظلماء مضاعفة كظلماء بيت الحبسين.

على ان التلف الذي يذهب بإحدى حواس الانسان الاساسية، ربما عرض أحياناً عند من اكرمهم الله به، ببعض تفوق في جوانبه أخرى من سلم منه. وهو تفوق قد لا يكون بالضرورة متناظراً يستوجب محبة او احتراماً. بل، وكمن من وصف بانه معوق، خشي الاسوياء منه سقوطه بدن، او سلاطنة لسان، او تسلط قاهر او سعي احمية مأكو. ولئن مثلت لبعض هذا بشاعراً "بشار"، فلعلني لم اتجس عليه كثيراً، وان لم يعوزني كبير اعجاب بجوانب أخرى من شخصيته كأدبي، وبمليته اللذة كشاعر. لهذا مخطفه تماماً من حسب الحرمان الجور يهور بذاته عطفاً او شفقة او ميذاً يقدم او يؤخر بلا موجب رصين.

لا، بل من فناء في كلمة أخرى، من يدهشك بالشجاعة المتنامية والشموع البلاخ مثل عبدالله البرهوني، ذلك الذي الفته سبعون ائمة بكل بشاعته وجلالته الادبية ونكاته الموت فيها، فإذا به، المرة بعد المرة، يدير من الثبات والادام والتدري ما يفرض اطراف بارائه صناديد المحيرين، فمن كان في مثل صلاته، وتوسمه، وسعة ادراكه، ورحابة إنسانيته، صار الاحق بإبداء الشفقة والعطف والتشجيع لسواه، وفي يميني انه فعل ويعمل.

لذا لم يكن دافعي للاشارة بالسيد عبدالرحمن سولي، كونه كلفياً بلغ منمنيا ربيعاً، حيث هو ثاني اثنين في الثورة الافريقية يصغر وزيراً في حكومة يلمه بعدد من حسين. وما بلغ هذا البالغ إلى حميات حقيقية فيه اكتسحت امامها الجرح الواعي المجهدة التي تصدر عادة في مثل حالته. ولعل أهدأ لا يذكر او حتى يتذكر انه كونه كلفياً، إلا ليتوسل بذلك التتويج لزيد من اللقاء عليه. حين توسل عبدالرحمن سولي، إلى حلول ذكية وعملية للشكليات الناجمة من فقدانه الاصغار، بحيث لم يعد يشكل هذا الفقد عتبة تحول بينه وبين القرار السليم، والتدبير الحكيم، والقيادة الرشيدة، والرؤية البعيدة، بما لاق به اقراناً كانوا يتطلعون إلى عين المنصب الذي يرهن على كونه الأهم من دون جدال. فإذا بوجوده ضمن حكومة بلاده شرف للحكومة التي ضمت مثله، باكثر مما هو شرفه بل، هذا يرهن ان الرجل يعترف بأهمية تامة بدون مواربة بان هناك في الواقع حد موضوعي لقدرتي على الفعل، بحيث يلزمني شخص يعينني في معالجة الملفات. وهذا ما يقوم به معي مساعدي لأعوام عديدة.. ولكن من منا الذي لا يحتاج في وقت ما، بطول او بقصر، لن يعينه؟ على ان الذين ترون ايصارهم إلى عيون عبدالرحمن سولي، يعون تماماً ان ليس لهم غيره بعد الله من معين. وهم كثر عيون.

على ان ما جعلني اقدره لائحة الشرف الهمم، ان الرجل، في حسباتي، صاحب نفسية متيقنة، لفسيحة منه وفيه، بوراوة او بدونتها وان كنه تروأ سلطها جهرها يفهم يدهانه ويدعو من يعرف الفضل وذويه للاعتراف. لا، لم اعرف تلك معرفة معينة فاشهد له عن يقين وشهادة في معيهم. ولكن بعض ذلك النور الذي أخاله فيه وصطنى وانا اقرا كلمات الرجل وهي تغني عن فكره وبلاويده.

بل، يمتكان الكلمات ان تكذب، بل وكثيراً ما تكذب. لا سيما حين يتوسل بها اهل السياسة والجهة لغرض يستوجب الاستغفال. ولكن الذي يلامها في كالتني صدقها وكذبها بمقدوره ان يقول عنها كازين الخطاب، لست خبياً والخب لا يذغثني.. ولا، لذا لن اول ما يحسه الجورب الخبير في كلمات عبدالرحمن سولي، صدقها ويسلطتها، فلذا في اعاب اصلي لافكاره الحقيقية، لا صوره طلاء لاجليل تستوجب التهور، فلذا صبح ما حسيت، فالرجل إذن حري بالامانة التي تصدى لها. واما اذا اطلع به في غدا ضحية استسحاق باليد الفاضل في صمغ حيلته تصدق وقد يفتد بنسب. فلا تخف سيفه في جبهه غير تكليف اسماء محلية. وعموم سعي الحميد. ورنق الضمير المتفتق. على حين يستفقد العدالة فيه العالمي والسند. ثم لا يدعاه العرف بين كل الناس.

فالرجل وزير العدل في بلاده النيجير.

لقد كان أول من يزعم أنه يتكلم باسم مصر.. أو شعب مصر.. أو ثورة مصر.. أو ثقافة مصر بأكثر مني أن يقول له علانياً: «كفى عبد الحليم.. شكراً يا ابن شعبك الأنوفى يا صديحه الشجاع، يا صوته الصافي، يا معلم جبل جسارة، وناقض لهب في شرايين شعب مستباح.. لم ننسك قط لأنك في وجدنا.. كم نحبك وأنت لا تدري!»

وما عتدت أن تصيرت السنون وتشتعب المسالك، وتغيرت الهموم والهمم والمهمل، وأنطوى وجه رجل عهد، فإذا بالناصر الأمين عدو ميمن، والرفيق مفارق غلظت رغام دوران دولابي أسال عن كمال عبد الحليم سؤالاً التائه كما تقول.. وإذا بيض ريقه السابقين أو من ينوب بجيبيتي أنه مات، أو أنه صار مديراً لمتن طبع مؤتم، أو أنه تزل مستشفي للأراض العقلية.. حتى فقدت الرجاء في اتصال له مفزاه.. وفيما بعد سلفاً هجم مؤرخ يساري وأيا كان نصيب ذلك الهجوم من الحق أو ناقضه فإنه يخلو جلياً من الانسلاف شديدة الاصطراع العقائدي العظيم في مصر، الذي أبوى بذلك النفر مرأى منذ براكيرهم.

قبل أعوام خمسة سألت زميلي مطويع الانصاري عنه فإذا به يحيلني إلى الأستاذ جمال الغيطاني، الذي كان منا معقريه.. لجلوني الغيطاني.. أنه لا يزال كدابه لا يشارك قط اصدقاءه عمل السكك الحديدية.. سررت.. فاشاعر إذن حي، وفي تمام مداركه، ولا يزال على سابق ولاه وما يدل تبديلاً.

ولما كان الغيطاني ملبها مصر غدا، رجوت أن يوصل مني لكشاهر بعض ما يدين الشكوك أن احتاج.. صمود تحريف أخري لمن يجب جاء مغفوري.. هل أن الغيطاني انتفض مازاً رأسه في تصميم «مستعجل».. فسيفلف به في بهجي إن فعلت.. فخطابتي مطويع جمال عن حق.. لو شاء كمال أن يصير مليونياً لكان.. كان يدخل على عبد الناصر في أية لحظة شاء، ولم يكن يكتف بالناصر يرد له طاباً.. على أن ظل يرفض كل عرض قدم له كبرياء، وفطاف.. التقت للغيطاني لأول بقة مطويع.. هو قلت له من سيداني أن يرفض.. أصر جمال دواراً، أخيراً قمرنا الأمر على هدية رجائي.. جمال بأن تكون لي أخف ما يمكن.

هدية كانت تقصر على خطابي الذي قلت فيه: «مؤامرة على اسمك، نفس المؤامرة على صوت الشعب العظيم، يتفادون اسمك كالكثير المسكون، لأنه شعر يمسح على أنسان أمام شعرة أمس واليهي وفداء وما أسعدني حين وصلني رده، يعني عالياً في نظري، وما لعلت غير أن سطرت رسالة لن يستحق.

يسألني الأستاذ عبد العظيم الحامي «صلاح، ماذا فعلت لكما لقد هزتك هزاة.. قلت: لا أكثر من أنني قلت له ما كان ينبغي أن يقال له منذ أمد طويل، ولكن ما أنسى الجهد وأمضى الظلم.. أعلم.. أن تتنازل حتى يخطي من بين ظهرانيها كي تقول من روايت ما ينبغي أن اسمعه، له وهو حي؟ لم أفعل أكثر من الشئ، المهذب البسيط الذي يلقى من منتصف يطفح الضمير.. ولقد كان أولي بين يمين يديهم أن يتكلم باسم مصر، أو شعب مصر، أو ثورة مصر، أو ثقافة مصر، أو قيم مصر، بأكثر مني أن يقول له علانياً: شكراً يا ابن شعبك الأنوفى، يا صديحه الشجاع، يا صوته الصافي، يا معلم جبل جسارة، والرفيق لهب في شرايين شعب مستباح، ناقض شيايب كبرياء وأصراراً.. قلت له لم ننسك قط لأنك في وجدنا، فيا من لحبك مصر غلظت حب مصر، كم نحبك وأنت لا تدري..

اتصلت به هاتفياً بكما.. لماذا لا تأتي وتبقى بضعة أيام في باريس ترشاح.. سأسر لك بطاقة السفر، جاني صوته الصفوح الدالء، صوت من أو عاشق حاتم بأكثر ما هو صوته مناضل من وجهي القهر والأضطرار «إعذني.. ليت على نفسي ألا أغير مصر أبداً.. هذا نزيارة لطلبك في بلد اشتراكي.. من الذي يصغى في بلد فقير.. هذا العاشق أحم»

لئن لم يكرهه، فتمتاله في قلوب كل من أثر فيه كمال وشعر كمال، يزيرو لغيرهم والرخام.. ولا تزال حجابة إليه وإلى أمثولة الرامة.. عاشقاً لملال العجب المزعج، عاشقاً لخص مصر، مصر مرضي أنا، وأبي مات هنا، وأبي قتل هنا، مفزاه أعادنا، عاشقاً لهدم الذي أنشبه، شيعراً ومعلماً وإنساناً جند أربع الفضائل الانسانية وأشاعها، جديراً بالحبية جديراً بالاحترام.■

■ ما بين النيل الأزرق ونهر الزرد تقع محتوية، الجميلة، المرح التعليمية المؤسس في منتصف الأربعينات على تقليد رسيمة متكررة.. تزيك من العودية الأخرى للنيل الأزرق برهجا الذي يطوه الودود.. برهجا الذي يبدو راسه في القنارات البنفسجية للامعة على صدور فتياتها، أو ربما رأيت حقيقة يتقافز بتاجه في ميادينها الخضراء تقافز القردة في الغابة المتاخمة.. هناك قضيت عام ١٩٤٦ سنتي الأولى والأخيرة.. في مسكن طلابي كنت فخوراً بأنه يحمل اسم بطلنا القومي مصر.. الذي أحرق إيزن والي مصر ونصف جيشه الغازي رداً لاهانة.. كنت وقتها فتى أنطواشي، حياً غالياً على الحياء، يجتاحني جيشان هائل يهدر في أعماقي لا أدري له كنهها.. التفت في حجة تلتفت الصفاء في الفترة.

عرفني الطالب «ع» بنفسه، فلأن أن صديقنا المشترك من «ع» كانني بحسباني مجباً للأطلاع جياشاً بالونية، فلماذا إذن لا تتلافي وتندريس فكراً جديداً؟ هكذا التقينا تحت شجوة شجيعة الظل في الحزام المتنامي حول حرم محتوية، الحب، استمعتم نحن لتخليط حول الصحافة الأميركية.. أخذت تتراقص في ذهني.. أنا الذي نادراً ما كنت اسمك على بصحيفة محلية.. أسماء عجيبة كالاسيبيديتيريس وأختها يونانيات، وكرويتو والتاميز وهكذا.. ولا أسماء البني والعفريت.. أنا قلت ههنا ما كنت استمع إليه، كذبت عليك ولكن.. جيبي وبيك.. أهجيتي الكلام.. وكان بالامكان أن يكون آخر لقاء لي مع ذلك الفكر الجديد.. لو لم يوس «ع» في يدتي كراسة خطية لدى انصرافنا وهو يقول: بما أنك تحب الشعر وتنتقله إليك هذا الشعب.. إنه «أصرا» ديوان الشاعر المصري الثاني كمال عبد الحليم.

في العاشرة تماماً مساء ذلك اليوم، أطلقت الأنوار في مهارج الطلاب وفق التوقيت الصارم.. هل انني لم ألق الكراسة بل استعنت بالشعاع للاستلال عبر النفاذة لأتابع قراءة ذلك الشعر المتنازع المتوجع واستعادتني مراراً حتى وقت متأخر أو قل مبكر.. كنت استند معرفة ومعة من التيجاني يوسف بشير ومن المهجورين ومن الشايب ونهجي وسوام، أما هذا لوجدت شيئاً مختلفاً تماماً.. كأنه لا يكتب بقلم بل يخنجر.. كأنه لا يصفى برأعه في مداد بل لهب.. كلمات شعبة، متفجرة، مثيرة، مستفزة، محرشة، متصدية.. دكلنا أصرار، حتى نبني لنا حياة نستقيم أن نحياها، وإذا برزائل يجيبي رجا، ويقتل روحى اقتلاماً، وإذا لكك ريد الإعلان الذي لا تائة فيه أو غشوى، أو جملة أو مواربة أو غمضة: طيس جوع الجوع صمياً، ولكن كل من جاع مثل من باع عرضاً.. يا رفاق الشقاء هل من مرود لنزوح إلى بلاد بعيدة؟ حيث تمتع السماء قوت رست روية يقل عنها مسجدة؟ بل تعالوا نسطم العتاتي ويهني هذا الحياة الجديدة..

وإذا في أصابعي شجيعة اليوم التالي شخص آخر ومن قسم أنطواشي رومانسي تصاعد ماري في أعصار جهني لا يوحشه حائش.. وإذا بالهمر جمل، والمزم مرود، وإذا بالرقى تشكل في وجداني من جديد.. ويمتلأ حبل الألف الحاسي.. والجمال ابتداء، نهضت في مداركي حقائق جديدة لوهلدا، بما جلا بأصرتي، وأدب بصيرتي، وحدد غاييتي وروماتي ومسجتي، ووضع على كتفي وجيبي خاتم السبلة والهداء والأقدام.

السودان عتد.. أو الأروميئات وأوائل الخمسينات.. تحت النمل الأجنبية.. السودان بركان كظيم ماري.. ما من سيل بشري عامر إلا ويهب غالباً فيه مريض بكلمات كمال الضوية «أيها الشعب تذكر، أقل تصر برك.. بما من رفقة كفاح إلا وأنا هو سمرهم نشيد عبد الحليم لطلب الألف الحاسي.. «صلاح بشير، الذي قضى عليه في سجون مصر زبانية صفدي بكاشا، يرددن في ألسن البليء الحزين مع كمال: «بين صفر وجديد، وأعاصير وصل، وسودق وتهد.. قتلتوا مناً بطل، حسيه وسوام، حينما يدنو المصير.. وجدوا حراً يقاوم، وهو في الفزع الآخر، فلتمشي ذكرى صلاح..

ما من أحد عاثره إلا وهما ضاحيه. وما أحد من حاضره والصحي من (أكرهه) نفس من استعجبهم بينهم بنزق خاوند وسكنه لا يتوب وما من سبيل ما هنري مشروح له في كل وقت، ولكنه يهينه نباح ولعبه حيزه بؤدة أنه فرنسي جيد. خفقه من قلب فرنسا بجيش بالإنسانية، حجة من ضمير فرنسا يؤمن حقاً بمثلها الرقيقة صديقي الفرنسي الذي أعزبه....

صداقة بعمر ابنته. قال: ليس لي ام وانا اعترك اخي، قلت: وانا كذلك. ان اخبرت فرنسا مفاتي اخطاراً فليقيني ان لي فيها اخاً اجده عند الاضرار. الذي يهمل بامر من يعرفه ومن لا يعرفه على ما جاءه، يطمح به اكثر من صاحبه ويصل يطمح حتى بعد ان يكف صلحه عن الامتعاد. منهية

إنساني صادق.

كان يقوم بإنجاز فيلم في الاستديو الذي أسسه - سمعنا جلبة وصياحا هيرعنا أن مقيمنا جميعا، وكل أصحاب المنازل - استدعاه - في نفس الشوارع الزرع. ففرقي بلبي سكران متحارب النجوم كبح غلواوه وقد صرعا صرعا. ولقنا ترابيا. كان عليه أن يعود تولا لعمد. قال لييت: لا يفرحي المكان دقيقي، إذا مشوه ذاتي اخبرني فور. سألته بتجدي. وماذا بإمكانك عمله؟ انتهرنا. وافعل ما أقول وأعرف عند ذلك ما يجب علي عمله.

أو تلك الصبغة التعيسة الهاربة التي جاء بها من الطريق. القول له قد
نجر عليك مشكلة. يريد أكثر من يحتاج إلى علقتنا ونضربنا لأحداث الذين
لي ويلة. لن أنزركا هائمة تبيت ليلتنا مسمومة مستباحة دوني هل. التقط
لبيل الهائف واسمك بالفرص يدبره بأنهماء.

قبض تمويهه المال في عقد اخلت به جهة واصخلته في اضرار لادبائه
بشيء في يدي بخرقة ضحفة لم يعدها، حين رأي استنكر قال: وليس سداداً
لدينك، أو مكافأة لما بذلت، اسء لصداقتنا ان فعلت. إنما يسرني ان
تشاركني الفدية به، اعتبر هذا لا شيء».

يقول ممتاز: ملحق الأوروبي الوحيد الذي فتح له لبييون أبوابهم دون كلفة وفي أي وقت. الذي دعي لحرس ليبي ووقف يدين جنارة ليبيا. أسأله: ألم تضايقت ظروف ليبيا المعيشية؟ أبدا، أنا أحب الصحراء ومناخها ولي أصدقاء فيها فماذا بهم بعد ذلك؟ هنري، ماذا فعلت مع شهر رمضان؟ كما

يقول الليبيون، صمت، كله. أحقا صمت كله بامصية؟ ولماذا لا، إذا كانوا يفعلون، على واختناق في الأيام الأولى وأعتدت. كانت تجربة جديدة مغنية، بالذات لأن كما ترجمت معانيه بالفرنسية.

موتة ثانية عبر المحيط الأطلسي. لذلك تطالبني كعادتك، أنا الذي يعلو
 دأما ويدفع القيمة لأنك تحب أن تحافظ على لوبيك، ولذا لا إذا كانت كل
 الكلبة بساعة، بقرا لي صفحات عما قال نيتشة وما جاء في فلسفة "الزئ،
 الميزة وبقي بالساعة ليبحث معهم "ويجرح". اتلمس أنا أنا في منتصف
 المفاة، لماذا لا تدعني اكملها، حبيبك تعرج. أنت جاد؟ في هذه الساعة
 أنت هنا انسان موهوب. انني متاثر صدقني. ثلاثت لك عن كلمة حقوق

سميتي الآتية. قلت لك لا مقاله واحدة بل سلسلة.
أحر ما وصلني منه كتيب صغير فيه الاسماء الحسنى بالعربية
والانكليزية. مكلة اخرى لنطقها العربي الصحيح. اقول المهمين بالهاء لا
المؤمنين، ولكن ايمان، طلبة، سعد الكاين، تصح، هيمان، والكاتب

الأخر من أهل هليوك عن الموت للربان اليوناني. بل لم يستعصم أهل هليوك بل قيل موتي. اسمع، فيها خيال وفقداره على الانكليزية وانضبط مقاطعه وسخرت من الحياة. اخضع في الكتاب الذي ادانته قبل مجيئها يدعون. وأمر ما قاله قبل موتهم مياثرة، بسنوات طويلة قبل ذلك. بعد أن أمروا أن أيضا لهم، ولتدأ لها السعدية من بعدى ولا أحد

الفضل من الأجر.

أقول لابنتي: «مررتك منذ ولادتك». ترد متخافتة بيل قبل ولادتي، حين كنت مشروعا. صدقتني لابيها بعمرها وبحالاتها. حضرت عقد قرانها وسهرة عرسها قبيل أشهر في مدينة فرنسية صغيرة. قضينا - هي وأنا أبيها -

الروحي؟ قبل ذلك وقتاً تتفكر في أخف صيغة تخفي بها خطيئتها بأن جدها كان زنجياً (ولو كان في ضخامة ورفاهية رايه)، ساكتها بعدئذ: ماذا كان وقع ذلك عليه؟ قالت هر حكتيه وقال في وماذا يعني ان كان؟ أعرقه، طبيب فرنسي هو الآخر جيد لا أعرف أيهما الرابع فيهما، ولكنني كلما تذكرت مفارقة تلك

والفلق على نضارة قسمايتها الطوية اغنصر شيء ما قلبي عتصارا، فدا رات
في دنينا هذه عجايل تقاهة.

ولكن لأن الثمار بعد دانه يفتح عيشة. وليس من حكمة راعية المواشي
وإن من زمن وتباينت الدروب. يظل يستقر عن مسدقنا باع وأفغات الأهواء
المتسخر في سوق الخروم. حتى بعد أن ترك يبعها، والذي دعاه ليت
الكاثر من الخارج الأنثى من الداخل بهم لفافة "البندق" السوداني وكأنها
سجل هائلنا، يذكر في سبابة النجدي الذي حدث له حادث حركة فإذا

سيفتر غاندا: ويذكر في كتابه "السياسة في أفريقيا" أن
بداخله حوفاً خارجي وخارجاً داخلياً. كيف عاش بالقلب فهذه مجرة.
واصدقائه أهل الأنتيك المكسيكيين الذين سر لهم رقصاتهم وكافرو
بتمية. واصدقائه الاشانتي الذين جعلوه أشانتي ووهبه ذلك الحمام. ما
من أحد عشره إلا وصادقه. وما من أحد صادقاً وأنجى من ذاكرته.

وبعض من استحسن فيهم ينزق خانوه ولكن لا يتوب. وما من صديق إلا وباب هجري مفتوح له في كل وقت. وسقف بيته متاح، ولقمة خبز ممدودة صدق الإنكليزي الذي أتق في حكمه وحكمته عليه راحة الله حين زكاه له قائلًا انه فرنسي جيد. انه لكذلك خفقه من قلب فرنسا بجيش بالانساب.

انصلحت به هاتفاً في نيويورك مستأذناً. اسمع اهل تسمح لي بكتابة مقال عبقري؟ رد بجفاف حان الاوان. لكن من حلقتي. خشيت ان يسيء شيئاً فيما اكتب عنه، من يؤذي الامور غير وجهها الحسن. بعد موظف دولة. اذا اردت مهونا: على كل حال، ماضيك كله في عليّ بمشغروا. في ماض يسبقني دلائما. اجبت وعلى انك تسبقك دلائما.

عن طرف لسانه لا يخلع له أسكافاً، كأنه جافج سلفاً لسؤال يطمع
 به سيقضي. هفت مغنوي لارماني القنطار الذي تخرج من فيك
 رن. اودنوه، اجاب افعول. لكن لا تفرق نفسك. ابي ابي ابي
 ذلك هذه اللوحة لديهم النص الكامل. من إحدى نقالات الفجائية
 سالكاني كمن يعني نفسه اطمع ان في نساء (شيزوروني)، قلت
 يا مدهش. كل المغنائين فسام. من موكب المغنائين فسام، ولكن ليس
 بهم نساء فاسنين. قلت: فطعننا ان انا متى استجود سدي
 يا مدهش. اننا طردنا، في الاستعداد، في السجود ارضاً ليل

[illegible]

ي - بسببها - قال لي «أنا زنجي أبيض، زنجي من الداخل» - مفتخراً -
 بك يحرس على أن يسميني أحد النكات العنصرية. لا أدري أي معشر

أما الشابة التي على يمينه فبوجه ملانكي ولون مبيضي على جيد
أبوها، ويشارده رايت، الكاتب للزنجي المعروف بالراحل، أول من
من الكتاب الزنوج وأنا سببي «الطفل الأسود». قال لهما تذكروا:
فلا علي ثمانية تحت أسمين مقتولين، فترجيا فوراً.

الذي يطمح له، رد: ليس أكثر مما تعطي الغاني، قلم القصيد كال أي

حين حدث الانقلاب على نكروما، وكان الرصاص لا يزال مستمرا،
لاطمئن عليهم. وجدت زوجتي تعمل بطلتهم ولهمه. قالت: ذهب
في تنظيم المقاومة. ولكن الفئتين ذهبوا بسلامة عندهم لكان الغرض كانوا
أمناء. اختفى بدوره ثم بعد له الخروج الأمن غير تدخل عال. ولكنه
صف الطريق بين «أكرا» وبابريس. ودع أسرته ليلتقن بتكديروما في
بكوناكري. رأي ذلك وأبيه، فما هو من يقولون نحن نقبل وبديرون
عن صحتهم. كان ذلك حال الرجل الكبير، وقدمه، وقدمه، وقدمه.

ثم قال يا ايها النبي طوبى لمن
يكون له اهل من بعده فانه اذا مات
ماتت عليه ذرية من بعده فانه اذا
ماتت ذرية من بعده ماتت ذرية من
بعده فانه اذا ماتت ذرية من بعده
ماتت ذرية من بعده فانه اذا ماتت
ذرية من بعده ماتت ذرية من بعده

نات بصريلان النجاة. وهكذا أسس هنري قبيلة عن فيكروبا،
الحيانة. أما قبيلة الثاني فمن حرب انضمام ميبارا. اسماء
نيجريا... واحدة. لقد أحب أفريقيا بصدق. وأن هو لي أميركا
التي تكونت. هنري: متى ابتداء حبك لأفريقيا؟

فمنذ أيام الدراسة، أُنحِرت للثورة الجزائرية وقدمت بالوسع. وبقي
بني وهو ضابط كبير متقاعد سبقت له الحرب في الهند الصينية أن
طاش الثانية في حرب الجزائر لمغرباتها المادية حذرت: «من تصل الجزائر
سألتني: ومن سيمنعني عن ذلك؟ أجبت: أنا، قبل الجزائريين». أخذ

ب. لن أنسى قط طبيعة تلك الجندى الجزائري الذي كان يخدم أبي،

كانت ينامني تحت وادٍ من الصخر.

بـ إفريقيا هو من حبه للفرنسا، أوضح لي ان الصحنى التي شاد بها اليوم افرقييا، سجنى مارها فرنسا، القذ حن تقف مع سواها على المساراة في منافسة مفتوحة على قلب افرقييا التي استردت قرارها والشرية من بعد اسرة واحدة الفرنسي كالافريقي، واكثرهما حرمنا

أما ما اعتنقناه من معتقد افكار فكريا، على انها لا تشكل بعد ذاتها
دا أصيلا مفاسكا متسقا، فيما عداها، له مرائل فكرية كمرآجل
من الفسيفساء، لا يتحكم فيها غير آخر ما أثر عليه من فكر صين، اجنبيه.

لكن ذات ليلة وأنا انتاب النوم في العاشرة إذا هو بباب سكتي
فقلت يا رب اني قد انا في بيتي فقلت يا رب اني قد انا في بيتي

أمرني يهيب - أريد ملايسك وفيها عني - أحضرت حماما في تونسسي وأصب
أباركنا التهامه. اعتذرت ففهم وجهه: أنت لا تريد صداقاتي إذن.
ولكن بدون حمامك هذا. قال الصداقة النطقه هذا الحمام. سألني
أمرني هذا أم عربي آخر؟ قال يستدير بنفس الجولاه لهذا أن وقعت
في شطرنج الشطرنج لا الحمام الأتار. من بلاد الإشتاتي هو

كثير الآن ذلك الفتى الصغير. لقد كان والده حتى وهو في صدر سنه كيبيرا. ربما لا يزال الآن من ذلك الجرح القديم أثر. ربما أضاف - إن بقي - ذلك الأثر إلى وسامة الفتى الذي كبر الآن. أو ربما أخذ منها شيئاً. المهم حقاً. إن ذلك الجرح القديم سيظل وساماً لمسلك شامخ بلاذخ وكما قال الشاعر: وإذا رأيت من الهلال بداية. ابقيت إن سيكون بدراً كاملاً...

لا يصغر عائلة «الشيباني» في مدينة «العين» بالامارات العربية المتحدة، الا يعرف عنها كثيراً جاهل مثل، ان علم شيئاً فقد غابت عنه اشياء. اللهم الا ما اطلعت له عنها تلك الواقعة التي رواها لي شقيقي الأستاذ الرشيد احمد ابراهيم، والتي مر عليها عشر سنوات.

كان شقيقي ولتها معلماً بمدينة «العين». وكان من افضل تلامذته كما وصف لي - فتى على قدر عال من التهذيب وسماحة الخلق والاخلاق، والجد والاجتهاد. كان دائماً - كما قال - في تمام الفطنة والتهنية، عيانه معلقان، وإذناه منوطان، بكل كلمة تنده من أستاذة، يكاد يتفريها بهما تشرياً، افتناناً منه بالمعركة والتحصيل. فالطالب النجيب يحب لا محالة أستاذه المتقاني، متعلماً يحب الأستاذ المتقاني تلميذه النجيب، لتكلامها يهد في الآخر افضل معين له. هذه المحبة الحقيقية هي التي جعلت كليهما يأسف من صميم احساسه لذلك الصائد الأليم. قال لي شقيقي، سأحدثك عن تصرف ذلك الفتى وشقيقه حيالي إبان ذلك الحادث. الا لاسمع:

كان ذلك الفتى بكل صفاته الحميدة تلك زميل جار له في قاعة الدراسة. وكان تقيضه في كثير. كان قدماً، مستظلاً، ساعياً، لاهياً. وبسلي في ذلك كله الدور الأكبر فيما حدث. فذات يوم (الحديث لشقيقي) بينما كنت مستغنياً في القاء درسي وإلقاء على النصة الامامية في الصدر، اذا بي لاحظت ذلك الجار يحاول الهاء زميله عن تنبيه ما كنت بصدد شرحه. وبإل ان اتكمن من تعذيبه، بكل قدم زميله ركلة اطارت من قدم هذا نعاله ليقيم مضاميه، بطريقة مساجية للذوق والادب. لم أشعر الا وأنا في وطأة الغضب الذي اجتاحتني، اربك النعال الذي كان امامي ركلة مضربة اطارت دخاني الصفيق هو الآخر نحوهما. كان هذا بفعل قوي حد، فإذا به لسوء الحظ يصادف الفتى لهذب الرقيق الجاد لي غده، محدثاً فيه جرماً بليغاً يجري منه الدم انهزاماً. ترخى الصبي وسقط على الأرض.

سبق الفتى لقيادة المدرسية حيث اجبرته لاسعافات عاجلة. ولكنهم قدروا بان الالاصية اكبر من استعداداتهم للحدود فبعث به للمستشفى. هناك روى الامراض من لظفار الشربة بمقتضى القانون ولد كان. على ان الفتى المصاب اصبر في اقواله انه يقع على الأرض أثناء لوه مع ذاته، وحدث ما حدث دون مسؤولية لأحد فيه. ومن ثم رعت الشرطة يداه.

قال شقيقي انهيث ما كان امامي من عمل بأسرع ما استطعت. ثم اصطحبت معي ابنائي زملاء الفتى ولهمنا حيث كان لاطمئنان عليه وإيداء مشاعر الواساة وتمنيتنا بالشفاء. وما بين المستشفى وداره لم اتكمن من رؤيته وانصرفت مباشرة لأخير شركة حياتي بان تكون على اهبة لخسارة البلد في اقرب فرصة. فقد كنت على يقين بان ذلك اقل ما يستوجب عنيان. ففي سابقة حدثت قبيل اشهر، اتخذت اجراءات اسبر من ذلك لعل لم يحدث ما احدثت من أدنى. لما بالك والفتى الذي اصيب بهذه الصورة. كان ينبغي ان ملكة مشيئة ذات نفوذ مرموق في مدينة «العين» هي عائلة «الشيباني».

استلزم علاج الفتى من الحادث عدة غزرات عن الخد المجروح، وطلب منه الجراح البقاء في الراحة اسبوعاً بأكمله حتى يطمئن الجرح. في اليوم التالي استدعاني مدير المدرسة الى مكتبه. قصده في محيولتي اسرراً الاحتمالات. لنت انه لم يكن من بد فليكن ما يكون. وجدت في مكتب المدير الفتى وشقيقه الأكبر بانتظاري. خد الصبي

مقوم بشكل ملحوظ وعليه ضمادات مضاعفة. نهض ثلاثتهم ردأ على تيميتي ثم طلب مني المدير التفضل بالجولس، جلست، واخذ الشقيق الأكبر يوجه لي الحديث. ولكي تأخذ فكرة عنه، كان في ذلك العين مديراً لمكتب الشيوخ طحزون، ممثل رئيس الدولة بمنطقة العين ومكاتبها. ماذا كنت اتوقع ان من شخص كانت هذه مكانته الرسمية بدارني ذلك؟

قول ان تقف بكلمة، دعني اوضح لك ما داعي هنيهة وريفتنا في لفتاك، لقد امر شقيقي على الحضور بالرغم من تنبيه الطبيب بخلوه للراحة سبعة ايام. لكي يقدم لك دون ابطاء اعتذاره عما سبب لك من الضرر بالخطا الذي ارتكبه. في الواقع، ظل طيلة الاسس، بل وحتى قيل ان يفيق تماماً من الغدر، بلغ على بالميء اليك لاطمئنتك عليه واعتذر لك بنفسه عما حدث. وما قد جشنا لهذا السبب.

قال لي شقيقي: نهض اليك السجح المهذب يعتذر في بقدار ما أتاح له ذلك كله البليغ. ثم استأنفت شقيقي القول: لقد عرفناك جيداً من خلال اطرائه الدائم عليك. فهو ما لمقي يتحدث عنه في كل أونة يتجهيل واعجاب شديدين، وتأثير كبد لا ياتي الا من مستحق. فانا نثق تماماً بانك لا تكن لابائناك غير العج. وإنك تتفاني حقاً في سبيل متعلمهم. لهذا، لما حدث لي نظراً امر طارئاً وبتدركتني، وكنتي اقول لك صادقاً، اعتبر شقيقي امر ابنيك، وتصرف نحوه كما ترى لائقاً ايأ كان. يقينا مني بانه لا يصدر من ملك نحوه مهما حدث الا الخير. وارجو الا يبقي في نفسك من هذا الحادث شيء، تماماً مثلكا لم يبق في نفوسنا - نحن اهل - شيء منه قط.

بهذه الكلمات - وبعد شكري المستحق له واحتياطي - انصرف كلاهما. استأنفت اخي «الرشيد»، في تسجيل هذه الواقعة كما جاءت على لسانه، وأنا في حجة عن ايهاا اكتب. أمن الفتى الذي لم يقل حتى في لحظة معاناته البالغة عن براء مسامحة سلطات القانون بشفقة الاقربين المفهوم من أستاذة، ام من الشقيق الذي لم تسلب منه محبته وشفقته نحو اخيه الاصغر او الفتى الذي لديه من الحكمة والحكم السليم بين الادب والجم والتؤليل آراء معلم غريب لا حيلة له او حلي غير عسوبة تلميذه عنه، حتى وان كان قد ألحق بتلميذه دين قصير أدنى.

كثير الآن ذلك الفتى الصغير. لقد كان والده حتى وهو في صغر سنه كيبيرا. ربما لا يزال الآن من ذلك الجرح القديم أثر. ربما أضاف - إن بقي - ذلك الأثر إلى وسامة الفتى الذي كبر الآن. أو ربما أخذ منها شيئاً. لا أهمية البتة لذلك المهم حقاً. إن ذلك الجرح القديم - توفي منه اثر أو لم يبق - سيظل وساماً لسلك شامخ بلاذخ. وكما قال الشاعر: وإذا رأيت من الهلال بداية، ابقيت ان سيكون بدراً كاملاً. اعن ذلك الفتى بحسلك الشامخ البلاذخ اكتب انن، ام من شقيقه الأكبر الذي بدأ بدي من تواضع وتعلم ومعيد اعتذار برفق على اكبر مما كان عليه من منصب ورفق ونعيم منيع. لما يلقظه الوجدان مهبات ان يعوضه السلطان. ام اكتب عن عائلة «الشيباني» التي ال طوبختا انتمى الشقيق والشقيق، حيث لا تنتج نبتة طيبة الا في مكان طيب. فلف وجنتهم - الصغر والكبر - الفتى والشقيق، واستطردا عائلة استمدوا منها هذا الخلق - وجنتهم بما علمت من هذه الواقعة الجديرة بالتأمل في زماننا هذا الكلف الفظ، جديدين بالاحترام

.. قال انسي المسؤول عن تنفيذ القانون وليس رئيس الوزراء المنوف.
وانني ما كنت كذلك اري من واجبي ان اطمئنكم بان السيد رئيس الوزراء
وخضمه السياسي عبد الحفيظ محبوب سيأتى في شهر القانون. لا
غيرة لاحدهما على الآخر..

اسر لي صديقي سيف الدين، وأنا اودعه ببطارباريس بهمس
باسي حقيقي، هناك بان بان الأمير منذ الله نقل الى لندن في
حالة شبه ميوزيس منهية. هكذا سافر مقلدا في شعورا مقلدا
بالسلوك الوشيك والقد الشخصي. طغلت اسأل الله اللطيف وأنا
اتساعل في اعالي ماذا يعني الرئيس لسيف الدين ولي حتى يتزل خير
مثل هذا عنه. كسيف قتل معلق فوق رؤوسنا. وترأت في الاجابة
جلية. قد جلية.

ولكن قبل ذلك، لك الحق ان تسأل يا قاتلي عن يقرن الأمير
نقد الله. هذا.

«أمير» - يا رعاك الله - لأن والده كان من «أمراء» الثورة المهدية.
أي قاتله المقاتلين. بل ان أباه هذا ان جهل عنه كل شيء آخر، كان
في الواقع، الذي استنقذ عبدالرحمن (اصغر انجال لأمنا المهدى)
من القتل والشرية حين أنجال الهيبه التكتيزي المصري للقاتل
تضييما في آل المهدي وسلافة انصاره (لا سيما بعد مذبحه
الشكابة) كي لا يستمرروا بؤرة المقاتلة. ولكن، لأن كان الاب اسير
مقاتلا، فقد كان أميره انكار بالشمائل، فلا تسأل عن يقرن الانسان
في لسان صا بفعل. اما كلمة نقد - بضم النون وتسكين اللام أو
ضمها إذا ما تفتت باسم العجالة - فهي في اللغة الثورية ريف كلمة
معيدة في اللغة العربية. منذ الله إذا هو عبد الله، واسم الرجل
والكامل، وعبد الله عبدالرحمن نقد الله. وبخر الاسماء عند المصلين ما
حمد وعبد.

هزني الدنيا والميتي والتائر واخذت انصه لك للرجل بحارة - وإذا
سُئِلَ الصفاء بطل الدهاء، لا أكثر ان كنت صافهك أو حيية إلا ان
كان ذلك لما ولي مناسية تستوجب الا يكون حديث. ولكن صبرته
تظل محبوبة في ذاكتي بكل الحب الذي أكنه له ما علمت عنه. كان
سودانيا صميميا في كل شيء، صغيرا وبشورا وهذا للوصف لا للتصني.
ابسر ما فيه البساطة المتعاقبة التي تخفي كل شيء، فلا تدري ما
يخبرني - ماهية ومقدار - إلا حين تلهو. يشاوري حياة
وتواضعا، ومن تكفير التائر يتصدى ويصدر وتلقاها بصدره. من
تراء ساعة الفزع لا ساعة الضحك كالفراللات في كيان الإنسان،
فلما، عرف بوجهه له ما يعرف. هوبه في أمان. هفت وأنا عائد من
الطار، ياله! هذا الرجل هو زمن. صوبته الحقيقية وعامي حقيقتنا.
لئن مات هذا الرجل إذن مات مني والله كبير.

ما ان وصلت حتى شرعت اكتب رسالة متدنيا للشفاء. قلت له ما
معناه ان جاءه مثل خطابي - هذا من كان من أهل نهج الطلطي أو
السياسي أو من عرف بأنه كان من أهل مراه. ما كان له مثل ما
لخطابي من قهية. حيث لم يكن واحدا من اليك في يوم من الأيام بل
بالأحرى كنت من صفاتي حزية، ومنازعي نهج السياسي وكثيرا ما
كنت في الضمير، فحين كنت ما كنت فكان الحق يعلو، لا فضل في
غير الاعتراض بوجهي من أول للويل الجميل. قلت له وهذا الاعتراض
سيظل دائما على كل مواطن منصف وبغما مستقل مكنته أثيرة في ضمير
شعبنا. كلام كان في هذا المعنى، وفي خاطري تتلاقى مائة للرجل ان
لم تكن له سواه - وما أكثر ما كانت للرجل من مآثر مذكورة وشهيرة
وبشيرة - لكثرة شرفا وفرا وكثرة في افكارها.

حدث ذلك عن عهد ديمقراطيتنا الثنائية (١٩٦٤ - ١٩٦٦) ما بين
انتهاء ديكتاتورية الفريق ابراهيم حيد وانقلاب جعفر نمري. حدث
ذلك وكان بعض ما اطاح بديمقراطيتنا الثانية - ضمن المجبة - مقدما
لجيش نمري - المجرز لانقلاب وما كنا نظن أننا مرجعون ثانية بعد
انتفاضة ١٩٦٤ الشعبية على الحكم العسكري، بموسيقى عسكرية،

فبين أول، فأمر جمهوري رقم كذا وكذا
كان رئيس الوزراء منذ السيد الصالح المهدى، قد ضاق ذروا
بالنواب الشيوعيين عن قلة عددهم فقام بطردهم من البرلمان بقرار
مستعجل من عين البهية النيابية التي كانت جزءا منها، مستغفلا في
ذلك ما حاشه ملقة نسبت اليهم. حمل النواب الطغريون قضيتهم
لحكمة العليا التي تسبت اليهم، فقد فيما بعد بعدم دستورية هذا الاجراء
الذي يصونه في السودان «الانقلاب المدني» على المنصور.
في ذلك الجو المدمم للقتل، المستنفر والمتمردات والاعتداءات
والاتهامات والتهديدات المتبادلة، أعلن رئيس الوزراء في بيان متلفز

بأنه سيضرب عبيد من حديد على خصومه اليك، ساد الوريث
والواطين وزاد الوريث على ما كان عليه. وهنا حدثت مائة الوريث
نقد الله التي ضار بها سابقا لم اسمع باخت لها. لا في السودان بل

أي بلد عربي سواء، وال... اجيوني
بعد قرابة نصف ساعة من انتهاء رئيس الوزراء من القاء بيان
«الحازن» والصارم، قطع الإرسال وأعان الذئب بان هناك بيانا هاما
آخر آتيا لتسده هذه المرة من السيد وزير الداخلية. وهذا كان
المواطنون ان يتقروا من وزير الداخلية في اعقاب بيان سبه بنصف
ساعة من رئيس الحكومة يتهدد ويتوعد فيه خصومه السياسيين الذي
أقر البرلمان بأغلبية كبيرة احلامهم عنه لأنهم كذا وكيت؟ وماذا يتوعد
المواطنون من وزير الداخلية ان لم يكن تقديم الاجراءات المدنية
والخطوات التطبيقية والتعليمية المحددة لما ورد معمما في بيان رئيس
الحكومة؟ حبس المواطنون انفسهم لهفة وتربعا، وربما قلقا واشغلا
أو تحفزا - بإحساس مائل بان التوتر السياسي والصراع المستمر

وحمل ذرقة تصاعده ربيب الانفجار الثنائي.
ما ليث ان ظهر ربيب «الامر» نقد الله - بكل ما فيه من طيبة
وسلمة ومروية - هو بعد يفصده الديمقراطية، في منغمة السواني
الذي لم يعد وليس سواء منذ ان طول جد: الجبة الانصارية - التي
بسمها اخذنا المحرمين بحسم الفكاهي اللاذع «ماشي جاي» حين
هي من الجبهة سيان تلمسها كما اتفق ويتأكد تكون الشيء العن
الوحيد الذي اختبره اخوتنا السودانيون والا لليلذكروا في يها
الاختراعات - والملغمة التي على كتفه، والعامة ذات القبة (الصماء)
تاج الحرب، والمذبة القداء بالرسول الكريم).

بعد ان حيا المواطنون بداية اليوم قال لهم انني استنقذت
ابويان السيد رئيس الوزراء، اقلتي ما سمعت. ورغم انني طعم
الفراس من وكبة طارية - سارت اليك بمصميا وزير الداخلية
لاضع الامور في نصاها - (لتي انقل لك يا قاتلي تلخيصا مختصرا
اود نصا اميا، وقد مر «الذكر» شوي).

قال انني الوزير المسؤول عن الامن والنظام وعن تنفيذ القانون
وليس السيد رئيس الوزراء، اقلتي ما سمعت كذلك، اري من
واجبي ان اطمئنكم بان السيد رئيس الوزراء وخضمه السياسي
السيد عبد الحفيظ محبوب سيأتى في شهر القانون لا محالة لاحدهما في
الآخر، ناهيك في ان يكون له حق شهيد. وانني ما دمتم الوزير انفي
مباشرة، والمسؤول الاول المكلف بهذا الامر، ان اسمع بابي الوزير

للثانين باسم القانون.
ان لم يذكر السيد الوزير الآن كلماتك تلك ينصها لهما ليذكروا
الموقف تماما. هذا بعض ما جعل قلبي يوجف حين علمت من سيدي
الدين ان الرجل كان في فراش موته بلندن. هذا بعض ما جعلني
اسارع بكتابة رسالتي تلك اليوم. هذا بعض ما جعلني اركب على
بحرته حين مات، وبطيتي لخص بان شيئا عريضا وقائيا نقيلا واحدا
لينا قد مات - رجل والرجل قليل - رجل لا كارجيل. بعض كارجيل
لنظري حل صفحات الماء وهو رفيع، وبعض كارجيل وهو ينقسم الى
بحيرات الجوهري وضع. وكان من اللذات الاولى، كسري دون ان يسكني
فساده من خشيته له وخيفة الحق وقهر النفس ومعرفة بهشاشة
الانسان، فلا يحقر الا على من عتا ولا يعتد تشديد. ولكن كم من
جرايم جيناه - يتقانون على الشفاء، فإذا وجدوا من هو الذي
تطلموا استغذاء. قلت حواك يا اخ العرب العاربة والمستعرة يا
ماذا ترى؟

مات وقد وصلني به خطابي. رسالة يتوقع ابنه يقول في ان والده
قرا خطابي وتأثر جدا بما جاء فيه، وشكرني على، وقد كلفه بان يخط
في تلك الرسالة - فترقي سباقات خطابي لثقة، مانقت حزني بان
قدي وصلني، فإذا الفرح والحنن يتكبان معا وبكياتي. كان ريب
على لغة جهاز بليوتس باطن لشعاري في مقفول السلطة يهوى
للتسلط والارادة التبعي والبشع وصغار الخصومة السياسية. ريب
بعض انساني صلي يحض ويضع ويضع ويضع وكان بالامانة حارسا لثقة
البلاد والبلاد. ما عرفت ذكره بخطابي إلا واحتيت الراس لولا
لذكراه. يذهب الجسد الغاني وتبقى الماشرة ■

أمس أبداً، يجب على الأسفلت بين قديمي نكروهما خد الحيلة التقليدية القانية
تقمني أبداً، توسل بكلمات من كرهه، أهل ورد بحق،
سخران ما استعز بكائن، اكتفى به ترويل بأسماء البقاء لا يتسلل إلا
مطلقاً، ومع طمانا، استعلان بالعبودية لا أسودية، يصبغ، يسهل على الظاهر،
والفصح، كيف يمتعه، يمدد به جولة للخلل والبرامح والسياسة في السخوة على الهواء؟
أين نيت سلطان الإجابة والتمس، متسانلاً: أهل ويسب أسالة أقدم أسالة على
أرض الترويل من السلاف العرب وسفروهم، والألا من أهل جاماني - أتة العرب
الجاساس، هذا - أهل الأسودي - أهل أسيا من أهل القواز، ولذا يتكرر

القاصر حلقته من كتاب وصديق، وصل مفيد. الورق اللطيف يسفر عن غبيرة
من خيط. الصفيح المتواضع أبداً، متعة العلم والعمل به. كل البشر أصدقاؤه
واسميائهم. كل ولته كبرياء للعلم، وعائزهم بأكثر مما عيبت. بالله لكم أحببت قرئتم
عصياً وقنوة وصديقا ومعياً - أنساناً فاضلاً جديراً بالعلمية جديراً بالاحترام. ■

نزوتی سوتیسن واهلوا - الذین یوزنون بالذهب فیخرجون به. ویوضفون فی الجرح فیبرنون. لا تنصفهم من صفات المسلم الحق غیر النطق بالشهادة.

وکیوتیریتین. كما اعلنت في عام ١٩٦٩ بانها ضحيت - وفريقها المساعد - في
تعميد القديس البرلويو للتسليخ. وبرتني تحمل جانب غزوات الاقارب
الاكاديمية الفكرة من مجامع استراليا وبرتني واثانيا وبرتنيلا واثانيا
وبريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وما اقدم - وبقيتها واثانيا
نوب ميثاقيل لوبونوبول الذهبي من اكدية العلوم السوفياتية. والنوب الذي
من الجمعية الملكية البريطانية.

حقني اقدم بان ذكركت العقائد الامريكية دأيت على التقليل على نتائج
ابمائها في التكمية العلمية بينما هي عبارة عن الكسب الذي، مكتفية بما تزوده
صحت من خدمة للعلم والانسانية. ولا اقل اذ اثار صفة تريم عنها غير اثنائها
العلماء التفتين الراصدين بسجمل الطيف القلائدية واستقلال ريعها في الحيز
من البحث العلمي. والمق. ما رايت اناسا يمثل تنسك ال هويكن وكناهم من
طية غير طية البشر. بانك ترمي زويين هويكن، مدير معهد العلمين بيفت اثرها
من كالتعويضات الخالية لدى "السودنة" طلب الاستقلال - بكناكم - علمين
السودنة، فلا تني شعب السودان مأثره لن كان في السودان من برمي الجليل.
قلل لن لا يرى شعبنا البشر في دواعي الاستفادة الانانية والمصلحة
الخاصة والتمسك الشخصي، وبسبب هذه الحقيقة وعاد ال السواب. بل انك لن لا
يكتفي لال او يبري لاصول. بل يكتفي خادما للعلم. خادما للانسانية.
خادما للشر. لا يروج لقل لن شيئا غير الفعل نفسه لم لا ينتقل جوازا او شيوخا.
لهذا مكان رأس ما يفتي صفر العلم في كماله. كما قال ابن المقفع.
يعني لمامتنا العارضة، ولما تلتنا الدائرة. وأما ما يقع الناس لمعك في الأرض.
سعد لك الله العلم.

اعبرتها اكسكورد. ليمتأ دعيت في أي وقت واخر غرض، تقوم لها بعمل. في لانا
لم تنس خلال وجودها بيات ارجو في تقديم خبراتها وعلما وشؤونها. في لآخر
مرة التفتت لها بكناكم وبوجهها الخالي قبل رحيلها للعلم. ذكر في لانا غلظة في
الصين تقدم لاجماعتها خبراتها وشؤونها في تقديم البحث العلمي. ويومنا كانت
هناك. كانت ليمتأ الجمعية الهلزيث - التي خلقها باسرونان قدس وتقدم لاهون
الجسور لن مسهم نظام التعمير بضمير - ولم انتقل لن علمها وخبراتها
الصناعة بضمير مقدم من الاثني. بينما كان لافوا برسانان العلم الفريضة
التعليم - بكناكم. بل لانه لانا ارشيتنا لنفسنا بضمير العلم. ولا تشر
للبررة الانانية الا طية. نعم نعمهم في ولدي ولك كرامة. ولكنهم ليسوا الاكثين
الذين هم باله. هكذا كانت امريكية منهم ذات يوم وكناهم لسان
بناكمه حافظ للجميل.

وبورتني من بعده ليس من امريكية نفسه في خاتمة مقتررا لهورم البريرة
بعضها العلمي. وكناهم الخالصة. وبورتني ترمي في كماله في ولان. في في تراشما
طعام لغير في لينة عالية مقرها سويسرا. تشد ضد اخطار العريضة النورية وتزعة
للتصلح النورية الشريفة. رافعة صولها الاين تشد من يهيجون ثمار العلم للعلم
وتعريض كوكبنا لا لا يمكن تلاكها او اصلاحه او تعويمه. بنس المسؤولية التي
خلل لنا كلقية المعلمة محادين. وذلك.

رحل راقع صرحا شومس. مقلنا في نفس كل من عرف فطنة الحية
والاثنان. وكناهم الخالصة. وبورتني ترمي في كماله في ولان. في في تراشما
العلمين وبعضها من بعض من مذوق العلم ريعه من ذرية المائة للرجل.
وأما كل مره تاريخي بعض من مذوق العلم ريعه من ذرية المائة للرجل.
للمائة التي هي - بكناكم لافوا الامريكية وقت وشيئا - مدمتة كابل ول
اعظم من ال الهول. يتطلع للتفتين العلمين بضمير ذرة وقصورها العلمين. وما
هي امريكية بين كل من هؤلاء للتفتين العلمين بضمير ذرة وقصورها العلمين. وما
يتسلل في انسانيون ارقصين في ما لم يصل على من علمها غير علمها
ثم من من. فخرت لاجلنا ليمتأ من نور علمها وسمر علمها ومناها
يتضمن الانسانية بورتني. وتزده على ما ذكر سافا. من تلامي من للرجل
البريري نفسه من سلمة كوكبنا من الدمار. واحد من جميع هذه الجهود
البريرية كان كيقها طية صرحا. ولا لانا ليمتأ من سلمة.

ويرع بعضها العلمي من يعرف بعضها العلمي. ويصني العامة لاجلا من
اطاع على قلته مغفرا الاكاديمية. وانما تلتنا في مجال التعميد. ولكنني
الفرية بانسنة كان في شرف لافوا بها وبها ليمتأ. رية بيت في بيتا. ولا يوجرت
الذين الراسين بالبريرة والتفرد على لانا لينا بالانسانية ليمتأ. ولا
بمرايف كلمة الجاهلية ليمتأ في كلمة التبرير. انسنة استلقت من الانتباه
بعضها واستلقت على قصصها التبرير ببقية. لكانت الاصولية لينا في
اللسانة والظرف والسمي وسمر لانا لينا وبسبب الانسانية. بأشكال الاياه
والقدوس. واستلقت لاسل ال اقدم الاصناف الرسالات. وقد تنسك
الفرية باضع كيقها للبريرة للبرية على انما مغفرا للرجل والبريرة
من اجل من كلف من كرم. كانت بورتني واهلها اهدر امدوا ليل من كرم
على قيرهم من باله. وانما شعب من خور واهل لانا من امن واضر بلمس ذلك

قلت لها ماعيا: انكم لتصون الاكثين... هذا ما لعره. اذاحت بؤرة
نظرة القراءه من عينها. تفتي السجدة البهيمية التي تسكع بها جانبا
وتعلو اساربرها انساناتها كائنا كانت. بالجل في ولدي. وانكم ليسوا الاكثين
الذين هم باله. ناس اذ وانكم بالذهب يهيجون به. ولا وضفتم في الجرح
بيوزونه. لا تنصفهم من صفات المسلم الحق غير النطق بالشهادة. حذار يا ولدي
من لخذ الناس بالباطل. حذار وانك لم تعرف لى من لا تعرف. قلت لها تصيرا:
وارني واحدا منهم لا يتقبل عليه قول شارع مغتلب الجاهل... الاكثين
وغيرهم وتعرفهم. كالتبب غدا والكلية غدا. نعت منها فسكة مونة
مقتضية خالفة ذلك وللت شارعك ذلك. انتم وللت شوملين مسخرة. حاسلهم ان
يكون ان كرايوه كلاله. سافا. ماكم يكرين ال كرايوه هؤلاء يا امي.

كان المستر كرايوه اول مدير للمدارس بعد الفتح بشاره في مطلع القرن.
وكان جده محمد احمد فضل بريمه الله ويصن الية. اول تالار لاول مدرسة
لتنفتح في الخرطوم والمدرسة الحكومية الوحيدة. المدرسة التي لا يزال مكانها في
قلب الخرطوم عند ميدان ابي جزيين. وكنا نكسك منها اذناك في حيث لقيتم الان
لوكاتة فيكتوريا. نشأت بين وبين جده التالار صلات احراما وود وتواصل متوة.
والف عشرينيا لمكسورا والى العلم. بل كان لروجه - مستر كرايوه - جميل
خلص من. تدمرتني وانا حبيبة لفرعها. واولتي احسنا الخلع. فكانت ما
سبست بامارة تحقق ملوة الا وامرت بها تعلمني طرقة ما صيرت فيه. حتى لقد
استجلبت في ذات مره على نافتها بدوية من داي لاني. تعلم طريقة صنع شمال
الصوف العربي. لن لانا في ذاتي مجيلا لن لانا لانا في سترتي صاحب البهيمية
وهميت. ومن لم يشكر المخلوق يا ولدي لم يشكر المخلوق. اياد ولدت البرية بتمت
تجده بامارة في بلدنا. واذاكم بعد مونة صمت ترمي في اصعبها مدرسة طمنا
صحنك يا ولدي. نعم. نعمهم والى العلم.

وبرغم كل ذلك تفرعت بؤرة من سدري بفت الاكثين. فبني ويومهم كركويه
وشهد لانا. وصوت جودنا عائشة بفت مسطفي لرد صواح مساهل اعلى ال
وقد في كرايه. في يومهم كرايه. قلت لاني هويكن - فمضت حين الذين قتل
في كرايه والى الحقيقة بعد لانا لانا في "الجهدي". نعم فيه لاني عليها تجاوب
قائلا كتنسك اسمك بيري التفتين سوما الحديوي المسخرة. شتيع الفضية
في قلبنا الجاهلية. اظن واقفا لا امل ولا احس بالوقت متعرا ليمتأ العلم السلام
للمهدي الامام

المائة التي اناسيا في منزل ال هويكن في طابون. جوت جامعة لانا. في زوج
توماس هويكن. في يومهم حديد الدراسات الافريقية حيث كنت اعمل. سديتي
الصين الجميع. اسمها دورير هويكن. وكناهم الخالصة ان تكون هي بلت
جون كرايوه. ولكنهم امي كذا التي تعصت باعضها ميبية سودانية فلذا بذلك
الجميل بل مضموسرا. اذما حتى اسندت صاحب البريرة بيمت. ولا يذهب
المرع بين الله والناس. بنت لانا الذين قلت في عنهم والفتي بتمت. نعم.
نعمهم والى كرامة. ما هي بتمت لانا في تيمس بيري في ذلك البيت الذي لا يقلل
باب في وجه احد لاني في طابون. فقلنا. دوريري كرايوه هويكن.

داس. مادم رجلي في احدى غزوات الانجالية للتفتين بضمير وكلمات لا
تستبين بين حين واخر مقتررا. فليكن ما انتقيت بما كذا تاتي ال لانا في لاسدي
الخلاص اكسكورد القليلة. نعم كان لانا بما تامله في مكان آخر. قلت لها في
مطالتي ان يفرق بين كرك ورجل. كرايوه. مدمدا كرايوه ما في كراته في كتاب بوس.
مترجم. سديتي. انما نظرية البرينيس (التالار التالار في التفتين في التفتين كما في
الكركين كرك انما لم اخلص). رجمي. لم يتبسم في مسخرة اربابا او استماله. كما في
تتمسك اللم في اذا موميتا. او تهرني - وبق لانا - ارج يا ولدي في تيفه
البريرية ان اسكن ولا لانا لانا. وكناهم في كرك شريعت تقدم في شريعا جادا
بصورتها لتعمل الطيف الحسب كوسيتي روية خالصة. لم اقم من ذلك الشرح
حتى هذه اللحظة ما اذ كانت نظرية البرينيس في كرايوه رجمي - كما قال
ذلك المؤلف السالطين - لم اقم رجمي. فقلت كرك سافا لكركي مع شارلي شابلن.
حين رار شارلي شابلن العلامة البهيمية لانتشاكين. بل منه ان يشرح له
«النسبة» في هذه العلم البهيمية. هذا كما لو طيت متدا شابلن ان تسال في مورا
من اربابك في هذه اللحظة. ولكن بما ان العمل كرك كان على قدر من الاطلاع وقد
استعد لقفلة الفقة. فقد رار عدة تالارات جادة استحققتها بما متانقة زمام
الساعة. في اليوم الثالث بين شارلي شابلن بصورته موقعا عليها تحت هذا الاعداد:
وال اعظم مبرية في القرن. ارجو ان يكرين اعجبه تشفي بالاسر. يعصد
التالار.

ولم الشين من الفتي. ولكننا ليناها بورتناضما وطاعة نفسها. بعل الله وحده
كم جليل كان بتمت في البريرة بورتناضما في كركي في كركي مكرين ان يقلل
بها كرك. كما قال ابو تمام. وقد ينهني ريسل كركي ليمسك ادم البسطة
والمحزونين.

...عندئذ فقط عرفنا ما فعله عبد السلطيف هذا حقاً؟ ردت: «انه
«لا تقولي لي يا فاطمة افضل عبد السلطيف هذا حقاً؟ ردت: «انه
شخص عظيم بحق... انسان نادر، لهذا قلت لك انت وهو رقيقة
اخواني في نظري سيان لا فرق...»

وضوح بالتمام. وبسطة وايقال يعيدك وينقل السطيف يبارك لا
يضيع وقتك او وقتك. يزدي الفريضة الاجتماعية مبادراً على السطيف الاقل
لا يظلم ولا يتكلم ولا يلوغ او يحاسبك على تقصير سبق حياه. كل شيء
عنده يقدر الا اساءة قلة. ما رأيك بيه عند تشاركتنا في الحي حرجا او شياً
او سطفاً. يخلط سني غريبي الاصفاريه، حين كان القادم من أرض
الوهران يتحسر على امسلة ضحيا وسيفها التبريد ونظام الخبيث به
افرن من هوام البشر، وعلى اخلاق الفيلد تديلت. انتكر ان لها ارباباً
لا تكتك توفيق لديها الايسار من اهل جارتا عبد السلطيف. وهكذا حتى في
الباس تقتل على لؤادي العثمانية حيث طيلة الشعب باقية يفر ما قل
لنتكلم هم معها الاصيل.

في زيارتي الاخيرة للسودان طرق باب بيتنا. اصيلاً. عبد السلطيف. اعتر
عن الفخول مرة اخرى كما قال فوين بديه عمل كثر. ولكنه جاء ليفيحيه بان
خاتن انجلاه صبيبة الدف يوازن الله وثنا مدبر لعل الاطوار. ان لعل
بارتباط سابقه وعامة. غدا يوم فرحة جارتنا فهي فرحتنا ايضا. قلت له
مديونة. اتتم لك شيء، خسرانك لندك غداً بلانك الله.

اخواتي السلام عليكم والى مديونة... اين عبد السلطيف؟ تقبل تقبل
عبد السلطيف خرج لاسر علم وسعود فوراً. لا يكتك الانصراف على انت
قائم للظهور لم اعيد السطيف، الظفر جاور... تقبل. وهكذا، من استطفه
عبد السلطيف على الدعينين ان يترك احد يظن ان يميل احد السطيف
الداعي. جاء خزان علم. من اشهد ما مكال ولكن الاشياء من ما يواكل
لله انساك يجمعهم. بسطاً كاسباب رسول الله. تظلل ظاهراً ويظنك
السطيف او يظن. يبعد كل واحد منهم فيما كل ضفوف فيه من حديث
بذلك، ولكن ان احتزان من اى شيء نفسه اقل من سواء مهما كان سراً، ولا
توضع من خلا تماماً من الصمت. بعد جاء اهل الله من سوية من تكلم.
جماعة تتعشع وجماعة تجلس والداعي لا يزال غائباً. احرف بعضاً ولا
امرف الباقين. يعزاني بعض ولا يعزاني آخرون. يغلط الواحد الاخر
وكلته بعد من مديونة. ولا يايه يسرله ان هم او يتقدم نفسه له الا غدا
الانصراف. هكذا يفعل السطيفون. قلت ان حلي انفسا، اسمعوا لي واقل
لتامعوا صراح من استطفه فيه عبد السلطيف. لا بل انشاي فهو في الطريق
يا والد جيرة والفاي. ووضعت منتظراً الشاي.

وقلت على السطيف ان قل من اهل الحي والاقارب. قلت لهم ما حال غياي
بعد السطيف من ضفوفه. كيف يدور كل هؤلاء الناس ويختلي. من احدى
انصرافه للذباب في متسعة كده؟ كمت احدهم كمت كمت استعان به من احدى
لان يدور عبد السلطيف لا تشكك في قطار السطيف، فاصطفيه ليل الاشكال.
قلت: ما كان الاقل به ان يبين لهؤلاء النفر علوه القاهر يرحل خاتن اطفاله
وله بيوت ضفوفه؟ غداً: منى عندى. عبد السطيف ان استعان به
مستحاجاً بعدل شخصي. كاتك لا تعرف عبد السلطيف؟

انصراف بعد ان شربت الشاي ياد داخل الضيف الزوال ما ظهر بعد
السطيف. ولكن ما شيعت الله ضيفك وهو غائب. من منهم انصراف دين
حافلة واكرام وكان اداعي لم يقف بعد ويعود بعد في مكان آخر لرحل كربة
سواء.

علمت انه يعمل الآن بمصلحة السكك الحديدية بوازمدي. لا اخل ان
عنه سطلع على كلماتي هذا الا ان يبنيه اليك السطيف. وهو لا يتوكل بالتيك
ان يكتب عنك كاتك على يواكل جان. بعد ان لم يستع مؤقناً ان كان يظن ان
انني لا ايات اكتب ان تذكر انتي اكتب. وهو فطما لا يخطر بباله انه
مسحلق لان يكتب عنك كاتك او ان ما يند عنك سوية يستع كاتك من
كاتك. ثم لا اعلم كيف يستقبل كلماتي عن هو الذي لا يتظن ثناء من
احد حتى يايه للثناء. لم اكن كاتك عن كاتك عن لغيره هو، ولكن لغيره فيه
بان من الممكن ان توجد العظمة دون ان يعلق عليها هذا الاسم الغريب.
ومن الممكن ان يوجد انسان عظيم من غير ان يظن ان انه كذلك او انه
يستحق ان يوصف بانه كذلك. بل اغلب ظني ان عبد السلطيف سيروي فيما
كاتب اسرافاً في سيفسفر ان لا تكتكنا. ولكنني كاتك ما كاتك. واعتدري
ان سويت له بذلك حرجاً. ليسيتن القارئ، الكرم بان الانسان العظيم لا
يوجد بالضرورة في امسلة نائية في خيالاته تستعني مع الواقع او يستعني
عليها الواقع. بل في يكون انساناً عادياً وبسيطاً ولا يميزه من سواء ظاهرياً
كثير شيء. ولكنه انتم تسمو بان يراد الوجب واللايق والحرى
والصحة. مما يري نفسه على تواضعه السطيفي اهله، وما يري على ما قد
وصيحه من متعة جديراً به... مثل جارتا عبد السلطيف نصر الذي من خلفه
وعرفته وجهته جديراً بالمية جديراً بالاحترام. ■

كان العم منصر حلاقاً للجيش البريطاني بطريقهم في الاربعينات.
واذى تقاعد ظل يقيم بمفرده في منزل يرباج اهل بيته عبر الشارع.
على واجهة المنزل لوحة حديدية صغيرة مكتوب عليها: متحف السودان
لالتقوى. بعد حق، فلم يكن بالسودان مصفاً للتقوى سواء. على تواضع متحف.
عند مساحته بركاب الباب، ينض من مصلحتك لارتباطه في معناه تجميع.
يتقدمك دائماً باشاً لفرقة يتصدروا مجهود عبر بكتله. غزاة زجاجية
يظلم اللامة. تفسد عليها مروضته من شتى العملات البريكية والعدنية
من بلاد شتى. يحدك عن كل وساطة ميسية واعزاز. لا تقبلي عن ذلك غير
السيرة. لقد صنع الرجل ما لم تصنع جهة رسمية في الاول بذلك: اسس
متحفاً للتقوى في الحي هو الوحيد من نوحه الذي كان في السودان اذا
استبعدنا مجموعة بيت الخليفة الخاصة بفرعون والمهدي وحسب. ولكن
المسؤولين لم يسمو به. ولكن سموا ما اكثرنا. ونحن ظلم العلم منصف
في المعرك بصره. سحنا من لا موية لا غير السطيف على مجهود سواء. كاتك
المر. آخر مكافاة له على ما منح كتبيين من متعة وعرفة. على ان الكتز
الحقيقي الذي خلفه، ان اى بقدر انني انتهازني ضحبي على السطيف
عليه. هو اينة هذا... جارتا عبد السلطيف نصر.

الى مكان عمله او مثلاً، الى مصفى الحي او لقالا، الى معاملة اجتماعية
او راجعاً. لا يتوكل عبد السطيف لتثرة او لمو او فصول. ويحك طلق الحيا
ويظنك لاطية. لا يستوفك ظفرك فيه. سودانياً غير امثلة. غير اية الميم.
ويجاء المتشرب يرفقه. مقتدر على ما يقع للنس او للنس. مشين في
غير الظاهر او استعراضي او مثلاً، خدم ويهش الى الخدمة. وسفر
بالسلام في الضوء الاول من الصباح تراء يكتس في تواضع جانيه بيته من
الطريق قبل ان يتهيا للخروج الى العمل. تظنك مظهر مديرة. عفيف
لهجة ريداً. شريف مائة وعاملاً. ما كان في الحي من فرح او ترح. فهو
اول من تراء مهتناً او مديراً. واول من ينصرف حين تكتك الاجال. اما اذا
الفتنة عند اشهار ماتم، فلا تله في العلب الايم ذهب في ليل ليس في تقاليده
بعد حتى الآن الصنوي المتحرفة، لا يكتف القدر ضفوفه وتبديله الله. اولياتي
بسادق الجمعية الخيرية التي يادر من الفجرين كرام في انشائها لهدا
الغرض. يصعب مع شهاب واحد لا تسمى بويهم الا احد الحلية.
تعرض عليهم يتسهيهم. ويحال الذي يكسو ملامهم، ولعرق التصيب
على الاصداغ. لا يبردين من احد بذلك جزاء او شكراً.

تقول النصارى: الجار قبل الدار. ومن ثم لم علينا ان اكرمنا جارتنا عبد
السطيف هذا. فقد ظل يري حق الجيرة المقدس في يله يردد امله بلف
اروى حتى ان سابع جاري. كمتي في شوقي في اعجاب مائل جارتا في
هذا الصند. تقول لي انه يوازي مرتبتي لديها وياك ارج لم قلده الامم. تقول
لا تسمع بما فعل عبد السطيف عند زواجي بالشهيد الشقيف؟ لا لم اسمع يا
فاطمة. ماذا فعلت اليك اذن؟

ما كان ما كاتكنا وكذلك مخرب في العمل المصمعيه الا ان يكون محل
زواجنا متفراً للتميم ولا اكتفينا بدموية علم في للسفد واقمنا الحل
بديان «الربيع المجاي» معجود الضيف السطيفون في مثل هذه المواقف شمامة
وكراً وتصدياً. ولكن الوالدة رحمة الله عليها ادعت عشاء ان لا ننص من
دمويتهم للعضاء. وهكذا كمت البيت بالدموات.

صادف ان تالفت لمة بجارتنا عبد السطيف ظفيرة ذلك اليوم وفي
الصدا اسلمت الروح بالسلمة لبارتها يرحمها الله في ذلك الموقف
المجلى. ولا اقصى من فقد الامم. تجلى شيوخ عبد السطيف الذي لم تزعج
الصحة جلته التليل. جمع اخيته وزيهه وقال لوب بزمك لادعيت مزييتنا
الغالية الى لقاء ردياً مرضية ولا راد لقضاء الله. ولكنه ان يسمح
للبيضة على هولاء ان تحبل دين القيام بما يلقين ويغيب. لذا ان يظن من
ايمن ان تربع سوتها يواضع او عويل. كما ان يظن الخير حتى تصدرك
آخر مديونة للتمسبة فلا والله ان تفسد على البيران الاعزاء فرحتهم
الدموع تدارف دركا في صمت مرير وتصبر ام ارجعهم
للتسلي وعبد السطيف واهل بيت يطرون لاضحاهم في الامم بغالين
النس ونمن يا صلاح في بهجة الفرح وضوحاً المجتهد من تقبل ان
حدث. بل اليوم التالي صملاً على اعلى الخير العزوين حسيه ابن
سامته. ليل لنا بل حدثت صملاً على شساطنا لاندك كيف لم تليفونا بها في
لطاحتها. عندئذ فقط عرفنا ما فعله عبد السطيف. فكتت بما «لا تقولي يا
فاطمة. افعل عبد السطيف هذا» ردت: «انه شخص عظيم بحق يا صلاح.
انسان نادر. لهذا قلت لك هو وات وقية اخواني في نظري سيان لا فرق.
عظيم عبد السطيف. ولتت عليه الكلمة. صعد عبد من الله الله فيهم
ومثك حين تقف عليه العمن. خال من المسلمات اللطيفة ولكن وجدته يضيء

...تقصده نائماً في اصر، يقابل نعمته بانيسامة اشفاق متفهمهم. يستمع اليك في اناة وصبر ودمائة. يسالك بواقعية: اكنت تتوقع ان تجد في وطنك هذا غير ما في وطنك ذلك؟ الحال بعضه هنا يا اخي يشبه بعضه هناك بزيادة او نقصان....

يستبدل جويسك بياستام. يستل بالصدق الذي في عينيه، والصراحة التي في وجهه، والبسمة التي على شفتيه، والتواضع الذي يفسرك فيه، كل مودة حتى قيل ان تلج في الامر. واذا بكما التفتكما الى شيء آخر اقل خصوصية وحساسية وكثيرة. على انه لا يهمل امرك او يهمله بالكلمات الناعمة. انت راقت انه سيبتدرك بحمكتك او همته فلو انصراك ان لم يكن قيل ذلك، فهو حريص على حسن ظنك ويضاهك حريص على اسم بلاده الغالي. ولذلك فهو تشارك ظلالاً او مظلالاً، جد مهمتكم، جد مهم، بان يريك يتطلعه من جزائره الحميمة وجهها البشوش، بل كان هو نفسه بعض بشاشة ذاك الوجه الكريم...

تتسامر في صفا، اسأله هل لاسم طاسي دلالة ما؟ يوضع لي جل خلفنا منه ميماً - فورتقنا التقليدية في ثلثه - وما من قسوة ان كنت تعني ذلك. نضحك. اسأله للعلم بالشيء وحسب، كيف تعة مسجونين في بلاد القبائل يا عبد القادر؟ وهل اعز الاسلام مثل القبائل؟ ان كانت فعل الاصابع... مسجوعة كولونيالية غربية استعادت بغير الاحتلال ولثة المهور وما هي بمسجوعة، تاريخية، نابعة من الادات كمال التي في المشرق - غالباً ما جاءت بتبني الالاء البشري، للعلم فقام دين كنهه او مستكشف دون غش. فهو ان الاحتلال والاستغلال باكثر من التناص للثقافة، الصر وهو القسط والاستغلال بقناع رصعة زائلب. ومع ذلك اليك واقعة ذات دلالة. حدث ان تبني احد المستعمرين غلاماً قبايلياً اجبره على اعتناق دينه، ولحقه ما حلال، ولطمان على الانتهاز، وانتهى بتسويل امكاله له. ذات مرة، بعد بض سنتوات طويلة، دخل الرجل مصلداً، فلما ربهه يورويده يسلي خلفة صلالة افغلي المظفرين على امرهم قبايلاً وكرهاً وسجوداً، قامت عنيا الفرنسي، شكا الرقيب الاقل للمحكمة محظراً بده امكاله اليه. قال الرقيب للملك: لا مانع لي من به امكاله اليه، ولكن شرطه ان يسلي يراني صلاتي بعدد السنوات التي اجبنيها عن ان اصلي واده صلاته.

اسأله: لماذا لم تتزوج حتى الآن يا اخي عبد القادر؟ يقول مر الويات وام اشعر به رغم الحاج الوالدة، ولكنني فاعل عامي القدام ان شاء الله. اذعني له ان تتم فرجه بالخير، لا يستأهل كل خير، نضحك.

يحدثني بسمية وياه عن اصفاته السوادنيين الذين اقامهم في الامم المتحدة. يقول: كنت استمع عندهم لافاني علاء الدين حمزة. لي تصديق انني تحمزت على كلمات كثيرة في الهاتية النورية التي نفس للمني اوريبي في لنتا القبايلية؟ قلت لملاحظة اسوداني نوبي كل بلجراثر. اكدها واسر لي انه يفسر القليم بدراسة في ذلك. لي فعل.

آخر ما علمت عنه اختباره سفيراً للجزائر في سوريا التي تلقى تعليمه فيها. قلت مصلح سفير العرب جميعهم في أي مكان. نويت ان اناجبه بتبويه عن في مسجوعة مريية حتى يهرب أي أثر يترك في النفس اضع مما خطر له يومياً. قلت كلمات تشويه صادقة بان سجالها السبعة، والخاصة لوبك والمروية، تحدثت عنه من وراء ظهره ما رو به اسمه في مطل-وهو لا يدري. كلمت تذك له ان مكارم اخلاقه لا توصلها صبا وسناتنا دون ان ترمعنا عين منصف، ولم تترك عدداً لذلك في استعواض او افساس بالذات. اكنيت اسفاه فخرت كداتية المصومة، ما كنت تصعب ان اذعني سريعاً هكذا. قيل ان اسره بملجاني التي هي شواهة حق.

عرض مملجاته بثنائي عليه للام، انموذجا لتبني في الجود الملتزم في تسم، والديبولسي التسمي عموم القليم في الصميم، فلجاني في «البرم السايين» بديا خياله اليه ما عودنا اياد. فلذا اللقد فيه جد جسيم وجد اليه. لا الجزائر بدهما - امة الطليبة الاربعة - فتمزيها فيه، ولكن للبرية جمعا، والمثالب السلبية، والهمة والاخاء، وللال المتجسد فيه، حقا قلينا فيه وادما منا، عزيزاً لعينا، اليه مذن ان لقيه جديراً بالبحبة، جديراً بالاحترام □

لكم هو سمح عبد القادر الجزائري هذا... كم هو سمح! يتطوع لاحدهم مفسراً سر هذه السلسلة التي ليس فيها من ولكن... دمطوع. لانه عربي، يفسر آخر هذا للتفسير: جملعة وقد تلقى تعليمه في المشرق. او لانه فخر الثورة الحقيقي. يتبرع ثالث بتفسير من زاوية جديدة وجديدة لا تلتل وجماعة، مكيف لا، وهو القبايلي؟ القبايليين خيار الناس. ينطبق عليهم تماماً - ولكانه قيل فيهم - وصف امير الضمراء في الدور: ذادة وفارة ضيف، كيتوب الصفا خشنوا ووقوا، نهمس لئيسك: ايا كان التفسير، سماعة اخونا عبد القادر (والحققة تارة مسطحة وتارات مسخلة) تجري من عين صافية دماغ. ان يكن هو قبايلياً، فهو بثنائي جيد. او جزائرياً، فهو جزائري جيد. او عربياً، فهو عربي جيد. لانه في القلب والصميم. آدمي جيد. لقد عاز من كافة انتماءات للتواضعية هذه، خير ما فيها. فصار لي كل واحدة منها على حدة، خيال الفخر.

قد يملك - مهندس وما هو عربي - من بعض المتكلمين مسترهم في تحصيلات متينة من الاتصال بالانستاف والاستفكار... ولا خط باراييف! تحسب الصد والقلل موجهين اليك شخصياً، لكك - حسرتاه - عربي، او افريقي، او لا تدير الفلتسية، او لانه قد من يد بهجي او غير متطام، او من بلد مقرر الى الله تعالى لا يملك قوت يومه، فترين عليه كابة ووشعة. واذا بيزمك المتشكي من نفس الاغتم، من دولة كبرى او خنية، او من دولة مسبوقة ذات مصالح وثيقة، او من دولة تقسية او ثورية، او هو متخلص بلسان «ماريان»، فتشعر باغتمبل سري، حيث المساواة في الظلم عدل، وتحسب لسانك من الشكوى، إذ الشكوى لغير الله ملة. يعلم زميلي: «انتم على الاقل تميزون بخلالكم للشخصية بيشوكم مواطني هذا البلد. ولكننا محسبون في «فيري» ديولمسي. نفس الوجود، نفس الاستقامات، نفس الصديقه، نفس الفتك. آخر تكا وإن لم تتأني بهذا القصد: طلب ولد راثر من مسفرهم للتشغل لدى مسؤل بيزام و يورينه لتكليل صموديات، اعتذر سليفهم بضييق ذات التشغل. انكم لا تدرين انه لاسول في ان القابل الرئيس يوردين من مقابلة لك المسؤل... اهاريو به دوماذا تنتظر ان؟ قيل الرئيس يورينه في تحديد مقابلة لك مع ذلك المسؤل... لتستأمل ما مبرر كل هذا الجفاء والاشقاء والازراء من بعضي؟ تجمعت المحكمة، والله غالب، ولكن ينفض وهاء انزوار هذا الفخر تطلب نعر آخرين، كان منهم لحسن حفظنا لغربنا عبد القادر. لحسن حفظنا، لانه كان مدير الادارة العربية الخارجية وما يصير من اختيار.

ان درس الهالكات وبالطه في أي وقت، قلن مضمون مقترحه عن لفياب او اشتمال، فهو حاضر لنا وما كانا كان بانتظارنا. اذا اما كان غائباً بحق في المعية، فهو الذي يبركنا بالاتصال فير حومة تخليق حواء الانتظار للمادة او الانزابة في انه هو الاخر يوجب ظليقة الاخفاء، واذا دموته لبي، لا نحن كزاي ووجب الهائلة بشرو، لكن، ولكن في اقبال منشر للقاء. واذا ساركنا لماخ لايخ، لا تحفظ ان تسمى او تسمى، يتفق ويتقبل، يتفق ويشتغل، بغض النظر عن المواقف الرسمية، حيث كللكاما واقف تحدث نفس العلم، لا علمك ولا علمه الخاص، بل علم المعوية الواحد الذي قد يكن في مستقول ان اذعني علم كليك. بكلي مؤلفاً لخصاص مشترك بيفلقته الرابع في الجوانب. ثم اذا به آخر منصرف. ترويه الوداع الحميم. ترويه في الاخ الكريم وقد استودعك بجمعة منه، افكاراً ومضام، في موده وصبر لاهاء. تقصده نائماً في اصر، يقابل نعمته بانيسامة اشفاق متفهمهم. ان كنت هي حق او خطأ - باكثر من حسن التخلص الديولمسي. يستمع اليك في اناة وصبر ودمائة. لا يسترضيك بمر كاذب او تطعن لوجهه. يسالك بواقعية: اكنت تتوقع ان تجد في وطنك هذا غير ما في وطنك ذلك؟ الحال بعضه هنا يا اخي يشبه بعضه هناك بزيادة او نقصان. فلتستيق بعض نعمته للشكوى القلادة ام حسبت هذه هي الررة الاخيرة. انتك لانتظاره. نضحك. هكذا

... أين تراه الفتى الفلسطيني الذي رمى بالمسطرة
والفرجار، والحاسبة والمنقار، يحمل على كتفه
الكشكشكول، دفاعاً عن وجوده وأهله ووجود المقاومة، أتراه
يبتلع الضرب بالخضيرة الحبة كما التفت الضرب بالارقم؟
أتراه يستقبل الموت بنفسه البشاشة التي استقبل بها
ضفيحة داكسي البشرية من إقصاء دار فو...؟

[illegible]

«أهلاً وسهلاً» فخطوا! قالوا طالب جامعين، قال الأستاذ لهنوا وسلا حبيبات أهذا العربي يجرع جاء ألعاباً في الدراسة بلسانيات، الطلوعيات التي صمت بها لفصلنا الممل الكون آمينة، لا أشتا أيضاً عن فرصة الفصل، أول رمود ألبان والبقيع، وكذا البجيرة كمان، نحن، في عيلانين في أرض اسمعلا، عولانين عولوا لاحت، فقلت لطلبي العيلانين من أهله، «المستديرة» في وجه رشكة، أما كاتلونا فقصص، كجم كلاك باقتن من حيليلك قبل زميلتي في العادي، فيرمو وقاضية، ممدلة، ثم في أية ممدلة، أنت؟ أجبت أنا المستديرة، «أهلاً قال من مفرقة أيضاً لا أشتا استيقان أديرس السجيرة واسمعه زميلتي» - لاسمسي في السجيرة زبواهد - لا أديرس! جاء عاز، زديده عيل ذلك ما استديرتة، جاء يصعب السجيرة، دهوت كاتلونا للكتامه بمنزل كاتلونا لقتلا وصحت.

[illegible]

...كان دكتور كولينز مسيحياً، لكن يده ممدودة في غير عرش
السي ليس في دينه. كان داعية لدينه ولكن من غير تعصب
ضد مخالفيه ومخالفيه. كان تجسيدا لما في المسيحية
من سماحة، ولما في الإنسانية من ترفع...

اميركي كان معلماً للإنكليزية والأدب الإنكليزي خلال الستينات
بكتبة في غرب إفريقيا. كان أكثر من مجرد معلم. كان دبلوماسياً
به كنيسته ايدعو لها وللمسيحية. التقيت به في مؤتمر للغة الافريقية
رغمه مؤسسة مفودة، اقيم بجامعة طور بايو بمجلسه سيراليون -
فريتاون. كنت مفوداً - ضمن وفد ارسلت جامعة غانا - من معهد الدراسات
الافريقية ببلينز قرب «أكرا»، لدراسة وثيقة حول «اللغة العربية: ماضياً
ومستقبلاً في إفريقيا». اما هو فقد جاء لاحدى دورتين تقامان على هامش
المؤتمر: احدهما عن تدريس الفرنسية والاخرى عن تدريس الانكليزية
بالإفريقية. ترددت في الذهاب ولكن بعد معهد الدراسات الافريقية - توماس
هودجكن - من حكمته وامانته حيال العلم وإفريقيا بما أدى لخدمته للعربية
والاسلام قال لي بعض: «ستعرف جدرى وجيك هذاك حين تكون هناك.
اذهب ولا تفتقر. فومت هناك ما قصد.

اكتشفت كلانا - دكتور كولينز وأنا - في الآخر حباً لشعراء يعينهم على
اسمهم «دالت ويتنام»، مما يمنع من مزاج مشترك. انتدب صداقته الجديدة
عصي لمصاحبي بالأمكان في المؤتمر فانا غريب على تمامه. اذ العربية
ليست لغة افريقية. كان ذلك قبل تأسيس منظمة الوحدة الافريقية التي
تبنت العربية بعد صراع ساخن ومناورات، لغة رسمية واسمهم في تحقيق
ذلك تدخل ذكرى من عيد الميلاد. قلت له «أتأنا، لوصفت» الذي لا مكان له
في هذا المؤتمر الافريقي، هل هو انا الافريقي الاسود بلغتي التي رخصتها
من ثدي امي. ام انت القادم من وراء البحار بلغة يبيعها السلاح والتسلط
ويمنع ما عاداهم.

تخاصمنا في امور شتى، منها موقف بلاده اميركا من تفنيلها تحريرو
القارة ومساندتها أنظمة التسلط الاستعماري او العنصري. بينما ظل هو
يعلمني من روسيا بمساعيها خطراً اكبر ولم يبرهن لي كفيلاً. اما بعد تلك
في قاتلاً وكان اكتشاف حقيقة كبرى: «ماكاننا ان نخل صديقين حتى لو
اختلفنا في الراي كيبس كذلك» اجبت: «هذا ما كنت اراه وانت الذي
انصرفت عن مهمتها لاي يخدم العلم وربما التخلل للعلم. على أية، مريباً
يك صديقاً اميركياً ما فوك من فضولة انسانية وليس لا لايلاك من حكمة
سياسية».

اتخرج ان نتحدث من مرتفع طور بايو الى مدينة فريتاون، مضياً على
الاقلام. رحبت بالفكرة وشرعنا فيها. انطلقنا في الطريق نشترى بعض
النجان. متجر صغير متعلل في مكان يستبان ضياء مصباح زيت امضى.
صاحب المتجر الضمعي المتواضع مقتداً حسيماً في الارض امامه تفت
واطىء وانحجب ينقل اسطراً من كتاب امامه الى كراسي في استراحة تلم.
كان يكتب من اليمين الى اليسار. يكتب بالعربية. فقلت: «ها هي العربية التي
استنكرت يا دكتور كولينز حضورها في مؤتمركم. ها هي في الطريق العلم في
اجوان إفريقيا. هل درسي حور من خليج غينيا. هذه السفينة تصرخ في
الشارع الافريقي ان اذكرتموها في تالمتكم. (هناك قصيدة في ديواني
الشعري «غمضة الهيبا» تشر الى هذه العادة...)».

قلت لك اننا عثرنا على المخطوطات العربية حتى في «أكرا» وساحل
الاطلسي من هذه الجهة. وان البحلة «ابو ويلكس» اكتشفت ان دولة
«الاشانتي» في القرن السابع عشر كانت تتواصل مع الدانماركيين الذين
نزحوا بساحل الذهب باللغة العربية. وان طبل حرب «الاشانتي مينيه» ملك
مورك - الاشانتي كانت عليه تعويذات اسلامية بالعربية مما اسره «ابو
ويلكس» انه كان في طريقه اعتناق الاسلام هو وانت لولا دخول الرجل
الايوبيين من السنغال في حوزة كات في شمال ساحل المواجه مثابة للعلوم الاسلامية
لا تضامها في ذلك ان تميزكرو يقصداه طلاب العلم من كل صوب. وان
الحاج عمر بن ابي بكر الكوري الكندي الصلوبي الذي طبع له في قصته
التي طبعت في مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ووجدتها تباع بمسرح
ام درمان. اسس مدرسة لتعليم عرؤن الشعر العربي وعلوم العربية في ما
هو غانا اليوم. وانه كتب بالعربية قصيدة اخلاصية يصنف فيها توغل
الايوبيين من السنغال في حوزة الامم. ان ابي اشار فيها الى اكثر من
ماتني بلده. ولقد ترجم الى اللوساوية مطلة امرؤ القيس نظما عن
اللوساوية الى الانكليزية من معرفة بالعربية لتعميده الانكليزي «رانتري»
فلذا بالنسب الانكليزي والاصل غير المباشر العربي لا يختلفان لولا باختلاف

تصوير «السلجة» وسفرها، ويرجعوا الى العربية عرلت انها المرادف
اللوساوية لكلمة «الشرا»، وان الحاج عمر رد بابيات شعرية هل بسؤال
شعري من احد طلابه حول الكوكب الذي يدعى (مذنب هالي). وان الخط
العربي كتبت به. في وقت، احدى عشرة لغة افريقية. هذا هو الاسلام
الافريقي، والعربية الافريقية. فكيف لك ان تنكر جهوي في مؤتمر لغات
افريقي، لانا ابن افريقيا الذي يماكننا ان يرجع الى ادم فيها. على حين
تبيحون لتأسفكم هذا الحلق وما اتتم من افريقيا بشي. للمسبح يا دكتور
كولينز وصفه لائل هذا المعيار المزوج وانت اعرف بالانجول مني. على
الرجل الطوبى: لا تقنع بل الخصام من جديد. دعنا نخل كما نحن
اصدقاء ذلك افضل. قلت له: بلينك لاسيما اذ كان الحق صديقاً لكليتنا.
وصلني منه خطاب وانا في غانا. قال لي مرت عند عيرتي بتجربة مثيرة
بسيك. لا ادري ان علم زملاني المبشرين الاخرين بالرأي رايته
والخوف الذي اتفقت ماذا يمكنهم به. انا نفسي لست على طمانينة
تامة من صوابه رسده. كل هذا بسبك انت اذ كان لك تأثير كبير فيه.
استقرت ان يكون لي في شرم لم اشر فيه او اعلم به. اخذت اقرا
مطلعاً والغضب بين ايراني في السودان.

ذكر لي في كتيبتا طلب مسلم ومسلم، الطالب المسلم الوحيد. دخل معي في
غاية الانكباب منذ ايام. شكنا في ان بقية زملائه المسيحيين يسفرون من
وهيئته بكونه مسلماً. هو لا يعرف من اسلامه الاسمي شيئاً ولا يصبره
بل يدرسه ويوقعه ان يصير منهم مسيحياً حتى يتقادي السفرية والاهامة
والعزلة على الاطلاق. ولكن شيئاً يفتري عزيمته. فهو ابن رحيم
لحضوره من «الانديتق» بل الابن الابعد. فلذا ما خرج من دين ابيه مات
الاب في حبه غماً وحسرة. جاء طالب النصح في حبه والفرج من مازله.
فلذا انا في حيرة ليدعاً. فلنا لا يسمني شيء. فلنا بعد حين شال ولكن ان
اتجمل موت احد او تأتبه ضمير انسان فهذا ما لم اكن هل استعداد تام
له. ولست على استعداد.

هنا خربت يواني ذلك. فقد كتبت المسلم المثلث الوحيد الذي تمارت
معها. والصدوق المسلم الوحيد. فلذا لي لجد نفسي ازوده بصيغة فيها
مفرج. وان لم اكن ولقا تماماً من رجاعتها من تلحية دينية. ناميك عما
يعكم به زملائي الاخرين ولا اظنهم من القدر نفسه من التسامح. قلت له:
اذهب يا ابني واعرف على دينك. فلذا وجدت فيه ما يلحق تسلمت بذلك في
وجه كل سفرية منك بين دينك. اما اذا وجدت حارياً من ذلك وجدت في
نفسك من القلق ما تراجح به ابواه.

رددت عليه بانها نصيحة لا تصدر الا من نزيه امين لا يضم دينه
للتفريدي من رتب نصحه. او بابتها فرصة جهل او ضعف او غفلة لتلحق
ذلك. ذكرته بمباركة كوليدج، التي صدر بها مؤامراته. خطب رده على
حمران المجمع الكونسي اياه من الكنيسة، وبغاد العبارة ان الذي يقدم
المسيحية على الحقيقة، يضر فليدم طائفته او كنيسة على المسيحية،
ويتنهي بان يضع نفسه ويوصلته الخاصة فوق الجميع. اما من يهدا
بتقدم الحقيقة على المسيحية، فقد يغني به ذلك الى المسيحية، ومنها الى
طائفته او كنيسة وربما انتهى به الى ما فيه صالته الفاضل.
قلت: لطيل رايقتا ما يفلون غير انني على يقين بان السيد المسيح في
عليه السلام لا بد مستحسن هذا الموقف الامين الذي لا يضل في
النصح. وبما يكن، فان الطريق الى الله شتى، وكل طريق يقود الى الفرح
والآخرة وتوحي مخالفة الله وخدمة كواب حبهيم على افضل ما علم الانسان
وجود في ذلك. لا بد ان يتقني اليه.

تراسلنا رثماً. وحين قرأت نبا استئصال المعلقة اليهودية القديمة
مطبعين وبعث بذلك لورم سوطاني ذكرت انه لعل في مرة لصلة صدقة تربط
بيننا وبين اسرة فهدلتها في اللضاء وقد ردت مشاركة في رسالتي، لي لفت
تشعبت اذلك صدقتي مع.

كان دكتور كولينز مسيحياً ولكن يده ممدودة في غير عرش الى
من دينه. كان داعية لدين ولكن في غير تعصب ضد مخالفيه او مخالفيه.
كان مكروساً وآتة لذلك ولكن في تسامح واربعية. كان تجسيدا لما في
المسيحية من سماحة وما في الانسانية من ترفع... ووجدته من اجل ذلك
رجلاً جديراً بالاحترام

لم يخلف عبد العزيز اسحق لاهله ثروة غير الذكريات
الرائعة والذكر الصمد. ونحن ايضا نذكره بحسبة
وامتنان، نذكره بما قدم لافريقيا من جهد وعون ساعة
حاجتها، ونذكره لما قدم لأسرة حبيبنا الغالي باتريس
لوممبا، ولأسيما باسمنا كعرب...

كنا جميعا على جانب كبير من الشقاوة، ولكن ملكنا بديان غير
التحمل والعطف والحب وبين حين وحين بديان العزم الضروي
لفروي بنخاف. كنت وأخي فرنسا نظن أن لكل طفل أبوين أحدهما
أبيض والآخر أسود، وأما واحدة بيضاء والآخرى سوداء. كانت
لك الأسرة المصرية أسرتنا.

ولا كان أهلنا مكاثلين، فقد كانت مماما تأخذنا للكنيسة كل احد
كما اعتدنا عند أهلنا، نتنظرن في الخارج حتى ننتهي من الصلوات
وتمينا للبيت. وفي ليلة عيد الميلاد نتنظرن منتصف الليل في البرد
حتى نهاية التراتيل الخاصة بالعيد، نتنظر في صبر حتى ننهي
فترجع بنا للبيت.

حين جاءت لامي الحقيقية من «الكوف» لأول مرة لم تجد ما
ينقص التربية التي تلقيناها شيئا يحزننا لبعدها عنا. في الواقع لم
يقلقنا شيء، عدم معرفتنا للغة القليلة، وما كان هذا ذنب
لممام المصرية، والشيء الثاني الذي هالنا أنها وجدتنا ناكل عشباً
أخضر ونحبه بشراهة. صرخت ما هذا الحشيش الذي تأكلونه...
انفجرت وفرنسا ضاحكين، اتدري ما هو الحشيش الأخضر الذي
استقطعت أكلنا له... يوجدته أشهى أكلة لنا ولا تزال... أنه
اللوخيا!

ثم أتى يوم جاء بهباء عبد العزيز ثائراً من القصب، همس
أدهم في رئاسة الجمهورية: «هذه فرصتك النادرة لتجمل من هذين
الطفلين مسلمين». رد عليه بهباء عبد العزيز وكيف تجوز على هذا
القول! لقد استودعني أباهما أبوهما طفلين مسيحيين، فكيف
أعيدهما له وقد جعلتهما من وراء ظهره وبلا أدن منه، مسلمين، انني
إن أعذر به قاطبان أخون ثقته. حين يكبران لهما أن يقررا لنفسيهما
ويضاررا الدين الذي يربون لهما. لكنني إن استلتم فرصة أنهما أمانة
في حنفي لأفعل فيهما ما ليس في تخويل فعله.

قالت لي دجوليانا، ولكننا كنا نصوم أياماً من رمضان تضامناً منا
مع أسرتنا المصرية في صيامها دون أن يلزمنا أحد بذلك، والحق، لقد
علمنا بهباء عبد العزيز أن تمتر بأصنامنا، وبامتثالنا الإفريقي، وأن
نحب وطننا ونحب إفريقيا. كل هذا للفصل يرجع إليه. لقد كان بهباء
عبد العزيز رجلاً شريفاً عفيفاً، مات رقيق الحال حين اغتني سواء.
وأعرف أن مماما بعد موته اضطرت لبيع بعض مقتنياتها. مماما
تعمل الآن موظفة بأذاعة بلد عربي. انني أحبها حيي لامي الحقيقية.

أما ريتي وروثي وسبيت حن سهرما على أولادها؟
نعم، لم يخلف عبد العزيز اسحق لاهله ثروة وكان في مقوره ولكنه
خلف لهم الثروة الحقيقية التي لهم إن يعتنوا بها، الذكريات الرائعة
والذكر الصمد.

ونحن أيضاً نذكره بحسبة وامتنان. نذكره بحسبائنا طلبت في
جامعة الخرطوم. ونذكره بما قدم لافريقيا من جهد وعون، ساعة
حاجتها، بهمة وتقان ووفاء وصمت. ونذكره لما قدم لأسرة حبيبنا
الغالي باتريس لوممبا، ولأسيما باسمنا كعرب. ونذكره لأشولة فذة في
المروعة والخلق الرفيع. ولأذهب العرف بين الله والناس.
أليك يا مماما - كما تسميكن فتاة إفريقية من بيت كريم - أليك
أيتما كنت. وأليك يا أولاد الراحل العزيز الاعزاء. تحية لكل أسرة
مصرية من طراز رفيع، بما قدمت المعروف في صمت وتحملة تبعتها
في تعقل وتكران ذات. وما استفانكم محكم بعد!

سأقدم لك أيها العزيز من هذا المكان، لنأسي رأيتمهم جدويين
بإحترامي. بعضهم عرفته شخصياً وبعضهم سمعت أو قرأت
عنه. وربما الذي حفز ذلك الاحترام كان شوقاً بسيطاً جداً، ولكن الذي
يهتم بالشئ البسيط لا يضع الشيء الكبير. تنقلت الشخصيات التي
رايت تقديمها ولكنها لتلقي في الحائرة والفضيلة.

□ □ □

كان المحرم عبد العزيز اسحق استلداً للابد العربي بجامعة
الخرطوم في الخمسينات. كان رجلاً هادئاً بابتسامة حيية تشويها
سخرية حبيسة. يضع على عينيه نظارات طبية يعطرها جبين مرتفع
قوي يلتفت النظر بشدة إلى ذلك هاد. تحسبه يتناول الأشياء
باستخفاف، وما كان. يدخل قاعة الدرس بلا أوراق، يرتجل محاضرة
في أسلوب خطابي مسترسل، كل جملة تند وكأنها خيلة مطرقة قوية.
وإذا فيها شيء لا يحسن، يحدثننا من كتاب «الأدب الجمالي» لمه حسين
حين صدر الكتاب فإثار زوبعة واهتزت شوارب الملك فؤاد. وخرج
طلاب الأزهر شاهرين السلاح الأحمر إلا وهو المراكيب. تعرف أنه
ليس الأكاديمي المتجرب، ولكنه رجل الموقف اللتزم، وما كان يصدر
منه ما يدل على التزامه بشيء محدد. هو مستخلف من أجل
الاستخفاف! ما وصلنا إلى شيء ولم يكن حاسماً شيئاً قوي. تثير
أحدى عباراته التي يليقها من غير أكرات مظاهرة ضده في أم درمان
ظهيبة يوم جمعة. يستقبل طلابه في اليوم التالي بنفس هدوء المعتاد
وابتسامته الراضية في خلاصة سفيرتها اللهوية. يطلق ما في
الصدق فيما قلت، هل أفريقه أنا؟ ليرجعوا إليه بنفسه في الظهيرة.
هو بالفعل هناك بالنص.

أنا من الخرطوم ذات يوم. ظهر في رئاسة الجمهورية بالمقاهرة
مستشاراً لعبد الناصر في الشؤون الإفريقية. هناك تجلت له مواهب
واهتمامات ما عرفناها فيه من قبل. أخذ يدرج إفريقيا طولاً وعرضاً
فهو في كل بؤرة مستعمر أو هدف خلف استعمارها. المقاهرة تصح
بكاتبة حركات التمرير الإفريقية - حينها التي صارت فيما بعد
الأحزاب الحاكمة - ولعله كان المسؤول عنها، وأليه يرجع ذلك
الاعتراف بالجميل الذي تحس به حتى اليوم لدى العديد من بلاد
إفريقيا تحوإن إفريقيا الكبير عبد الناصر. لم سمعنا في الخرطوم أن
عبد العزيز اسحق ظهر في جنوب إفريقيا وأنه مله طرفه منا. ثم انقطعت
أخباره.

في باريس قابلت جوليانا بنت باتريس لوممبا. كبر الأشبال صاروا
كأبيهم، أو لا أعرفه ذلك الزنبر حكت لي بحرية مصرية، ولكنه فيها
أن يتلجج، كيف أن والدهما البطل حين شعر بالخطر يطبق عليه من كل
جانب طلب من عبد الناصر أن يأخذ بعيداً عنه طفليه: جوليانا
وفرنسوا. أخرج الطفلين من بيت ورئيس الوزراء الشرعي. بيته
للحاصر، يتأكد أكرام سناييك الزنجليات القارعة. أخرجاً سراً
والخواب يكاد يقتل الطفلين. كلف عبد الناصر قائد الكتبة المصرية
من طيبربولديف - وكان الشاذلي - بتحويل الطفلين وأن يفتح النار
إذا جالو اعتراضهما معترض. وصل الطفلان الأمان في القاهرة.
آخر مرة يريان فيها أباهما البطل. فزلا عند أسرة مصرية كريمة
صارت أسرتها. أسرة عبد العزيز اسحق.
حدثتني بنت لوممبا: نشأتنا في كنف بهباء عبد العزيز وزوجه
الفضل، وكان نسهمها أيضاً مماما. تخرجنا مع أولادها كالأولاد.

هذا تعصب كروم لا يستحق أبداً ما حصل به. كل حادثة من حسابات استبدت لي.
عملياً حسن رأي فيه وشفتي به. هل حكيته لك قصة الاعرابي معصداً.

السلك، وإلا فيه من أعلنا في أماكن عديدة من السودان. مثلاً ذلك الجنوبي الذي حين تولى ذلك صديقي هذا جاءه من أين لا يدري، بل كيف سمع بأولئك لا يدري، قائلًا بل بعد التزينة إلى المرحوم استوديني بقرعة لي لهم وكل نتاجها، وشاركني في أخرى لكم نصفها ونصف كل نتاجها، ويصدر في حسابات أكثر تعقيداً وتداخلاً من وحده يعرف سرها. لو لم يأت ما كان لي علم بذلك.

«الفصلية» تنطبق في مبدأها من حاجة المجتمع للعن لمسيط علاقات الأفراد في العمل والمخالطة بغضاب وجهه معياراً لذلك، كبحرهم وقدمه، بطلت الوصال قريباً وترميها. وبالرغم من ذلك المعيار نحو التجريد. فإذا بالفصلية التي هي، وكانها ليست ابنة ذلك المجتمع المعين المحدد، منفصلة بذلك من أربها - القصيدة الاجتماعية والعن الزماني وربما الكائني - انفصال السحابة من البحر. هكذا تصير الضرورة منافية لها كيان منضبط يطلع سردي وربما بجوار الهي. وتبقى طويلاً لهذا السبب حتى بعد زوال القصيدة التي انجبت.

وهي في استمرار دائم من تلقينتها، «الطيلة» الاجتماعية التي هي معيها. لكل منهما تزيين أو تزيير أو تلميع من الجهة التي تستفيد من ذلك. فإذا انقسم المجتمع إلى فصين متساويين - القراش - صارت فصيلته فصيلتين متفاضلتين وإن لم يسمها الجانبان لتأوي فصيلته لكل منهما متين ومدايع، وإن ظلت الغلبة لفصيلته الذين لهم الغلبة. يحدث ذلك التصارب الاختلاقي لتضارب في المصلحة أو زاوية الزوية أو لولادة مجتمع جديد في أحضان المجتمع القديم. فالإرباب في نظر العرب بطرقة في نظر أعدائهم والعمل البطولي عند العرب أرواب وإجرام في نظر أعدائهم. وما إن العادة لا تمتد بهم إلا سيما إذا التقت بقصيدة جديدة، اتخذت كل من الفصائل طريق العمل والفعل، وكونها بطرقة وجبيلة، في النفس الشريفة أو كونهما فوق البشر. خذ اللواء، والاخلاص، والأمانة، والفضيلة، والمروءة، والتحمل، والفتوة، والأيام، والعفة إلى آخره.

من حسن حظهم أن تكون هذه هي فصيلته الراسخة المسجدة التي لا يجرؤ على تحديها أو الانتقاص منها أو الخروج عليها إلا القلة، ومن ثم تختف أو تاتل الحكمة الفصيلية التي تتصنع بتقليدها. في السودان مثلاً لا يلجا أحدهم إلا لما ويستصحبها للتصحب بالمثل «الفراب ربي عياله». هل حين تجد في بلد آخر أن الحكمة السائدة تتصنع، في تنطع وتجاسر بالغرب أو الضيافة أو الاستيعاب، أو الجشع أو أنه ضيق تيريداً أو تزييناً، فأمر مثلاً ما تجد سودانياً يستسيغون ضيفاً بأصالة كما يفعل غيرهم من العرب لأن العصاة عندهم محترمة ومجيدة وأتيرة.

فالرواية التي أوردتها لا تتعلل بفصلية مجتمع بدوي في طريق الانقراض وحسب، ولكن لأن جوهر تلك الفصيلية البدوية المستصفي يمكن أن يطن به ويريد الضعيف جليلاً ناشئاً بعد جيل بحيث تستمر الفصيلية ذات جدوى حتى في ظروف متغيرة، وبحيث يصير جوهرها المستصفي ذاك جوهر الضعيف نفسه. هذا ما يندرج في باب الاستمسك بالجوانب الإيجابية من التراث، أي الحفاظ على روح الأهل التي تحرعت بها، على ذاتها، فالإنسان ليس بجمية معها الأكل والتكاسل، أنه بالأضالة لا ذاك يلق ذلك كائن أخلاقي، لهذا لا يجد نفسه في دور يمل عليه العمل لتفويض فريضة الحياة أو هو يقدم على ذلك في أي ذلك ملهى الحياة. لذا أبحث شيقني مشعباً بغير يرفه ما أريد له، أنه بواقم القصيدة تصنها بإصلاح العتيق، ذاك الذي ظلت الأسلاف لنا، وفيها، ثم هو ينتشر بهذا الشرع المصغر الرائع فلذا هو نفسه مدعاهم رافع.

يقول حكيم استألت للثبي طولاً المشقة سلك للناس كلهم. الجود يلقر والادام قد قاله لأن توخي الفصيلية يدخل في الإحتسان القاسي. هذا الإحتسان القديم اليوم هو تفرع الصبر، والحق الضمير ورواة الضمائر والتمسك بالباطل الذي على الله أن يدفعه لكي يعيش المثل العليا للثقة والمبادئ، السامية المقصدة التي قيل أن فيها بهد الحياة الحقيقية ونظرة الضمير رغم ما يعتدي أو يطالب ذلك من حرمان وفقدان ومساء ومغالبة للنفس ومن تخشيع قد تصل حد الهلاك.

في هذه الجفاف والتحصن ضد الطغيان الصغير وتلك الذمجة المشتراة بخصم جنيتهم كدم رجل كبري، وهل أملكتم الحياة الاعرابي وأهلوه - الاعرابي راهي الأمانة الذي خلف سؤال الله رسولاً؟

أياً ما حدث لذلك الرجل الاعرابي فقد ذكرناه من دون النلس في باريس... رجلاً جديراً بالاحترام.

قالت لي شيقنتي «هذا شعب كريم لا يستحق أبداً ما حل به. كل لحظة من حياتي أكتب في عملياً حسن رأي فيه وشفتي به. هل حكيته لك قصة الاعرابي معصداً». قلت: أي عرابي؟ قلت: من شرق السودان... قلت لا من شرق ولا من غرب. حكته لي:

«عقب انتفاضة أكتوبر عام ١٩٦٤ على الحكم العسكري، اتخذت كما تعلم اللجنة الوحيية بالبرلمان ذات يوم جاني بدوي من أقصى شرق البلاد يقول لي سمعنا أنك ضامني النساء وأنا جئت الأركم من نصيب زوجي في الأثر. أخوتنا استولوا عليه والقصبة لا تستمر في طريق الحق ولا أريد أن يستغفروا. أرجو أن تردني لها حقها. قالت شيقنتي انصمت بأمر هذه المرأة، واتصلت برئيس القضاء الذي درس الأمر وأصدر تعليمات بشلته حتى بت في القضية بما رد للمرأة حقوقها.

ذات يوم جاني زوجي «الشيخ» من العمل وهو ضحك. سالته ماذا يفعله، قال لي مزارعي اليوم في اتحاد العمال صاحبك البدوي ليسركم يودعنا. أعطيت خمسة جنيهات يشتري بها زاداً للطريق. هل انني رايت المبلغ قليلاً لفكرتي في حيلة زبده له بها. أعطيت خمسة أخرى وقلت له حينما تصل، إذا وجدت خمسة مناسبة اشتراها لنا ولكن لا تشمل نفسك بذلك. فسحكتا معاً ونسيت الأمر في ساعته. وإذ كنت له نسيلاً بمرور الزمن، وتوالي الأحداث والمصالح.

عام ١٩٦٩ جاء اللعين جعفر النميري للحكم. عام ١٩٧١ شق الشيخ. وابتداء من وقتئذ وأنا حالي كما تعلم والأحداث يدلع بعضها بعضاً، أحداث عامة وأحداث خاصة. ولا أدري بعد من سنة من مقتل الشيخ جاء الرجل ثانية. ربما سمعنا أو استثنين لا أذكر. هتف بي أحد أولادنا بالمثل وقيل أي عرابي ينتظر بالباب يريد أن يكلمني في أمر ضروري. استغفرت الأمر، ليست ثوبتي وذهبت محاربة في أمر هذا الاعرابي الذي يصر على مقابلتي. وإذا بأمامي عن الاعرابي ذلك.

قرا الرجل حني الفلمحة ترصعاً على روح الشهيد في غية التثليل. ثم لشي خصاله الطيبة وأردف سمعت بالخير المشرؤم في وقته وكيت عليه وأعتن الظلم والظلم، ولكن الله لا يغفل من شيء وهذا هو شديد. وكنت أو جيتك بنفسي لكلمتي ما كنت أملك وقتها تكلفه السفر. ما جيتك لأزيتك فقد مر الزمن، ولكن جيتك في أمر يسألني عنه الله رسولاً.

سألته مستغربة ربما هذا الذي يسألك عنه الله رسولاً ما حاج؟ أجاب بأن الشهيد كان أعلاه قبل تركه الخرطوم، في تلك المرة التي جاء فيها عام ١٩٦٤، ما لا يشترط له به نعمة. أشرت له حين وصله نعمة من أحسن ما تكون النماذج انتجت في أعماها الأولى وقلت تنتج لا تتوكل، وانزع جناها وهكذا حتى صار لكم قطيع صغير هو الآن في نمتي. هذا الحين، جيتك لأعرف منك رايله هل أبويه وأبعد لك بطنه. أم تركه حاله ينمو ويرزك. ما أجروه لكم به تفعلون به ما ترون؟.

قالت لي اخني فسكت حين التضح في ما جاء به من شرق بلادنا البعيد. وقلت له أن غث أن يسألك عنه الله رسولاً كما قلت يا حاج، فأنا هافية لك عنه الله ورسوله. أعني الحقيقة هي عمرها من زوجي في جبهاتها، من رأى لبليغ الذي زودك به قليلاً عليك أفراد أن يزيد به بلف فاحتمل لذلك بحكاية النعمة ولم يحسب أنه تستعمل كلامه مجمل الجود، فما أراد نعمة لنفسه أو لئلا. النعمة وما أنتجت مالك أنت وحده لا تمن وهو حال خالص عليك، أفل به ما شئت.

قالت شكري الرجل دعنا للشهيد يرضوان ربه ولنا بلثوية وهد أن أكرمناه انصراع.

وأردت... هذا هو شعينا الحقيقي بوجهه وضميره الحقيقي. شعينا الذي يرمي الفصيلية ويقي بالحق وهو من أحد ما يكون الشخف والجمية. شعينا الذي تقع عليه عيبك لا ترى فيه ما يستغل النظر إذا لم تستخف به. فإذا هو في الموقف الصار يهشك بالعمل الذي لا يتروعه. تزعمت لثقتي فيه يوماً من الأيام. نعم، نرى من بعض الجانحين والسلاطين والمصريين عليه لومة وجهياً وغداً وإثنية ومكرراً. ولكن كم عداد هؤلاء مهما كثروا... كم عداهم؟ انتهان يستطعنوا فطس جوار الضمير، وفصلته التي غذي بها ورواهما والتمز بها سلوكاً وغاية. ووالله ما تعلم طلع علي تلك في يوم من الأيام، وأقبل علي ذلك الضمير الكريم حقاً تعيناً من أجله وتضحيته في سبيله. يوماً بعد يوم وبعد يوم وبعثني بشل هذه التدمشات.

حين حكيت هذه النادرة لجمع من الأصدقاء أكد واحد منهم مثل هذا

POEMES CHOISIS

(Extraits)

J'appartiens à l'Afrique, à son désert immense, au cercle de l'Equateur.

Son soleil m'a imprégné de toutes ses ardeurs,
Exposé à ses flammes, tel la victime du sacrifice sur un bûcher païen,
Calciné et noirci... comme le bois d'ébène j'appartiens à l'Afrique.

Arc-bouté sur son bâton,
La jambe repliée comme un héron dans l'eau,
Sans se lasser, de l'aube jusqu'au soir, il scrute l'horizon,
Espérant le nuage salulaire chargé de pluie.
La famine a décimé ses troupeaux.

Longtemps affilié au parti communiste soudanais, il n'hésita pas à le quitter dans les années 60 et à dénoncer avec courage les déviances idéologiques de ses dirigeants à un moment où ce parti était encore particulièrement puissant.

Outre de nombreux articles, Salah Ahmad Ibrahim a publié deux recueils de poésie : "Ghabat al abanus" (La Forêt d'ébène) et "Ghadabat al Hababay" (La Fureur du Hababay*), ainsi qu' un recueil de nouvelles : "Al Burjwaziyya al saghira" (La Petite bourgeoisie).

Sa langue classique et son style maîtrisé lui ont valu l'admiration de ses pairs (en particulier Tayyib Salih cet autre puriste) et le classent avec Muhammad al Fayturi, Muhammad al Makki Ibrahim et Abd Allah al Tayyib parmi les grands noms de la poésie soudanaise contemporaine.

*Hababay : mot du dialecte soudanais qui désigne un vent qui souffle en tempête détruisant tout sur son passage.

SALAH AHMAD IBRAHIM

Né en 1936 à Omdurman (Soudan), dans une famille d'intellectuels et d'hommes politiques (sa soeur Fatima fut la première femme soudanaise élue au parlement), Salah Ahmad Ibrahim entre à l'Université de Khartoum en 1954. Il étudie la littérature et la langue arabes avec des professeurs prestigieux tels que Abbas Mahmoud al Aqqad et Ali al Jarim, ainsi que la littérature anglaise. Il subira l'influence des poètes romantiques anglais tels que Byron, Keats et Shelley.

Il fut ambassadeur en Algérie et démissionna de son poste en 1978 en signe de protestation contre les condamnations à mort consécutives à l'une des nombreuses tentatives de coup d'état contre Numayri.

Il vécut par la suite en France où il collabora à la revue Al Yawm al sabi.

Il est mort à Paris le 17 mai 1993.

Nouvelliste et poète engagé, son oeuvre reflète ses préoccupations marxisantes. Il prend position pour les peuples opprimés (la Révolution algérienne lui inspirera l'un de ses plus beaux poèmes), dénonce la misère et l'exploitation, prêche l'égalité entre les sexes et la réconciliation nationale par l'arrêt de la guerre fratricide du nord contre le sud du pays. Il exprime également sa répulsion pour le régime militaire et la haine et l'ignorance sur lesquels il se fonde ainsi que son amour profond pour son pays.

Comme tous les poètes soudanais de sa génération fiers de leur africanité, il ignore les crises identitaires et revendique sa double appartenance aux deux aires
culturelles africaine et arabe

HOMMAGE A SALAH AHMAD IBRAHIM
(POETE SOUDANAIS)

SALAH AHMAD IBRAHIM

Né en 1935 à Onduman (Soudan), dans une famille d'intellectuels et d'hommes politiques (sa mère Fatima fut la première femme soudanaise élue au parlement), Salah Ahmad Ibrahim entre à l'Université de Khartoum en 1954. Il étudie la littérature et la langue arabes avec des professeurs prestigieux tels que Achour Mithmoud et Aggad et Ali al Jahm, ainsi que la littérature anglaise. Il absorbe l'influence de Kahlil Gibran.

HOMMAGE A SALAH AHMAD IBRAHIM (POÈTE SOUDANAIS)

Il fut ambassadeur en Algérie et démissionnaire de son poste en 1979 en signe de protestation contre les émeutes liées à la mort consécutives à l'assassinat de plusieurs personnes sous l'état d'urgence à Nangay.

Il vécut par la suite en France où il collabora à la revue al Yawm al sabi.

Il est mort à Paris le 17 mai 1993.

Nouvelliste et poète engagé, son œuvre reflète ses préoccupations marxistes. Il prend position pour les peuples opprimés (la Révolution algérienne lui inspira l'un de ses plus beaux poèmes), dénonce la misère et l'exploitation, prêche l'égalité entre les sexes et la réconciliation nationale par l'arrêt de la guerre fratricide du nord contre le sud du pays. Il exprime également sa répulsion pour le régime militaire et la haine et l'ignorance sur laquelle il se fonde ainsi que son amour profond pour son pays.

Comme tous les poètes soudanais de sa génération, il ignore les crises idéologiques et les appartenances aux divers courants.

Bibliothèque

Juin 1993

